AN EMPIRE LETTER

رسالة إمبراطورية

و قصص أخرى

فرانتز كافكا

STORIES
قصص



ترجمة

د. رمضان مهلهل سدخان



رسالة إمبراطورية وقصص أخرى

An Empire Letter And Other Stories

فرانتز كافكا

ترجمة: د. رمضان مهلهل سدخان

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2017

First Edition: Beirut - Lebanon, 2017



لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي شارع حسن باشا الجديد

تلفون: 07714440520 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com | dar alrafidain

info@daralrafidain.com | Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com | دارالرافدين@daralrafidain_1

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 321 - 6

فرانتز كافكا

رسالة إمبراطورية
وقصص أخرى

ترجمة:

د. رمضان مهلهل سدخان



www.daralrafidain.com

الفهرس

فرانتز كافكا

ولد فرانتز كافكا في براغ عام 1883، وهو ابن تاجر تشيكي يهودي ثري. درس القانون وعمل في شركة تأمين في براغ. عكف على تدوين مذكراته التي حلّل فيها بلا هوادة حياته الداخلية. في العام 1912 التقى بشابة من برلين، هي فليسي (فليس) باور، وارتبط بها مرتين لفترة قصيرة. إن شؤون حبّه غير المقنعة، وعلاقته بوالده، واستقامته الفكرية المتعنتة وحساسيته السايكوباثية في الأغلب، تضافرت في تدهور صحته. وفي العام 1917 اكتشف بأنه يعاني من السل. استقال من وظيفته لفترة قصيرة فيما بعد وبقي في مصحات مختلفة. في العام 1920 قابل ميلينا جيسينسكا ـ بولاك، التي أخذ يتراسل معها فيما بعد. في العام 1939 قابل دورا ديامانت وعاش معها لبعض الوقت في برلين. إلاّ أن تفاقم مرضه جعله يعود أدراجه إلى براغ قبل أن يدخل مصحّة بالقرب من فينا. توفي سنة 1924.

نشر كافكا أعمالاً قليلة في حياته وترك توجيهات تفيد بضرورة تدمير كتاباته غير المنشورة. إلاّ أن هذه التعليمات لم يأبه بها صديقه ومنفّذ وصيته ماكس برود. وهكذا ظهرت «المحاكمة» عام 1925، تبعتها «القلعة» عام 1926، و«أمريكا» عام 1927 و«سور الصين العظيم»، وهي مختارات من قصصه القصيرة، عام 1931.

ووصف أحد النقّاد كافكا بأنه «علامة عصره ونتاجه، وهو يصوّر بدقة مرعبة مأزق الإنسان العصري بحثاً عن الروح».

حکایتان رمزیتان تمهیدیتان

أمام القانون

يقف بواب أمام القانون. ولهذا البواب يأتي رجل من البلدة، ويتوسل للمثول أمام القانون. لكن البواب يقول بأنه لا يمكن منحه القبول في الوقت الحالي. يفكّر هذا الرجل ملياً في الأمر وبعد ذلك يسأل عما إذا كان سيسمح له بالدخول في وقت لاحق. يرد عليه البواب، «من الممكن، ولكن ليس الآن». ولأن البوابة تنتصب مفتوحة، كما جرت العادة، وبينما يخطو البواب إلى أحد الجوانب، ينحني الرجل للتحديق من خلال البوابة إلى الداخل. وإذ يلاحظ ذلك، يضحك البواب ويقول: «إذا كنتَ متحرّقاً جداً إلى الدخول، ماعليك إلاّ أن تحاول الدخول على الرغم من اعتراضي. ولكن يجب أن تعلم: أنني قوي. وأنني أقلّ البوابين بأساً. من قاعة إلى قاعة ثمة بواب تلو بواب، كل واحد فيهم أقوى من سابقه. البواب الثالث هو بالفعل مرعب جداً لدرجة أنني لا يمكنني أن أطيق النظر إليه». وهذه صعوبات لم يكن يتوقعها الرجل القادم من البلدة؛ فالقانون، حسب اعتقاده، لابد أن يكون سهل المنال في جميع الأوقات ولأي شخص، ولكن كونه يأخذ الآن نظرة فاحصة إلى البواب بمعطفه الفرو، وأنفه الحاد الكبير ولحيته الطويلة، الخفيفة، السوداء كالحبر، يقرر بأنه من الأفضل الانتظار حتى يحصل على إذن بالدخول. يعطيه البواب مقعداً ويسمح له بالجلوس في أحد جانبي الباب. ويجلس هناك لأيام وسنوات. ويقوم بعدة محاولات للدخول، ويزعج البواب بإلحاحه. وبين الفينة والفينة يقوم البواب بإجراء مقابلات معه، يسأله أسئلة حول بيته وأشياء أخرى كثيرة، إلاّ أن الأسئلة موضوعة بعدم اكتراث، مثلما

يضعها الأمراء العظام، ودائماً تنتهي بعبارة أنه لا يمكن السماح له بالدخول حتى الآن. هذا الرجل الذي قد جهّز نفسه بأشياء كثيرة من أجل رحلته، يضحّي بكل ما يملك، مهما كان قيّماً، لرشوة البواب. هذا البواب يقبل كل شيء، ولكن دائما مع هذه الملاحظة: «إنني لا أقبل هذا الشيء إلاّ لأكفيك عناء التفكير بأنك أغفلتَ أي شيء». وأثناء هذه السنوات العديدة يركّز الرجل انتباهه بشكل مستمر تقريباً على البواب. ينسى البوابين الآخرين، ويبدو له هذا البواب الأول العقبة الوحيدة التي تمنعه من الوصول إلى القانون. يلعن حظه العاثر، في سنواته الأولى بجرأة وبصوت عال؛ وفي وقت لاحق، وبينما يصبح أكبر سناً، لا يبدي سوى التذمر. ويصبح صبيانياً، وبسبب تأمله الطويل بالبواب فقد استطاع معرفة حتى البراغيث في ياقته الفرو، ويترجّى البراغيث أيضاً لمساعدته وتغيير عقلية البواب. وبعد طول انتظار يبدأ بصره يتدهور، إنه لا يعرف ما إذا كان العالم أكثر عتمة حقاً أو أن عينيه تخدعانه ليس إلاّ. ومع ذلك يكون في عتمته الآن على علم بوهج يتسّرب بلا هوادة من بوابة القانون. الآن ليس لديه ما يعيشه. قبل أن يموت، كل تجاربه في هذه السنوات الطوال تتزاحم في رأسه في نقطة واحدة، وهو سؤال لم يسأل البوابَ عنه بعد. يومئ له بالاقتراب، لأنه لم يعد قادراً على رفع جسمه المتصلّب. ويتوجّب على البواب أن ينحني إلى أدنى باتجاهه، لأن الفارق في الطول بينهما قد غيّر الكثير بالنسبة لهذا الرجل. «ماذا تريد أن تعرف الآن؟» يسأل البوابُ؛ «أنت لا تشبع». «كل شخص يسعى للوصول إلى القانون»، يقول الرجل، «لذلك كيف يحدث أن كل تلكم السنوات العديدة ولا أحدَ إلاّي قد توسل من أجل الوصول [إلى القانون]؟» يعترف البواب بأن الرجل قد بلغ غايته، وأن السماح لحواسه الخائرة بالتقاط الكلمات، تهدر في أذنه: «لا يمكن أبداً لأي شخص آخر هنا أن يُسمح له بالدخول، لأن هذه البوابة لم تُصنع إلا لك. وأنا الآن ذاهب لإغلاقها».

رسالة إمبراطورية

الإمبراطور، تقول الحكاية الرمزية، قد أرسل رسالة لك، الذات الذليلة، الظل غير المهم المنكمش في أبعد مسافة قبل أن تطلع الشمس الإمبراطورية. إذ إن الإمبراطور قد أرسل من فراش موته رسالة لك وحدك. وقد أمر الرسول أن يركع بجانب السرير، وهمس بالرسالة له؛ وبالتالي طالما أصاخ لها سمعه فإنه أمر الرسول بأن يهمس بها ثانية إلى أذنه. ثم بإيماءة من رأسه قد أكد بأنها صحيحة. نعم، أمام النظّارة الذين تجمهروا عند وفاته ـ تم تهديم كل الجدران المعيقة، وعلى السلالم المفتوحة الواسعة والمتزايدة بتعالٍ يقف في حلقة أمراء الإمبراطورية العظام ـ أمام هؤلاء جميعاً كان قد سلّم رسالته. ينطلق الرسول على الفور في رحلته؛ وهو رجل قوي، لا يعرف الكلل؛ وهو يدفع آناً بذراعه اليمنى، وآناً أخرى بذراعه اليسرى، فإنه يشق طريقة خلال حشد؛ وعندما يواجه مقاومة يشير إلى صدره، حيث يلمع رمز الشمس؛ وهكذا يُشَقّ له الطريق بشكل أسهل بالنسبة له من أي شخص آخر. لكن الجموع غفيرة جداً؛ إذ إن أعدادهم ليس لها نهاية. وإذا كان بمقدوره أن يصل إلى الحقول المفتوحة فما مدى السرعة التي سوف يطير بها، وقريباً بلا شك كنت تسمع دقّات قبضته المرحّبة على بابك. ولكن بدلاً عن ذلك كيف يضيّع عبثاً قوته؛ إلاّ أنه ما يزال يشق طريقه خلال غرف القصر التي لا قرار لها؛ لن يبلغ أبداً نهاية لها؛ وإذا ما نجح في ذلك فإنه لا يحظى بشيء؛ وعليه فيما بعد أن يشق طريقه أسفل السلّم؛ وإذا ما نجح في ذلك فإنه لا يحظى بشيء؛ ولا بد من عبور فناءات؛ وبعد الفناءات هناك القصر

الخارجي الثاني؛ ومرة أخرى السلّم والفناءات. ومرة أخرى قصر آخر؛ وهلّم جرا لآلاف السنين؛ وإذا في نهاية المطاف تحتّم عليه أن يشق طريقه خلال البوابة الأبعد ـ ولكن لا يحدث هذا أبداً، أبداً ـ فإن العاصمة الإمبراطورية تمتد أمامه، مركز العالم، محشورة تمور برواسبها الخاصة بها. لا أحد يمكنه أن يشق طريقه هنا حتى لو كان يحمل رسالة من رجل ميت. ولكنك تجلس عند نافذتك عند حلول المساء وتتخيل ذلك بنفسك.

القصص الطوال

وصف الكفاح

والناس في يوم الأحد
يتمشون، متمايلين على الحصى
تحت هذه السماء الهائلة
التي، من التلال في المدى البعيد،
تتمطى إلى التلال الأبعد.

I

عند منتصف الليل تقريباً نهض عدد قليل من الناس، وانحنوا، وتصافحوا، وقالوا بأن هذه كانت أمسية جميلة، ومن ثمّ مروا من خلال المدخل الواسع إلى داخل الدهليز، لارتداء معاطفهم. وقفت المضيفة في وسط الغرفة وقامت بحركات ركوع رشيقة، مما تسبب في جعل الطيات الفاتنة في تنورتها تتحرك صعوداً ونزولاً.

جلستُ على طاولة صغيرة ـ كان لها ثلاث سيقان منحنية، رقيقة ـ وأنا أحتسي كوبي الثالث من البينديكتين، وبينما كنت أشرب استطلعت متجري الصغير من الحلويات التي كنت انتقيتها بنفسي ورتبتها في كومة.

ثم رأيت أحد معارفي الجدد، أشعث إلى حد ما وعتيق الطراز، يظهر عند عضادة باب غرفة مجاورة؛ لكنني حاولت أن أشيح بنظري بعيداً لأن هذا لم يك يهمني. بيد أنه جاء نحوي، ويبتسم بشرود على انشغالي، وقال: «عذراً

على الإزعاج، ولكن حتى هذه اللحظة كنت أجلس وحيداً مع ابنتي في الغرفة المجاورة. كنت هكذا منذ العاشرة والنصف. سيدي، يا له من مساء! أعلم أنه ليس من الصواب بالنسبة لي أن أقول لك هذا، لأننا لا يكاد يعرف أحدنا الآخر. التقينا فقط على السلّم هذا المساء وتبادلنا بضع كلمات كضيوف في المنزل نفسه. والآن ـ لكن عليك أن تغفر لي، من فضلك ـ سعادتي لا يحدها حدود، ولا يسعني أن أخفيها. ولأنني ليس لدي أي قريب آخر هنا أستطيع أن أثق به»...

نظرت إليه بحزن ـ فالقطعة من الكعك الذي كان في فمي لم يكن مذاقه سليماً على نحو خاص ـ وقال بوجهه المتورد إلى حد ما: «أنا سعيد بالطبع بأنك تراني جديراً بالثقة، لكنني مستاء كونك وثقت بي. وأنت نفسك أيضاً، لو لم تكن في مثل هذه الحالة، لعرفتَ كيف أنه من غير اللائق الحديث عن فتاة عاطفية لرجل يجلس وحده يحتسي المسكر».

عندما قال هذا، جلس صعقاً، انحنى إلى الخلف في كرسيه، وسمح لذراعيه بالتدلي إلى أسفل. ثم ضغطهما مرة أخرى، ونتأ مرفقاه، وبدأ يتحدث بصوت عال نوعاً ما: «كنا لوحدنا فقط قبل قليل في تلك الغرفة، آني وأنا. وقبّلتها، وقبّلتها ـ فمها، أذنيها، كتفيها. آه يا ربي ومنقذي!»

ثمة عدد قليل من الضيوف، وهم يشكون بأن يكون حوارنا أكثر حيوية، اقتربوا منا، يتثاءبون. عندها وقفت وقلت بحيث يتسنى للجميع سماعي: «حسنٌ إذن، عندما تصرون، سأذهب معكم، لكنني أكرر: أنه أمر مثير للسخرية تسلق التل الآن، في فصل الشتاء، وفي منتصف الليل. فضلاً عن ذلك، الدنيا تتجمد، ولأنها كانت تثلج فإن الطرق هناك كانت تشبه حلبات التزحلق على الجليد. حسنٌ، كما تشاء»...

في البداية أخذ يحدق في وجهي بدهشة وفرّق شفتيه المبللتين؛ وعندها،

بينما كان يلاحظ الضيوف الذين قد اقتربوا جداً، ضحك، ووقف، ثم قال: «أعتقد أن البرد يُسدي لنا معروفاً؛ فملابسنا مليئة بالحرارة والدخان؛ أضف إلى ذلك، أنني منتشٍ قليلاً من دون أن أحتسي الكثير؛ نعم، دعونا نقول وداعاً وننصرف».

لذلك ذهبنا إلى المضيفة، وبينما قبّلَ يدها قالت: «أنا سعيدة لرؤيتك تبدو سعيداً جداً اليوم».

ولتأثّره برقة هذه الكلمات، قام بتقبيل يدها مرة أخرى؛ عندئذ ابتسمتْ. واضطررتُ إلى جرّه بعيداً. في الدهليز وقفت خادمة، لم يسبق لنا رؤيتها من قبل. ساعدتنا في معاطفنا وبعد ذلك أخذتْ فانوساً صغيراً لتضيء لنا أسفل السلّم. كانت رقبتها عارية خلا شريط مخملي أسود حول رقبتها؛ وقد انحنى جسدها الذي تغطيه ثياب فضفاضة وبقي يتمطّى بينما كانت تنزل إلى أسفل السلّم قبلنا، وهي تحمل الفانوس. كانت وجنتاها متوردتين، لأنها كانت قد احتست شيئاً من النبيذ، وفي ضوء المصباح الضعيف الذي عمّ السلّم كله، استطعت أن أرى شفتيها ترتجفان.

عند أسفل السلّم وضعتْ الفانوس، وتقدّمتْ خطوة نحو قريبي، عانقته، قبّلته، وبقيا في أحضان بعضهما. فقط عندما ضغطتُ بعملة معدنية في يدها قامت بتكاسل بفصل ذراعيها عنه، وببطء فتحتْ الباب الأمامي، وسمحتْ لنا بالخروج في الليل.

في الشارع المهجور، المضاء بشكل متساوٍ، بزغ قمر كبير في سماء غائمة قليلاً، وممتدة بشكل غير عادي. وعلى الثلج المتجمد كان المرء مضطراً إلى اتخاذ خطوات قصيرة.

وبالكاد كنا في الخارج حتى بدأتُ بشكل جليّ أشعر بالسعادة. رفعتُ ساقيّ، وجعلتُ مفاصلي تطقطق، وصرخت بأحد الأسماء في الشارع كما لو أن صديقي قد اختفى في المنحنى؛ وأنا أقفز، رميت قبعتي في الهواء وقبضتُ عليها متفاخراً.

استمر قريبي، مع ذلك، بالسير إلى جانبي، غير مبالٍ. سار مطرق الرأس، حتى أنه لم ينبس ببنت شفة.

فاجأني هذا، لأنني كنتُ قد حسبتُ بأنه، ما إن وجدته بعيداً عن الحفلة، سيطلق العنان لمباهجه. الآن أنا أيضاً يمكن أن أهدأ. ولم أكد أن أعطيه ضربةمشجعة على الظهر حتى أنني فجأة لم أعد أفهم مزاجه، فسحبت يدي. ولأنني لم أشأ أن أستخدمها في شيء، فإنني دسستها في جيب معطفي.

لذلك سرنا بصمت. وبينما كنت أستمع إلى صوت خطواتنا، لم أستطع أن أفهم لماذا لم أكن قادراً على اللحاق بقريبي ـ خاصة وأن الهواء كان نقياً وبمقدوري أن أرى ساقيه بوضوح تام. هنا وهناك ثمة شخص ما انحنى من نافذة وأخذ يراقبنا.

عندما دخلنا شارع فيرديناند أدركت بأن قريبي قد بدأ يدندن بأغنية من مسرحية الأميرة الثرية. كان الصوت منخفضاً، لكنني استطعت سماعها بوضوح. ماذا كان يعني هذا؟ هل كان يحاول إهانتي؟ أما بالنسبة لي، فأنا على استعداد ليس للاستغناء عن هذه الموسيقى فقط، بل عن المشي أيضاً. لماذا لم يتكلم معي، على أية حال؟ وإذا لم يكن بحاجة لي، فلماذا لم يتركني بسلام في الغرفة الدافئة مع البينديكتين والمعجنات؟ بالتأكيد لم يكن أنا مَن كان قد أصر على هذه المسيرة. فضلاً عن ذلك، فإنني كنت استطعت أن أذهبِ في نزهة على الأقدام بمفردي. لقد كنت في إحدى الحفلات، وقد أنقذت شاباً جاحداً من العار، وهو الآن يتجول تحت ضوء القمر. كان كل ذلك على خير ما يرام، أيضاً. طوال اليوم في المكتب، وفي الأماسي في الحفلة، وعند الليل في الشوارع، ولا شيء أبعد من ذلك. طريقة في الحياة طبيعية جداً بحيث تكاد تكون مفرطة!

مع ذلك كان قريبي ما يزال ورائي. وبالفعل، فإنه قد غذّ الخطى عندما أدرك بأنه قبع في المؤخرة. لم ينبس أحد ببنت شفة، ولا يمكن أن يقال إننا كنا نركض.

ولكن كنت أتساءل إذا لم تكن فكرة جيدة أن ننعطف في شارع جانبي؛ مع ذلك، لم أكن مضطراً للذهاب في هذه المسيرة معه. كان يمكنني أن أعود أدراجي وحيداً إلى البيت ولا يمكن لأحد أن يمنعني. ثم، وبشكل سرّي، كان بمقدوري أن أراقب قريبي وهو يعبر المدخل نحو شارعي. وداعاً، يا قريبي العزيز! عند وصولي إلى غرفتي سأشعر بالدفء، سأضيء المصباح في حامله الحديدي على طاولتي، وعندما أفرغ من هذا سوف أستلقي في كرسيي ذي المساند الذي ينتصب على السجادة الشرقية الممزقة. يا لها من تصورات سارّة! لِمَ لا؟ لكن ثم ماذا؟ لا جديد. المصباح سيلمع في الغرفة الدافئة، ويأتلق في صدري بينما أستلقي في كرسيي ذي المساند. بعد ذلك سوف أهدأ وأقضي ساعات وحيداً بين الجدران المطليَة والأرضية التي، عند انعكاسها في المرآة المؤطرة بالذهب المعلقة على الجدار الخلفي، تبدو مائلة.

أصبحت ساقاي متعبتين، وكنت قد قررت بالفعل العودة إلى البيت والاستلقاء، عندما بدأت أتساءل، قبل الذهاب بعيداً، إن كان يجب أن أقول ليلة سعيدة لقريبي. لكنني كنت خجولاً جداً بحيث لم أذهب بعيداً بدون كلمة و[كنتُ] خائر القوى جداً بحيث لا أقوى على أن أدعوه بصوت عال. لذلك وقفت واجماً، وانحنيتُ على جدار المنزل المقمر، وانتظرت.

جاء قريبي يغذّ الخطى على طول الرصيف باتجاهي بسرعة كما لو أنه توقعَ أن أمسكه. غمز في وجهي، ما يشير إلى نوع من الاتفاق الذي كنت نسيته على ما يبدو.

«مالخطب»؟ تساءلت.

«أوه، لا شيء»، قال. «أردت فقط أن آخذ رأيك بشأن تلك الخادمة التي قبّلتني على السلّم. مَن هي تلك الفتاة؟ هل سبق لك أن رأيتها من قبل؟ لا؟ ولا أنا. هل كانت خادمة؟ كنت قد قصدتُ أن أسألك هذا من قبل، بينما كانت تمشي أسفل السلّم أمامنا».

«رأيت في الحال عن طريق يديها الحمراوين بأنها خادمة، وحتى لم تكن الخادمة الأولى، وعندما أعطيتها النقود شعرت ببشرتها القاسية».

«لكن هذا يثبت فقط بأنها كانت في وقت ما في الخدمة، وهذا بلا شك هو الحال».

«قد تكون على حق في ذلك. في هذا الضوء لا يمكن للمرء أن يميز كل شيء، لكن وجهها ذكّرني بالابنة الكبرى لضابط شاءت الصدف أن أعرفه».

«ليس أنا»، قال.

«ذلك لن يمنعني من الذهاب إلى البيت؛ الوقت متأخر ويجب أن أكون في المكتب في وقت مبكر.

المرء ينام بشكل سيئ هناك». وعندها أخرجتُ يدي لأودّعه.

«يا للعجب، يا لها من يدٍ باردة!» صرخ. «لا أريد العودة إلى البيت بيد كهذه. عليك أن تدعها تقبّلك، أيضاً، يا صديقي. كان ذلك إغفالاً. مع ذلك، يمكنك تعويض ذلك. ولكن هل أنام؟ في ليلة كهذه؟ يا لها من فكرة! فقط تخيّل عدد الأفكار التي تخمدها بطانية واحدة وأنت تضطجع وحدك في السرير، وعدد الأحلام غير السعيدة التي تبقيها [البطانية] دافئة». قلتُ، «أنا لا أخنق أي شيء ولا أدفئ أي شيء».

واختتم قوله، «طيب، على رسلك! كنتَ ساخراً!»

في الوقت نفسه بدأ يمشي مرة أخرى وتبعتُه دون أن أدرك ذلك، لأنني كنت مشغولاً أفكّر بما قاله.

من هذه الكلمات تخيلت أن قريبي يشكّ بشيء ما فيّ، شيء ما، على الرغم من أن لا وجود له هناك، جعلني مع ذلك أسمو في تقديره من خلال اشتباهه

بذلك الشيء. لذلك حسناً فعلتُ أنني لم أذهب إلى البيت. مَن يعرف، إن هذا الرجل ـ الذي يفكر في شؤون الخادمة أثناء مسيره بجانبي، وفمه ينفث بخاراً بسبب البرد ـ قد يكون قادراً على منحي في نظر العالم قيمة من دون الحاجة إلى السعي من أجل ذلك. دعونا نبتهل بأن الفتيات لن يفسدنه! مهما كلّف الأمر فلْيقبّلْنه ويعانقْنه، فذلك واجبهن وحقه هو، ولكن يجب أن لا يطوّحن به بعيداً. بعد كل ذلك، عندما يقبّلنه فإنهن أيضاً يقبّلْنني قليلاً ـ بزوايا أفواههن، إذا جاز التعبير. لكن إذ يخطفنه، عندئذ فإنهن يسرقنه مني. وهو دائماً يجب أن يبقى معي، دائماً. مَن سيحميه، إن لم أكن أنا؟ كما أنه غبي جداً. شخص ما يقول له في شباط: تعال إلى التل ـ فيذهب إلى هناك. ولنفترض أنه يكبو الآن، أو يصاب بالزكام؟ لنفترض أن رجلاً ما غيوراً يظهر من شارع بوستجاس ويهاجمه؟ ماذا سيحدث لي؟ هل سأُرمى خارج العالم؟ سأصدّق بذلك عندما أرى هذا! لا، إنه لن يتخلص مني.

غداً سوف يتحدث إلى الآنسة آنا، عن أشياء عادية في البداية، كما هو طبيعي، لكنه فجأة لن يكون قادراً على إخفاء ذلك عنها مدة أطول: الليلة الماضية، يا آني، بعد الحفلة، حسبما تتذكرين، كنتُ مع رجل لم يسبق لك أن رأيتِ مثيله قط. بدا ـ كيف يمكنني أن أصفه لك؟ ـ مثل عصا تتدلى في الهواء، بدا، بجمجمة سوداء الشعر من الأعلى. كانت تغطي بدنه الكثير من خرق القماش الصغيرة الصفراء التي علته تماماً لأنها كانت تتدلى بالقرب منه في الهواء الساكن من الليلة الماضية. حسناً، آني، هل هذا يفسد شهيتك؟ أيفسدها بالفعل؟ في تلك الحالة هذا هو خطأي، بعدها قلتُ كل شيء بشكل سيئ. فقط لو كنتِ رأيته، وهو يمشي على استحياء بجانبي، ويقرأ الافتتان على وجهي (حيث لم يكن هذا صعباً جداً)، ويقطع شوطاً طويلاً أمامي حتى لا يزعجني. أنا أعتقد، يا آني، أنكِ قد ضحكتِ قليلاً وتملّكك الخوف بعض الشيء؛ لكنني كنتُ سعيداً بصحبته.

أين كنتِ، يا آني؟ كنتِ في سريرك، وسريرك كان بعيداً ـ ربما كان في أفريقيا. لكن في بعض الأحيان شعرتُ حقا كما لو أن السماء المرصعة بالنجوم ارتفعت وسقطت بسبب لهاث صدره المسطح. هل تعتقدين بأنني أبالغ؟ لا، يا آني. وحق روحي، لا. وحق روحي التي تنتمي إليك، لا.

وأنا لم أدّخر لقريبي ـ إذ إننا قد بلغنا للتو الخطوات الأولى لفرانزنسكاي ـ أصغر جزء من الذل الذي لا بد أن يكون قد شعر به في إلقاء مثل هذا الكلام. ناهيك عن أن أفكاري أصبحت مشوّشة عند هذه اللحظة، ذلك لأن مولدافيا وربع المدينة على الشاطئ الأبعد امتدّا معاً في الظلام. ثمة عدد من الأضواء المتوهجة هناك أثارت العين.

عبرنا الطريق من أجل الوصول إلى السياج الحديدي على طول النهر، وهناك وقفنا صامتين. وجدتُ شجرة أتكئ عليها. وبسبب البرد المتفجر من الماء، ارتديتُ قفازيّ، وتنهدت من دون سبب وجيه، لأن المرء يميل إلى القيام بهذا في الليل بجانب النهر، لكن في ذلك الحين أردتُ الاستمرار في السير. كان قريبي، على أية حال، يحدّق في الماء، ولم يتزحزح. بعدها تحركَ مقترباً من السياج الحديدي؛ وبينما كانت ساقاه باتجاه القضيب الحديدي، أسندَ مرفقيه ووضع جبهته في يديه. ماذا بعد؟ مع ذلك، كنت أرتجف، وتوجّب عليّ أن أرفع ياقة معطفي. تمطّى قريبي ـ إذ مدّد ظهره، كتفيه، رقبته ـ ورفع النصف العلوي من بدنه، الذي استند على ذراعيه المشدودين، وانحنى على السياج الحديدي.

قلتُ: «حسناً، إنها ذكريات». نعم، حتى التذكر بحد ذاته أمر محزن، مع ذلك كم عظيم هذا الشيء! لا تستسلم لأشياء من هذا القبيل، فهو لا يليق بك وبي. انه يضعف الموقف الحاضر للمرء ليس إلاّ دون تعزيز الموقف السابق ـ ليس هناك ما هو أكثر وضوحاً ـ بصرف النظر عن حقيقة أن الموقف السابق لا يحتاج إلى التعزيز. هل تعتقد بأنه ليس لدي أية ذكريات؟ أوه، لدي عشر مقابل كل

واحدة مما لديكم. الآن، على سبيل المثال، يمكنني أن أتذكر الجلوس على مقعد على التلّة. كان ذلك في المساء، وأيضاً قرب نهرٍ. في الصيف، بطبيعة الحال. وفي مثل هذه الأمسيات من عادتي أن أسحب ساقيّ وأضع ذراعيّ حولهما. أسندتُ رأسي على الظهر الخشبي للمقعد، ومن هناك شاهدت الجبال الشبيهة بالغيوم على الشاطئ الآخر. ثمة كمان يعزف بهدوء في الفندق بجانب النهر. بين الفينة والفينة على كلتا الضفتين كانت القطارات تجلجل وسط الدخان المتصاعد».

وهو يستدير حوله فجأة، قاطعني قريبي؛ بدا وكأنه اندهش إذ يراني ما أزال هنا. «أوه، يمكنني أن أقول لك الكثير»، قلتُ له، دون أن أضيف أي شيء آخر.

وبدأ قائلاً، «لك أن تتخيل»، وسيحدث دائماً مثل هذا. اليوم، بينما كنت ذاهباً في الطابق السفلي لأتمشّى قليلاً قبل حفلة المساء، لا يمكنني إلاّ أن أتفاجأ بالطريقة التي تتدلّى فيها يداي في أصفادي، وهما يتدلّيان بمرح. الأمر الذي جعلني أفكر فوراً: ما عليك سوى الانتظار، سيحدث شيء ما اليوم. وحدث بالفعل، أيضاً». قال هذا وهو يستدير للذهاب ونظر في وجهي مبتسماً بعينيه الكبيرتين.

لذلك حصلت بالفعل على مبتغاي بأسرع ما يمكن. كان بوسعه أن يقول لي أشياء من هذا القبيل وفي الوقت نفسه يبتسم وينظر في وجهي بعينيه الواسعتين. وأنا ـ عليّ أن أكبح جماح نفسي من وضع ذراعي حول كتفيه وتقبيله على العيون كمكافأة لعدم حصوله على أي شيء ذي فائدة بالنسبة لي. لكن الأسوأ هو أنه حتى هذا لم يعد بمقدوره إنزال أي ضرر لأنه لا يمكن تغيير أي شيء، حتى الآن كان عليّ أن أذهب بعيداً، بعيداً بأي ثمن.

بينما كنت ما أزال أحاول بشكل عاجل التفكير في بعض الوسائل التي تمكّنني من البقاء على الأقل فترة أطول قليلاً مع قريبي، خطرَ ببالي بأنه ربما

قامتي الطويلة أغضبته بجعله يشعر بأنه صغير جداً. وهذه الفكرة ـ على الرغم من أنها كانت في وقت متأخر من الليل، وكنا بالكاد نلتقي بأي شخص ـ فقد آلمني كثيراً بأنه بينما كنا نمشي أحنيتُ ظهري حتى وصلت يداي ركبتَي. ولكن من أجل منع قريبي من ملاحظة حقيقة نواياي غيّرتُ موقفي بشكل تدريجي جداً، وحاولت تشتيت انتباهه عني، مرة بتحويله نحو النهر، ومرة بالإشارة إليه بيدين ممدودتين إلى الأشجار على الجزيرة وإلى الطريق حيث مصابيح الجسر تنعكس في النهر.

لكن بينما دار فجأة حوله، نظر إليّ ـ وأنا لم أنتهِ تماماً بعد ـ وقال: «ما هذا؟ أنت مقوّس الظهر تماماً؟ ماذا تنوي بحق السماء؟»

«صحيح تماماً. أنت ملاحِظ دقيق»، قلتُ له، ورأسي على درز بنطاله، وهذا هو السبب في أنني لم أستطع أن أنظر بشكل صحيح.

«دعك من هذا! قفْ منتصباً! ما هذا الهراء!»

«لا»، قلت، ووجهي منكّس إلى الأرض، «سوف أبقى كما أنا».

«لا بد أن أقول بأنك حقاً يمكنك أن تزعج أي شخص. وهذا مضيعة للوقت! هيا، ضعْ حداً لهذا».

قلتُ، «ما هذه الطريقة التي تصرخ بها! في هدأة الليل!»

«أوه حسناً، تماماً مثلما تحب»، وبعد هنيهة أضاف: «الساعة الآن الواحدة إلاّ ربعاً». كان قد رأى بوضوح الوقت على ساعة البرج.

وقفتُ على الفور منتصباً كما لو أنني سُحِبتُ من شعري. أبقيتُ فمي مفتوحاً لبرهة، لأدع انفعالاتي تهرب. فهمتُ بأنه سيطوّح بي بعيداً. لم يكن هناك مكان لي بقربه، أو لو كان هناك مكان، على الأقل لا يمكن العثور عليه. لماذا، بالمناسبة، هل كنتُ عازماً جداً على البقاء معه؟ لا، عليّ أن أنصرف ـ وهذا يكون

فوراً ـ إلى أقاربي وأصدقائي الذين ينتظرونني. ولكن إذا لم يكن لديّ أي أقارب وأصدقاء عندها يجب أن أدافع عن نفسي (ما جدوى الشكوى!)، لكن يجب أن أغادر من فوري. لأنه لا يوجد في عينيه شيء يمكن أن يخلصني من ذلك، لا طولي، ولا شهيتي، ولا يدي الباردة. لكن إذا رأيتُ أنني مضطر إلى البقاء معه، فهذا رأي خطير.

«لم أكن بحاجة إلى معلوماتك» قلتُ، وهذا صادف أن يكون صحيحاً.

«الحمد للّه أنك تقف مرة أخرى منتصباً. كل الذي قلته إن الوقت هو الواحدة إلاّ ربعاً».

«ذلك صحيح تماماً»، قلتُ، ووضعتُ ظفرين في الفجوات بين أسناني المثرثرة. «إذا لم أكن بحاجة إلى معلوماتك، فلا حاجة لي بأي توضيح. الحقيقة هي، لست بحاجة إلى شيء سوى رحمتك. من فضلك، أعدْ لي ما قلتَه للتو!»

«هل الساعة الواحدة إلاّ ربعاً؟ ولكن بكل سرور، خصوصاً وأن الواحدة إلاّ ربعاً مرت منذ فترة طويلة».

رفع ذراعه اليمنى، حرّك يده، واستمع لصوت شبيه بصوت الصنج صادر من حلقات أكمامه.

ومن الواضح أن هذا هو الوقت المناسب لعملية القتل. سأبقى معه وببطء سوف يسحب الخنجر ـ حيث يمسك مقبضه في جيبه ـ على طول معطفه، ومن ثم يغرزه فيّ. ومن غير المحتمل أنه سيتفاجأ ببساطةِ كلِّ هذا تماماً ـ مع ذلك ربما سيتفاجأ، من يدري؟ لن أصرخ، سأحدّق في وجهه ليس إلاّ، طالما تستطيع عيناي تحمّل ذلك.

«حسناً؟» قال.

أمام مقهى بعيد ذي نوافذ سوداء ثمة شرطي سمح لنفسه بالانزلاق على

الرصيف كمتزلج. وإذ يعرقله سيفه، أخذه بيده، والآن انحدرَ لمسافة لا بأس بها، لينتهي أخيراً برسم دائرة تقريباً. في نهاية المطاف جعل يغنّي بوهن وبينما ما زال يدندن، بدأ بالتزلج مرة أخرى.

لم يراودني الشعور بخوف ما حتى وصول هذا الشرطي ـ الذي، يبعد مائتي قدم عن عملية قتل وشيكة، لم يرَ ويسمع إلاّ نفسه. أدركتُ أنه سواء سمحتُ لنفسي أن أُطعَن أو أهرب، فإن نهايتي قد حانت. ألن يكون من الأفضل، بعد ذلك، الهرب، وبالتالي تعريض نفسي لموت صعب وأكثر إيلاماً؟ لم أستطع على الفور وضع إصبعي على الأسباب الداعمة لهذا النوع من الموت، ولكن لم أستطع تحمل قضاء الثواني الأخيرة المتبقية أبحث عن الأسباب. سيكون هناك وقت لذلك فيما بعد بشرط أنني امتلكتُ التصميم، والتصميم هو الذي أمتلك.

كان عليّ أن أهرب، سيكون هذا سهلاً جداً. عند التحول إلى اليسار على جسر تشارلس كان يمكنني أن أقفز إلى اليمين في زقاق تشارلس. كان الطريق متعرجاً، وثمة مداخل مظلمة، وحانات ما تزال مفتوحة؛ إذن لم أكن بحاجة إلى اليأس.

بينما خطونا من تحت القوس في نهاية رصيف الميناء على ساحة العبور، ركضتُ إلى ذلك الشارع وذراعاي مرفوعتان. لكن أمام باب صغير سقطتُّ في الكنيسة، ذلك لأنه كانت ثمة درجة سلّم لم أكُ أتوقعها. صدرت ضوضاء قليلة، ومصباح الشارع المجاور كان بعيداً جداً، لذلك تمدّدتُ في الظلام.

من حانة في الجهة المقابلة جاءت امرأة بدينة تحمل فانوساً لرؤية ما حدث في الشارع. كان هناك بيانو في الداخل مستمر في العزف، لكن بشكل واهن، وبيد واحدة فقط، لأن عازف البيانو قد اتّجه نحو الباب الذي، حتى الآن كان مواربأ، فتحه على مصراعيه رجل يرتدي معطفاً بأزرار عالية. بصق ومن ثم عانق المرأة بعنف لدرجة اضطرت فيها إلى رفع الفانوس من أجل حماية ذلك الفانوس.

«لم يحدث شيء!» صرخ في الغرفة، حيث استدار كلاهما، ذهبا إلى الداخل، وأغْلِق الباب.

عندما حاولتُ النهوض سقطتُ مرة أخرى. «جليد صلد»، قلتُ، وشعرتُ بألم في ركبتي. مع ذلك سرّني أن الناس في الحانة لم يروني وأنني يمكن أن أضطجع هنا بسلام حتى الفجر.

يبدو أن قريبي قد سار حتى الجسر من دون أن يلحظ اختفائي، لأن ذلك كان في وقت قبل أن يلتحق بي. لم أرَ أية علامات اندهاش عندما انحنى فوقي ـ انخفض أكثر قليلاً من عنقه، تماماً كالضبع ـ ومسّدني بيد ناعمة. مررها صعوداً ونزولاً على عظمة وجنتي ومن ثم وضع راحته على جبهتي. «لقد آذيتَ نفسك، إيه؟ حسناً، الجو متجمد وعلى المرء أن يحذر ـ ألم تخبرني بذلك بنفسك؟ هل يوجعك رأسك؟ لا؟ أوه، الركبة. هم. ذلك سيئ».

لكنه لم يخطر بباله مساعدتي. أسندتُ رأسي بيدي اليمنى، ومرفقي على الحصاة، وقلتُ: «نحن هنا معاً مرة أخرى». وبينما بدأ خوفي يعود، ضغطتُ كلتا يديّ على ساقه من أجل أن أدفعه بعيداً. «لا تبتعد»، قلتُ.

وضع يديه في جيوبه ونظر إلى الشارع الفارغ، ثم إلى الكنيسة، ثم إلى السماء. في نهاية المطاف، على صوت عربة في أحد الشوارع المجاورة، تذكرني: «لماذا لا تقول شيئاً، يا صديقي؟ هل تشعر بالغثيان؟ لماذا لا تنهض؟ هل ينبغي أن أبحث عن سيارة أجرة؟ إن أردتَ، سأحضر لك بعض النبيذ من الحانة. على أية حال، يجب ألا تضطجع هنا في البرد. فضلاً عن ذلك، أردنا أن نصعدِ إلى التلّة».

«بالطبع»، قلتُ، ونهضتُ بمفردي، لكن بألم كبير. بدأتُ أترنّح، وكان عليّ أن أنظر بشدة في تمثال كارل الرابع للتأكد من موقعي. مع ذلك، حتى هذا لم يساعدني لو لم أتذكر بأن فتاة ذات شريط مخملي أسود حول عنقها أحبتْني، إنْ

لم يكن بشغف، فعلى الأقل بإخلاص. وأنها في الحقيقة كانت ذلك القمر الذي يسطع عليّ، أيضاً، وبعيداً عن التواضع كنت على وشك أن أضع نفسي تحت قوس جسر البرج عندما خيّل لي بأن القمر، بطبيعة الحال، أضاء على كل شيء. لذلك نشرتُ ذراعيّ بسعادة من أجل التمتع الكامل بالقمر. وعندما أقوم بحركات السباحة بذراعيّ المرهقتين كان من السهل عليّ المضيّ قدماً من دون ألم أو صعوبة. أعتقد أنني لم أجرّب ذلك من قبل أبداً! رأسي في الهواء البارد، وكانت ركبتي اليمنى هي التي تنطلق بشكل أفضل؛ لذلك طرّيتها عن طريق التربيت عليها. وتذكرتُ أنه ذات مرة لم أكن تماماً أحبّ أي قريب، ربما يكون لا يزال يمشي على مقربة مني، والشيء الوحيد الذي سرّني في كل هذه الأعمال هو أن ذاكرتي كانت جيدة بما فيه الكفاية بحيث أتذكر شيئاً كهذا. لكنني لا يمكن أن أقوم بالكثير من التفكير، ذلك لأنني لا بد لي من الذهاب إلى السباحة لمنع نفسي من الغرق في الأعماق. مع ذلك، لتجنب أن يقال لي في وقت لاحق بأن أي شخص يمكنه أن يسبح على الرصيف وأن ذلك لا يستحق الذكر، رفعتُ نفسي فوق السور الحديدي عن طريق زيادة سرعتي وسبحتُ على شكل دوائر حول تمثال كل قديس واجهته. في الساعة الخامسة ـ كنت أحمل نفسي فوق ممر عن طريق ضربات غير محسوسة ـ كان قريبي يمسك يدي. هناك وقفتُ مرة أخرى على الرصيف وشعرتُ بألم في ركبتي.

«أنا معجب دائماً»، قال قريبي، وهو يمسكني بيد واحدة ومشيراً بالأخرى إلى تمثال القديس لودميلا، «أنا معجب دائماً بيدي هذا الملاك هنا إلى اليسار. انظر فقط كم هما رقيقتان! يدا ملاك حقيقي! هل رأيتَ في وقت مضى أي شيء مثلهما؟ إنك لم ترَ، لكنني رأيتُ مثلهما، لذلك قبّلتُ اليدين هذا المساء».

لكن بالنسبة لي كان هناك الآن احتمال ثالث للهلاك. عليّ أن لا أسمح لنفسي أن أُطعَن، عليّ أن لا أهرب، يمكنني ببساطة رمي نفسي في الهواء.

أدعه يرتقي تلّته، وأنا لن أتدخل في شؤونه، ولا حتى عن طريق الهرب بعيداً سأتدخل في شؤونه.

والآن صرختُ: «هاتِ قصصك! أنا لم أعد أريد أن أسمع نتفاً! قل لي كل شيء، من البداية إلى النهاية. أنا لن أستمع إلى أقل من ذلك، أحذّرك. لكنني أتحرّق لسماع الشيء ككل». حينما تطلع في وجهي توقفتُ عن الصراخ بصوت عال جداً. «ويمكنك الاعتماد على حصافتي! قل لي كل ما يدور في ذهنك. لن تجد مستمعاً حصيفاً جداً مثلي».

وانخفضتُ نوعاً ما، على مقربة من أذنه، وقلتُ: «وأنت لست بحاجة إلى أن تكون خائفاً مني، ذلك لا لزوم له تماماً».

سمعته يضحك.

قلتُ، «نعم، نعم. أعتقد ذلك. وأنا لا أشك فيه»، وبينما أقول هذا قرصته في بطتّي ساقَيه ـ حيث كانتا مكشوفتين. لكنه لم يشعر بذلك. عندها قلت لنفسي: «لماذا تمشي مع هذا الرجل؟ إنك لا تحبه، ولا تكرهه، لأن كل الذي يهتم به هو فتاة، ومن غير المؤكّد أنها ترتدي ثوباً أبيض. لذلك فهذا الرجل غير مبال بك ـ وأكرر: غير مبال. لكنه أيضاً غير مؤذٍ، كما أثبت ذلك. إذن استمر بالمشي معه حتى أعلى التل، ذلك لأن هذا هو بالفعل طريقك، إنها ليلة جميلة، لكن دعه يقوم بالحديث ويُبهجك بعض الشيء، لأن هذه هي أفضل طريقة (قلْها بصوتٍ خافت) لحماية نفسك».

II

انحرافات أو دليل على استحالة العيش

1. جولة

والآن ـ بحركة سريعة، كما لو أنها لم تكن المرة الأولى ـ قفزتُ على أكتاف قريبي، وبغرز قبضتَي في ظهره فقد حثثته على الهرولة. لكن لأنه تقدّم إلى الأمام بتثاقل على مضض، وأحياناً كان يتوقف، ركلته في بطنه عدة مرات بحذائي، لجعله أكثر حيوية. نجح هذا ووصلنا بسرعة كافية إلى المناطق الداخلية لمشهد واسع لكنه غير مكتمل لحد الآن.

كان الطريق الذي سلكته حجرياً ويرتفع إلى حد كبير، لكن هذا فقط الذي أحببته وسمحت له أن يصبح أكثر صلابة وأكثر حدة. وحالما تعثّرَ قريبي سحبته من ياقته وفي الوقت الذي تنهّد صفعتُ رأسه. وإذ أقوم بذلك شعرتُ بمدى صحية هذه الجولة في الهواء الطلق بالنسبة لي، ومن أجل أن أجعله أكثر وحشية سمحتُ لرياح قوية أن تهبّ ضدنا في نفحات طويلة.

الآن بدأتُ بالمبالغة بحركات القفز على كتفي قريبي العريضين، وأنا أحكم الإمساك بعنقه بكلتا يدَيّ أحنيتُ رأسي إلى الوراء وأخذتُ أفكر بالغمامات العديدة والمتنوعة التي، أضعف مني، كانت تتحرك بغير ما ترتيب مع الريح. ضحكتُ وارتعدتُ بشجاعة. انتشر معطفي وأعطاني قوة. ضغطتُ على كلتا يدَيّ بقوة، وبينما أقوم بذلك صادفَ أنّ ذلك يجعل قريبي يختنق. ولم أعد إلى رشدي إلاّ حينما أصبحت السماء مخفية تدريجياً بفروع الأشجار، التي تركتُها تتعاظم على طول الطريق.

بكيتُ دونما صوت «أنا لا أعرف، أنا حقاً لا أعرف. عندما لا يأتي أحد، إذن

لا يأتي أحد. لم ألحق أيّ سوء بأي شخص، ولا أي شخص أصابني بأي سوء، لكن لا أحد سيساعدني. حزمة من النكرات. لكن الأمر ليس تماماً كهذا. إنه مجرد لا أحد يساعدني، وإلاّ فإن مجموعة من النكرات ستكون شيئاً لطيفاً، وأودّ (ما رأيك بذلك؟) الخروج في نزهة مع مجموعة من النكرات. داخل الجبال، بطبيعة الحال، في أي مكان ما غير ذلك؟ مجرد قم بإلقاء نظرة على هؤلاء النكرات وهم يدفعون بعضهم البعض، وغنيّ عن القول إن كل هذه الأذرع امتدت أو ارتبطت ببعضها الآخر، وهذه الأقدام المفصولة بخطوات صغيرة! الجميع في معاطف طويلة. نسير جنباً إلى جنب بسعادة غامرة، والريح اللطيفة تصفر من خلال الفجوات التي عملناها و[تصفر] بين أطرافنا. في الجبال تصبح رقابنا حرة. ومن عجبٍ أننا لا نغني».

ثم انهار قريبي، وعندما تفحصته اكتشفت بأنه كان مجروحاً بجروح بليغة في الركبة. وبما أنه لم يعد ذا فائدة بالنسبة لي، تركته هناك على الأحجار دونما أسف شديد وصفرتْ أسفل منه بضع عقبان التي، بطاعةٍ وبمناقير خطيرة، جثمتْ عليه من أجل حمايته.

2. مشية

بقيتُ أمشي، رابط الجأش. ولكن لأنني أمشي على قدميّ، خشيتُ من جهد تسلق الطريق الجبلي، جعلته يصبح مسطحاً بشكل تدريجي، جعلته ينحدر في وادٍ في ذلك المدى. اختفتْ الحجارة حسب إرادتي واختفتْ الرياح أيضاً.

مشيت بخطى رشيقة، ولأنني كنت في طريقي نازلاً رفعت رأسي، شددت جسدي، ومرّرتُ ذراعيّ وراء رأسي. وبسبب حبّي لغابات الصنوبر فقد ذهبت عبر غابات هذا النوع، ولهيامي بالتحديق بصمت في النجوم، ظهرت النجوم ببطء في السماء، كما هي عادتها. لم أرَ سوى عدد قليل من الغمامات

الناعمة حيث الرياح، عند هبوبها في الأعالي، جذبتها عبر الهواء، مما أثار دهشة الماشين.

في المقابل، وعلى مبعدة من طريقي، الذي ربما يفصله عني نهر أيضاً، جعلتُ أصعد جبلاً عالياً جداً كانت هضبته، الضاجّة بالأدغال، تناطح السماء. كنت أرى بوضوح التفرعات القليلة للأغصان الشاهقة وحركاتها. هذا المشهد، رغم كونه عادياً ربما، جعلني سعيداً جداً لدرجة أنني، كطائر صغير على غصين من تلك الشجيرات الصغيرة البعيدة، نسيتُ أن أدعَ القمرَ يظهر. كان يقبع وراء الجبل، غاضباً بلا شك بسبب هذا التأخير.

لكن الآن انتشر الضوء البارد الذي يسبق طلوع القمر فوق الجبل وفجأة ظهر القمر نفسه من وراء إحدى الشجيرات القلقة. ومن ناحية أخرى كنت في غضون ذلك أحدّق في اتجاه آخر، وعندما نظرتُ الآن أمامي وفجأة رأيته متوهجاً بكامل دورته، وقفتُ واجماً بعينين مضطربتين، لأن طريقي الحاد بدا يؤدي مباشرة إلى هذا القمر المرعب.

بعد فترة، مع ذلك، اعتدت عليه وراقبتُ برباطة جأش الصعوبةَ التي اكتنفته في الظهور، حتى النهاية، بعدما اقتربنا من بعضنا البعض في جانب كبير من الطريق، شعرتُ بأنه غلبني نعاس شديد بسبب، حسب اعتقادي، التعب من المشي، الذي لم أعتد عليه. تجولتُ لفترة بعينين مغمضتين، أستيقظُ فقط على التصفيق العالي والمنتظم ليديّ.

لكن بعد ذلك، بينما أنذرَ الطريق بالضياع من تحت قدمي، وكل شيء، كان ضجراً كنفسي، بدأ يتلاشى، استجمعتُ قوتي المتبقية وسارعت لتوسيع نطاق المنحدر إلى يمين الطريق من أجل الوصول في الوقت المناسب إلى غابة الصنوبر العالية المتشابكة حيث خططت لقضاء الليلة التي ربما تنتظرنا.

وكان الاستعجال ضرورياً. أخذتْ النجوم بالتضاؤل، ولاحظتُ القمر يغرق

بوهن في السماء كما لو كان [يغرق] في المياه العكرة. كان الجبل ينتمي إلى الظلام، والطريق انهارَ عند النقطة التي كنت فيها قد تحولتُ نحو المنحدر، ومن داخل الغابة سمعتُ تحطّم الأشجار المتداعية. الآن أصبح بإمكاني إلقاء نفسي على الطحلب حتى أنام، ولكن لأنني خشيت النوم على الأرض فقد تسللتُ ـ بينما الجذع ينزلق بسرعة أسفل الحلقات التي شكّلها ذراعاي وساقاي ـ إلى أعلى الشجرة التي كانت تترنح بالفعل دون رياح. اضطجعتُ على غصن وبينما أسند رأسي على الجذع، مضيتُ على عجل إلى النوم بينما سنجاب رغبتي جلس متصلّب الذيل عند النهاية المرتجفة من الغصن، وهزّ نفسه.

كان نومي عميقاً وبلا أحلام. فلم يوقظني لا القمر الآفل ولا الشمس المشرقة. وحتى عندما كنت على وشك أن أستيقظ، هدّأتُ نفسي بالقول: «لقد بذلتَ جهداً جهيداً أمس، لذا حافظ على نومك»، ومضيتُ إلى النوم مرة أخرى.

على الرغم من أنني لم أحلم، لم يكُ نومي خالياً من شيء من الاضطراب الممض. فطوال الليل سمعتُ أحدهم يتحدث بجانبي. لم أكد أسمع الكلمات نفسها ـ باستثناء كلمات منفصلة مثل «مقعد... بجانب النهر»، «جبال كالغمام»، «قطارات... وسط دخان يتصاعد»؛ إذ إن ما استطعت سماعه كان نوعاً خاصاً من التركيز على تلكم الكلمات؛ وأتذكر أنه حتى في نومي فركتُ يديَّ بسعادة في أنني لستُ مضطراً لتمييز كلمات مفردة، ذلك لأنني كنت غارقاً في النوم.

«كانت حياتك رتيبة»، قلتُ بصوتٍ عالٍ من أجل إقناع نفسي، «بالفعل كان من الضروري بالنسبة لك أن تؤخَذ إلى مكان ما آخر. عليك أن تكون قانعاً، الجو رائع هنا. الشمس ساطعة».

عندها أشرقت الشمس وأصبحت الغيوم الممطرة بيضاء وخفيفة وصغيرة في السماء الزرقاء. كانت تلتمع وتتصاعد. رأيت نهراً في الوادي.

«نعم، كانت حياتك رتيبة، أنت تستحق هذا الانحراف»، واصلت كلامي كما لو

أنني مرغم، «ولكن ألم تكن أيضاً محفوفة بالمخاطر؟» في تلك اللحظة سمعت أحدهم يتنهد بشدّة بالقرب مني.

حاولت النزول بسرعة، ولكن لأن الغصن ارتجف بالقرب من يدي وقعتُ متصلّباً من الأعلى. لم أسقط بشدة، ولم أشعر بأي ألم، لكنني شعرت بضعف وتعاسة لدرجة أنني دفنت وجهي في الأرض: لا يمكنني أن أتحمل وطأة رؤية ما حولي من أشياء هذه الأرض. شعرت بالقناعة من أن كل حركة وكل فكرة كانت مفروضة، وعلى المرء أن يكون على أهبة الاستعداد ضدها. مع ذلك لا شيء يبدو أكثر طبيعية من الاضطجاع هنا على العشب، وذراعاي بجانب جسدي، ووجهي مخفيّ. حاولت إقناع نفسي بأنني يجب أن أكون راضياً بأن أكون بالفعل في هذا الموقف الطبيعي، لأنه خلاف ذلك فإن العديد من التشويهات المؤلمة، كالخطوات أو الكلمات، ستكون لا بد منها من أجل بلوغ ذلك.

كان النهر واسعاً وموجاته الصاخبة القليلة عكست الضوء. وعلى الشاطئ الآخر امتدتْ المروج التي اندمجت بعيداً في الشجيرات التي وراءها، في المدى البعيد، كان يمكن للمرء أن يرى آفاقاً مشرقة من أشجار الفاكهة الممتدة إلى التلال الخضراء.

ولبهجتي بهذا المنظر، اضطجعتُ، وسددتُّ أذنيّ حتى لا أسمع صوت التنهدات المفزع، وقلت في نفسي: أنا هنا يمكن أن أكون قانعاً. لأن هذا المكان منعزل وجميل. ولا يتطلّب الكثير من الشجاعة للعيش فيه. لا بد أن المرء سيعاني هنا كما في أي مكان آخر، لكن على الأقل ليس من الضروري للمرء أن يقوم بذلك بحركات رشيقة. لن يكون هذا ضرورياً. لأنه لا يوجد سوى جبال ونهر واسع ولدي الشعور الكافي للنظر إليها بوصفها جمادات. نعم، عندما أترنح وحيداً حتى المسار الحاد خلال المروج في المساء فإنني لن أكون مهجوراً أكثر من هذه الجبال، وما عدا ذلك فإنني سوف أشعر بذلك. لكنني أعتقد بأن هذا، أيضا، سيمرّ.

وبالتالي غازلتُ حياتي المستقبلية وحاولتُ بعناد أن أنسى. وطوال الوقت كنت أرمق تلك السماء التي كانت ذات لونٍ واعدٍ على نحو غير عادي. لقد مرّ وقت طويل مذ رأيتها على هذه الحال؛ لقد تأثرتُ وتذكرتُ بعض الأيام عندما ظننتُ أنني رأيتها بالطريقة نفسها. أزحتُ يدي من أذني، ونشرتُ ذراعيّ، وجعلتهما يسقطان على العشب.

سمعت أحدهم يتنهّد بهدوء من بعيد. اشتدت الرياح فارتفعت كتلة كبيرة من الأوراق، التي لم أكن قد رأيتها من قبل، في الهواء. وسقطتْ بلا إحساس الفواكه غير الناضجة من الأشجار على الأرض. تصاعدت سحب مقيتة من وراء الجبل. بينما هدرت الأمواج على النهر وتراجعت بفعل الرياح.

نهضت بسرعة. كان قلبي يؤلمني، لأنه بدا الآن من المستحيل الهرب من معاناتي. كنت على وشك أن أستدير وأغادر هذه المنطقة وأعود إلى طريقتي السابقة في الحياة عندما خطرت لي الفكرة التالية: «كم يكون غريباً أنه حتى في عصرنا يتنقل الناس عبر النهر بهذه الطريقة المعقدة. ليس ثمة تفسير آخر أكثر من أنّ هذا هو العرف القديم». هززتُ رأسي، لأنني كنت متفاجئاً.

3. الرجل البدين

أ. خطاب إلى المنظر الطبيعي

من الأجمة على الضفة المقابلة كان أربعة رجال عراة يسيرون بعنف إلى الأمام، وهم يحملون على أكتافهم قمامة خشب. وعلى هذه القمامة جلس، بزيّ شرقي، رجل بدين بشكل مخيف. وبرغم أنه نفذ من خلال الأجمة على مسار غير مطروق، فهو لم يدفع الأغصان الشائكة جانباً بل ببساطة سمح لجسده الساكن أن يمرق من خلالها. كانت طيات الدهون منتشرة بعناية فائقة لدرجة أنه برغم تغطيتها القمامة كلها وحتى تعلقت أسفل جانبها مثل هدب سجادة صفراء، فإنها

لم تعرقله. كانت جمجمته الصلعاء صغيرة وتلتمع صفراء. وحمل وجهه تعبيراً ساذجاً لرجل يتأمل ولا يقوم بأي جهد لإخفائه. من وقت لآخر كان يغلق عينيه: وعند فتحهما مرة أخرى أصبح ذقنه مشوهاً.

قال بصوت خفيض «إن المنظر يشوّش فكرتي. ويجعل تأملاتي تترنّح مثل جسور معلقة في تيار غاضب. المشهد جميل، ولهذا السبب يحتاج أن ننعم النظر فيه».

أغمضُ عينيَّ وأقول: ألا أيها الجبل الأخضر بجانب النهر، بصخورك المتدحرجة صوب الماء، أنت جميل.

لكنه غير راضٍ. إنه يريد مني أن أفتح عينيَّ له.

إذن ربما أقول له بعينين مغلقتين: «أيها الجبل، أنا لا أحبك، لأنك تذكّرني بالغيوم، بالغروب، بالسماء المرتفعة، وهذه أشياء تجعلني تقريباً أبكي؛ ذلك لأن المرء لا يمكنه أبداً الوصول إليها في حين يُحمل على قمامة صغيرة. ولكن عندما تُظهر لي هذا، أيها الجبل الخبيث، فإنك تمنع المشهد البعيد الذي ينشرح له صدري، لأنه يكشف ما يمكن بلوغه في لمحة. هذا هو السبب في أنني لا أحبك، أيها الجبل بجانب الماء ـ لا، أنا لا أحبك».

لكن الجبل غير مبالٍ بهذا الخطاب كعدم مبالاته بخطابي السابق طالما أنني لم أتحدث معه بعينين مفتوحتين. وهذا هو السبيل الوحيد لإرضائه.

هل يجب علينا أن لا نبقيه متعاطفاً معنا لكي يبقى منتصباً على الدوام ـ هذا الجبل الذي لديه مثل هذا الولع المتقلب بالنسبة للبّ عقولنا؟ ربما يُلقي عليَّ ظله المسنّن، ربما يدفع بصمتٍ جدراناً جرداء مخيفة أمامي وسيتعثر الحمّالون على الحصى الصغيرة على الطريق.

ولكنه ليس فقط الجبل الذي هو دون جدوى، وفظ وحاقد ـ بل إن كل شيء

غيره هو كذلك أيضاً. لذلك يجب أن أستمر على التكرار بعينين مفتوحتين على وسعهما ـ أواه، كم تؤلم تلكم الأشياء!

«نعم، أيها الجبل، أنت جميل والغابات على منحدرك الغربي تُبهجني. معك، أيتها الزهرة، أبتهج ايضاً، فلونك الوردي يشرح نفسي. أنتنّ، يا عشبات المروج، عاليات وقويات ومنعشات. وأنتنّ، أيتها الشجيرات المثيرات، تخزن بشكل غير متوقع جداً لدرجة أن أفكارنا تبدأ بالتقافز. لكن معك، أيها النهر، أنا مسرور جداً لدرجة أنني سوف أسمح لنفسي أن يحملها ماؤك الرشيق».

بعد أن صاح بأنشودة الثناء هذه عشر مرات، مصحوبة ببعض التحول المتواضع في جسده، جعل رأسه يتدلى وقال بعينين مغمضتين:

«لكن الآن ـ أتوسّل إليكم ـ أيها الجبل، والزهور، والأعشاب، والشجيرات، والنهر، أعطينني فسحة ما حتى أستطيع أن أتنفس».

في تلك اللحظة بدأت الجبال المحيطة بالتحول بطاعة متسرعة، ثم انسحبت وراء ستارة من الضباب. برغم أن الطرق وقفت ثابتة لفترة من الوقت وحرست عرض الطريق، فإنها سرعان ما اندمجت ببعضها البعض. في السماء أمام الشمس امتدّت سحابة رطبة بحافة شفافة جداً غاصت البلاد في ظلها أعمق فأعمق في حين فقد كل شيء شكله الجميل.

وصل صوت خطوات الحمالين إلى جانب النهر ومع ذلك لم أستطع تمييز أي تفاصيل في المربع المظلم لوجوههم. رأيتهم فقط يحنون رؤوسهم إلى الجانب ويقوسون ظهورهم، لأن أعباءهم كانت مفرطة. كنت قلقاً عليهم، لأنني أيقنتُ بأنهم متعبون. لذلك كان من دواعي تشوقي أنني شاهدتهم يخطون في نباتات الأسل، ثم يمشون في الرمل الرطب، وخطواتهم ما زالت منتظمة، حتى في نهاية المطاف غرقوا في المستنقع الموحل حيث انحنى الحمّالان الخلفيان أكثر وذلك

من أجل إبقاء القمامة في موقعها الأفقي. ضغطتُ على يديَّ كلتيهما. الآن كان عليهم رفع أقدامهم عالياً في كل خطوة حتى التمعت أجسادهم بالعرق في الهواء البارد من هذا المساء غير المستقر.

جلس الرجل البدين هادئاً ويداه على فخذيه؛ إذ إن النهايات المدببة الطويلة من القصب جرحته لأنها انقلبت خلف الحمّالين أمامه.

أصبحت حركات الحمالين أقل انتظاماً كلما اقتربوا أكثر من الماء. في بعض الأحيان كانت القمامة تتمايل كما لو أنها كانت على الأمواج. ثمة برك صغيرة في الأسل لا بد من قفزها أو المشى حولها، لأنها ربما تكون عميقة.

في لحظة واحدة نهض البط البري صائحاً، وارتفع بشكل حاد في الغيم الماطر. في ذلك الوقت بالذات لمحت وجه الرجل البدين؛ بدا قلقاً. نهضتُ في قفزات محمومة حيث تعرجتُ فوق المنحدر الحجري الذي يفصلني عن الماء. لم أكترث للخطر، كنت مهتماً فقط بمساعدة الرجل البدين الذي لم يعد عبيده قادرين على حمله. ركضت بتهور كبير لدرجة أنني لا يمكنني التوقف، وكنت مجبراً على الاندفاع في الماء المطرطِش، ولم أتوقف إلاّ عندما وصل الماء ركبتيّ.

بينما كان العبيد، مع ما تحمله أجسادهم من تشوهات، قد حملوا القمامة في النهر، وهم يرفعون أنفسهم فوق الماء الجامح بيد واحدة، فقد دعموا القمامة بأربعة أذرع مشعرة، فيما نتأت عضلاتهم إلى الخارج بارتياح.

التفّ الماء حول ذقونهم، ثم ارتفع إلى أفواههم؛ أحنى الحمّالون رؤوسهم إلى الخلف وسقطت مقابض القمامة على أكتافهم. كانت المياه تدور حول جسور أنوفهم، ومع ذلك لم يستسلموا، على الرغم من أنهم بالكاد وصلوا إلى منتصف النهر. ثم اجتاحت موجة منخفضة رؤوس اللذين كانا في المقدمة وغرق

الرجال الأربعة بصمت، فيما كانت أيديهم اليائسة تسحب القمامة إلى الأسفل معهم. تدفقت المياه ورائهم.

والآن انبلجت الأشعة المائلة لشمس المساء من وراء حواف السحابة العظيمة وأضاءت التلال والجبال بقدر ما تتمكن العين أن ترى، في حين امتد النهر والمنطقة تحت السحابة في ضياء غير مؤكد.

استدار الرجل البدين ببطء باتجاه المياه المتدفقة وحُمِل نحو النهر مثل دمية خشبية صفراء قد أصبحت عديمة الفائدة ولهذا ألقيت في النهر. أبحر إلى الأمام على انعكاس سحابة المطر. انسحبتْ الغمامات الطويلة فيما دفعتْه الغيوم المنحنية الصغيرة، مما خلق ضجة كبيرة، يمكن ملاحظة أثرها عن طريق التفاف المياه نحو ركبتيَّ والأحجار على الشاطئ.

تسللتُ بسرعة إلى أعلى المنحدر لكي أتمكن من مرافقة الرجل البدين في طريقه، لأنني أحبه حقاً. وربما بوسعي أن أتعلم شيئاً عن مخاطر هذا البلد الآمن على ما يبدو. وهكذا مشيتُ على طول شريط من الرمال على المرء أن يعتاد على ضيقه، ويديّ في جيوبي وحوّلتُ وجهي بزوايا مستقيمة إلى النهر حتى استقرَّ ذقني تقريباً على كتفي.

جلستْ السنونوات على الأحجار بجانب الشاطئ.

قال الرجل البدين: «سيدي العزيز على الشاطئ، لا تحاول إنقاذي. هذا هو انتقام الماء وانتقام الرياح؛ الآن أنا ضائع. نعم، إنه الانتقام، إذ غالباً ما هاجمناهم، أنا وصديقي المتوسل، وسط صليل سيوفنا، ووميض الصنج النحاسي، والروعة الكبيرة للأبواق، والوهج المتقافز للطبول!»

ثمة بعوضة صغيرة ذات أجنحة ممتدة حلّقت مباشرة عبر بطنه دون أن تفقد سرعتها. استمر الرجل البدين.

ب. بداية حوار مع المتوسل

ثمة وقت عندما كنت أذهب إلى الكنيسة يوماً بعد يوم، لأن الفتاة التي كنت أحبها اعتادت على السجود هناك في الصلاة لمدة نصف ساعة كل مساء، مما مكّنني من مشاهدتها في أوقات فراغي.

ذات مرة عندما لم تظهر الفتاة وفي غمرة فزعي كنت أرقب الناس الآخرين وهم يصلّون، لفتَ انتباهي شاب كان قد رمى بجسمه النحيل الطويل على الأرض. من وقت لآخر، كان يمسك جمجمته بكل ما أوتي من قوة وبينما يئن بصوت عالٍ، يضربها براحتي يديه على الأرض الحجرية.

في الكنيسة لم يكن هناك سوى عدد قليل من النساء المسنّات اللواتي بقين يحوّلن رؤوسهن المغطاة بشال لإلقاء نظرة على الرجل المصلي. ويبدو أن هذا الاهتمام يروق له، لأنه قبل كل انفعال من انفعالاته الورعة كان يسمح لعينيه أن تحوم هنا وهناك لرؤية عدد الناس الذين كانوا يراقبونه. وكونه وجد ذلك غير لائق، قررتُ أن أبادره في طريقه خارج الكنيسة وأسأله صراحة لماذا كان يصلي بهذه الطريقة. لأنه منذ وصولي إلى هذه البلدة أصبح الوضوح أكثر أهمية بالنسبة لي من أي شيء آخر، حتى إنني في هذه اللحظة شعرتُ بالانزعاج لعدم تمكّن الفتاة من الظهور.

لحد الآن مرّت ساعة قبل أن يقف، وينظّف بنطلونه لفترة طويلة من الوقت بحيث شعرت وكأنني أصيح: «كفى، كفى! يمكننا جميعاً أن نرى بأنك ترتدي بنطلوناً»، ويرسم علامة الصليب بعناية، وبمشية بحّار متثاقلة سارَ إلى إناء الماء المقدس.

وضعتُ نفسي بين إناء التعميد والباب، وعقدتُ العزم على عدم السماح له بالمرور من دون تفسير. شددتُ فمي، وهذا هو أفضل استعداد لخطاب حازم،

وأسندتُ نفسي بالوقوف على ساقي اليمنى بينما أسندتُ الساق اليسرى على أصابعها، لأن هذا الوضع الذي كثيراً ما جرّبته يعطينيَ إحساساً بالاستقرار.

من الممكن الآن أن هذا الشاب قد لمحني وهو يرش وجهه بالماء المقدس؛ ربما تحديقي قد أفزعه حتى في وقت سابق، لأنه الآن هرع بشكل غير متوقع تماماً إلى الباب وخرج. قفزت بشكل لا إرادي لإيقافه. اصطفق الباب الزجاجي. وعندما مررت من خلاله في وقت لاحق لم أستطع أن أجده، لأن الشوارع الضيقة كانت عديدة وحركة المرور كبيرة.

أثناء الأيام التالية لم يظهر، ولكن الفتاة جاءت ومرة أخرى أخذت تصلي في زاوية من مصلى جانبي. كانت ترتدي ثوباً أسود ذا دانتيل شفاف ـ يمكن من خلاله رؤية هلال قميصها ـ من حافته السفلى كان الحرير يتدلّى في هدب دقيق جداً. والآن بعد أن عادت الفتاة سررتُ بأن أنسى الشاب، متجاهلاً إياه حتى عندما واصل الظهور بانتظام والصلاة بطريقته المعتادة.

لكنه كان دائماً يمرّ بي على عجل بسرعة مفاجئة، مشيحاً بوجهه. أثناء الصلاة، من ناحية أخرى، ما انفكّ ينظر إليّ. حتى أن الأمر بدا كما لو أنه كان غاضباً مني لعدم الاقتراب منه في وقت سابق وكان يعتقد بأنه بالنسبة لمحاولتي الأولىٰ للتحدث معه إنما جرت لأنه تحتّم عليّ القيام بذلك. ذات يوم بينما كنت أتبع الفتاة وهي تخرج كالمعتاد بعد الصلاة، ركضتُ إليه في شبه الظلمة وأعتقد أنني رأيته يبتسم.

ولا حاجة إلى القول بأن واجب التحدث معه لم يكُ موجوداً، ولا كانت لي الرغبة الكبيرة في القيام بذلك بالمرة. وحتى عندما أسرعتُ إلى الكنيسة ذات مساء بينما كانت الساعة تدق السابعة وجدتُ، بدلاً من الفتاة التي بالطبع قد غادرت منذ زمن بعيد، الشاب فقط يجهد نفسه أمام أسوار المذبح، فإنني ترددتُ.

أخيراً سرتُ إلى الباب على أطراف أصابعي، وأعطيتُ قطعة معدنية للشحاذ الأعمى الجالس هناك، وحشرتُ نفسي بجانبه وراء الجناح المفتوح. وهناك لمدة نصف ساعة تقريباً كنت أتطلع إلى المفاجأة التي كنت أخطط فيها لمباغتة المتوسل. لكن هذا الشعور لم يدم. قبل فترة طويلة كنت أشاهد بكآبة العناكب تزحف على ملابسي ووجدت من الصعب اضطراري إلى الانحناء في كل مرة كان يجيء فيها أحدهم يتنفس بصوت عالٍ وهو خارج ظلمة الكنيسة.

لكنه في النهاية أتى. وأدركتُ بأن رنين الأجراس الكبيرة التي كانت قد بدأت قبل فترة لم تتوافق معه. في كل مرة قبل اتخاذ أية خطوة اضطرَّ لتلمس الأرض بخفةٍ بقدمه.

استقمتُ، واتخذتُ خطوة طويلة إلى الأمام، وأمسكت به. «طاب مساؤك»، قلت له، ويدي على ياقة معطفه دفعته إلى أسفل الدرجات على الساحة المضاءة.

عندما وصلنا الطابق الأرضي التفتَ نحوي بينما كنت ما أزال ممسكاً به من الخلف، بحيث وقفنا جنباً إلى جنب.

قال، «ليتك تتركني!». «لا أعرف بماذا كنت تشك بي، لكنني بريء». ثم كرّرَ مرة أخرى: «بالطبع أنا لا أعرف بماذا كنتَ تشك بي».

«ليس ثمة شك هنا أو براءة. أطلب منك أن لا تذكر ذلك مرة أخرى. نحن غريبان؛ ومعرفتنا ليست أقدم من مدرجات الكنيسة المرتفعة. ماذا سيحدث لو بدأنا على الفور بمناقشة براءتنا؟»

قلت، «بالضبط كما أعتقد». في الحقيقة، قلتَ «براءتنا». هل تعني بأنني لو أثبتُّ براءتي فإن عليك أن تثبت براءتك أنت أيضاً؟ هل هذا ما تعنيه؟»

قلتُ، «تلك مسألة أو شيء ما آخر. أنا لا أفاتحك إلاّ لأنني أريد أن أطلب شيئاً ما منك، أتتذكر ذلك!»

«أود العودة إلى البيت»، قال، وهمَّ ليستدير.

«أصدّق ذلك تماماً. هل كنتُ لأفاتحك خلاف ذلك؟ لا تفهم الفكرة بأنني أفاتحك على أساس عينيك الجميلتين».

«ألستَ صادقاً جداً إلى حدّ ما؟»

«هل يجب أن أكرر بأنه ليس هناك مثل هذه الأشياء؟ ما علاقة هذا بالصدق أو عدم الصدق؟ أنا أسأل، وأنت تجيب، ومن ثم وداعاً. بقدر تعلق الأمر بي يمكنك حتى العودة إلى البيت، وبأسرع ما تشاء».

«أليس من الأفضل أن نلتقي في وقت آخر؟ وفي ساعة أكثر ملاءمة؟ في مقهى مثلاً؟ إلى جانب ذلك، أن خطيبتك غادرت قبل بضع دقائق ليس إلاّ، ويمكنك اللحاق بها بسهولة، لقد انتظَرَتْك وقتاً طويلاً».

«لا!» صرختُ وسط ضجيج مرور الترام. «لن تهرب مني، فأنا أحبك أكثر فأكثر. كنتَ صيداً محظوظاً. أهنئ نفسي».

ورداً على كلامي قال: «أوه يا إلهي، أنت تمتلك قلباً سليماً، كما يقولون، ولكنك [تمتلك] رأساً من خشب. تدعونني صيداً محظوظاً، إلى أي مدىً يجب أن تكون محظوظاً! إذ إن سوء حظي متوازن توازناً قلقاً وعندما تلمسه يقع على رأس المستجوِب. وعليه: طابت ليلتك».

«حسناً»، قلت، وأنا أفاجئه وأمسك بيده. «إذا كنت لا تريد أن تجيب من تلقاء نفسك، فإنني سوف أجبرك. سوف أتبعك أينما تذهب، يميناً أو شمالاً، حتى وأنت صاعد في السلّم إلى غرفتك، وفي غرفتك سوف أجلس، حيثما كان هناك

مجال. امضِ على رسلك إذن، وابقَ محدّقاً فيَّ، وأنا يمكنني أن أتحمّل ذلك. ولكن كيف»ـ خطوتُ بالقرب منه ولأنه كان أطول فقد تحدثتُ عند رقبته ـ «كيف تستجمع الشجاعة لإيقافي؟»

عندها، تراجعتُ إلى الخلف، وقام بتقبيل يديّ بالتعاقب، وسقاهما بدموعه. «لا أحد يستطيع أن يُنكر عليك أي شيء. وكما عرفتَ فإنني أريد العودة إلى البيت، وكنت أعرف حتى في وقت سابق بأنني لا أستطيع أن أنكر عليك أي شيء. كل ما أطلبه هو أن نذهب إلى هناك في الشارع الجانبي». أومأتُ برأسي موافقاً وذهبنا. حينما فصلتنا عربةٌ وبقيتُ في الخلف، أشار إليَّ بكلتا يديه، ليحثّني على الإسراع.

لكن عندما كنت هناك، غير راضٍ بظلام الشارع حيث كانت المصابيح بعيدة جداً عن بعضها البعض، وتقريباً مرتفعة كارتفاع الطابق الأول، فقد قادني إلى مدخل منخفض لمنزل قديم وتحت مصباح صغير معلق متدلٍ أمام السلّم الخشبي.

وإذ ينشر منديله على التجويف في درجة سلّم بالية، دعاني إلى الجلوس: «من السهل بالنسبة لك أن تطرح الأسئلة جالساً. وأنا سأظل واقفاً، فإنه من السهل بالنسبة لي أن أجيب. ولكن لا تعذبني!»

جلست لأنه أخذ كل شيء على محمل الجد، ولكن مع ذلك شعرتُ بأنه لا بد لي أن أقول: «لقد دفعتني إلى هذا الموقف كما لو أننا متآمران، بينما أنا متمسّك بك ببساطة بسبب الفضول، وأنت متمسّك بي بسبب الخوف. في الواقع، كل ما أريد أن أسأله هو لماذا تصلي بهذا الشكل في الكنيسة. والطريقة التي تستمر بها! كمعتوه مطلق! كم سخيف كل هذا، كم يكون مقبضاً للناظرين، كم هو لا يطاق بالنسبة للورعين»

وكان قد ضغط جسده على الجدار، ولم يتحرّك سوى رأسه ببطء في الفضاء. «أنت على خطأ! الورعون يرون سلوكي طبيعياً، والآخرون يرونه ورعاً».

«انزعاجي يثبت بأنك مخطئ».

«انزعاجك ـ على افتراض أنه حقيقي ـ يثبت فقط بأنك لا تنتمي إلى الورعين ولا إلى الآخرين».

«أنت على حق. كنت أبالغ عندما قلتُ بأن سلوكك أزعجني؛ لا، أثار فضولي كما ذكرتُ ذلك بشكل صحيح في البداية. لكنك، إلى أي جماعة تنتمي؟»

«أوه، الأمر ليس أكثر من أني أحصل على المتعة من مراقبة الناس لي، وأنا من حين إلى آخر ألقي ظلاً على المذبح، إذا جاز التعبير».

«متعة؟» سألتُ، متجهماً.

«لا، إذا كنت تريد أن تعرف. لا تغضب عليّ بسبب التعبير عن ذلك بطريقة خاطئة. إنها ليست متعة بالنسبة لي، إنها حاجة. حاجة تتيح لنفسي أن تتسمّر لمدة ساعة وجيزة بواسطة تلك العيون، في حين أن البلدة كلها حولي»

«ما هذه الأشياء التي تقولها!» صرختُ بصوت عال جداً بسبب الملاحظة التافهة والمدخل المنخفض، لكنني خشيتُ من الركون إلى الصمت أو إخفاض صوتي. «حقاً، ما هذه الأشياء التي تقولها! الآن أنا أدرك، والله، بأنني خمّنتُ منذ البداية الحالة التي أنت فيها. أليس هذا ما يشبه الحمى، دوار البحر على اليابسة، وهو نوع من الجذام؟ ألا تشعر بأن هذه الحمى هي التي تمنعك من أن تكون بشكل صحيح راضياً عن الأسماء الحقيقية للأشياء، وأنك الآن، في عجلتك المحمومة، فقط ترشقها بأية أسماء قديمة؟ لا يمكنك أن تفعل ذلك بسرعة كافية. ولكن بالكاد تهرب بعيداً عنها عندما نسيتَ الأسماء التي قدمتَها

لها. شجرة الحور في الحقول، التي تسميها «برج بابل» لأنك لم ترد أن تعرف بأنها شجر حور، تترنح مرة أخرى دون اسم، لذلك عليك أن تسميها «نوح في فناجينه»».

قاطعني: «أنا سعيد أنني لم أفهم كلمة من تلك التي قلتها».

وأنا مستشيط غضباً، قلتُ بسرعة: «سعادتك بذلك تثبت بأنك فهمته».

«ألم أقل ذلك من قبل؟ لا يستطيع أحد أن ينكر عليك أي شيء».

وضعتُ يديَّ على درجة فوقي، انحنيتُ إلى الخلف، وفي هذا الموقف الحصين، الملاذ الأخير للمصارع، سألتُ: «عفواً، ولكن أن ترمي عليّ التفسير الذي أعطيتك إياه فهذا ينمّ عن النفاق».

في هذا الموقف أصبح جريئاً. من أجل إعطاء جسمه ترابطاً فقد شبكَ يديه معاً وقال بشيء من التردد: «أنت استبعدتَ الخلافات حول عدم الصدق منذ البداية. حقاً، إنني لم أعد مهتماً بأي شيء سوى إعطائك التفسير السليم لطريقتي في الصلاة. هل تعرف لماذا أصلي بهذا الشكل؟»

كان يضعني على المحك. لا، لم أكن أعرف، ولا أريد أن أعرف. كما أنني لم أرِدْ أن آتي إلى هنا، قلت لنفسي، إلاّ أن هذا المخلوق قد أجبرني عملياً على الاستماع إليه. لذلك كل ما كان عليّ القيام به هو أن أهز رأسي وسيكون كل شيء على ما يرام، لكن في هذه اللحظة كان هذا ما لا يمكنني القيام به. ابتسمَ المخلوق قبالتي. ثم جثمَ على ركبتيه وقال بعبارة ناعسة: «الآن أستطيع أن أقول لك أخيراً لماذا سمحتُ لك أن تبادرني. بدافع الفضول، بدافع الأمل. كان تحديقك يواسيني لفترة طويلة. كما آمل أن أتعلم منك كيف تسير الأمور حقاً، لماذا تغرق الأشياء من حولي بعيداً مثل ثلج متساقط، في حين بالنسبة لأشخاص آخرين حتى كوب صغير من المسكرات يقف على الطاولة ثابتاً كالتمثال».

وبينما بقيتُ صامتاً حيث عبرتْ وجهي ارتعاشة لا إرادية، سألَ: «إذن أنت لا تعتقد بأن هذا يحدث للناس الآخرين؟ هل أنت حقاً لا تعتقد بذلك؟ أصغِ، إذن. عندما كنت طفلاً فتحتُ عينيَّ بعد قيلولة وجيزة بعد الظهر، ولمّا أزل غير متأكد تماماً بأنني على قيد الحياة، سمعتُ والدتي من على الشرفة تسأل بنبرة صوت طبيعية: «لماذا يا عزيزي؟ يا سبحان الله، أليس الجو حاراً؟ ومن الحديقة أجابت امرأة: «بالنسبة لي، أنا أتناول الشاي على العشب». تحدثتا عَرضاً وليس بشكل واضح، كما لو أن هذه المرأة كانت تتوقع السؤال، ووالدتي [تتوقع] الإجابة».

ولشعوري بأن هذا يتطلب جواباً، وضعتُ يدي في جيب الورك لسروالي كما لو أنني كنتُ أبحث عن شيء ما. في الواقع، لم أكن أبحث عن أي شيء، فقط تمنيتُ أن أغيّر مظهري من أجل إظهار الاهتمام بالمحادثة. أخيراً قلتُ بأنني ظننتُ أن هذا هو أبرز حادث وأنني لا يمكن أن أفهم منه شيئاً. كذلك أضفتُ بأنني لم أعتقد بأن هذا صحيح، وأنه يجب أن يكون قد اخترع لسبب خاص لم يكن هدفه واضحاً بالنسبة لي الآن. ثم أغمضتُ عينيَّ من أجل أن أحجب الضوء المزعج.

«حسناً، أليس ذلك مشجعاً! وإذ تتفق معي، وتفاتحني لتقول لي بأن ذلك نابع من الكرم المطلق، فإنني أخسر أملاً واحداً وأكسب آخر».

«لماذا، بعد كل هذا، عليّ أن أشعر بالخجل من عدم السير منتصباً وأخطو خطوات طبيعية، ومن عدم ضرب الرصيف بعصاي، وعدم مس ملابس الناس الذين يمرّون بشكل صاخب؟ ألا يحق لي أن اشتكي بمرارة من الحاجة إلى أن أتخطّى المنازل كظلّ بلا معالم واضحة، متخفياً أحياناً في أضلاف نوافد الدكان؟

«أوه، يا لها من أيام مروعة تلك التي لا بد لي أن أعيشها! لماذا كل شيء مبنيّ

بشكل سيئ للغاية لدرجة أن المنازل العالية تنهار بين الحين والآخر دونما سبب واضح؟ في هذه المناسبات أتسلق فوق الأنقاض، سائلاً كل شخص التقيه: «كيف حصل ذلك؟ في بلدتنا ـ منزل جديد ـ كم هو عددها اليوم؟ ـ فقط فكرْ بالأمر! ولا أحد يمكنه أن يعطيني جواباً.

«كثيراً ما يقع الناس في الشارع ويرتمون هناك موتى. في كل متجر يفتح الناس أبوابه المحمّلة بالسلع، يهمّون بالخروج على عجل، ينقلون الموتى إلى المنزل، ويخرجون مرة أخرى تعلوهم الابتسامات، ثم تبدأ الثرثرة: «صباح الخير ـ إنه يوم ممل ـ إنني أبيع أية كمية من المناديل ـ آه نعم، إنها الحرب». أندفع إلى داخل المنزل، وبعد أن أرفع يدي عدة مرات على استحياء بإصبعي الملتوي، أضرب أخيراً على نافذة البوّاب الصغيرة، أقول: «صباح الخير أعرف أن رجلاً ميتاً حُمِل إلى هنا للتو. هل ستتكرّم وتسمح لي أن أراه؟» وعندما يهزّ رأسه كما لو أنه غير قادر على اتخاذ قراره، أضيف: «حذارِ، فأنا عضو في الشرطة السرية وأصرّ على رؤية الرجل الميت في الحال! الآن لم يعد متردداً. «اخرجْ!»، يصرخ في وجهي. «من عادة هؤلاء الرعاع التلصّص هنا كل يوم. ليس ثمة رجل ميت هنا. ربما في الغرفة المجاورة». أرفعُ قبعتي وأذهب.

«لكن بعد ذلك، عند اضطراري إلى عبور ساحة واسعة، أنسى كل شيء. عندما يتحتّم على الناس بناء مثل هذه الساحات الضخمة انطلاقاً من طيش محض، إذن لماذا لا يبنون سوراً حولها كذلك؟ اليوم ثمة هبوب ريح جنوبية غربية. النهاية المستدقة لبرج قاعة المدينة تتحرك بدوائر صغيرة. وجميع زجاج النوافذ يطقطق، وأعمدة الإنارة تنحني مثل الخيزران. بينما عباءة السيدة مريم العذراء تلتف حول عمودها والرياح تتجاذبها. ألم يلاحظ هذا أحد ما؟ والسيدات والسادة الذين ينبغي عليهم المشي على الرصيف كانوا يتقلبون. وعندما تقل حدّة الرياح يقفون ساكنين، ويتفوهون بعدد قليل من الكلمات، وينحنون

لبعضهم البعض، لكن حينما تشتد الرياح مرة أخرى يصبحون عاجزين، وجميع أقدامهم تترك الأرض في الوقت نفسه. وبرغم أنهم ملزمون بالتمسك بقبعاتهم، فإن عيونهم تومض بفرح غامر، إذ لا أحد لديه أدنى خطأ في أن يتذمّر من الطقس. أنا الوحيد الذي يخاف».

إزاء ذلك كنت قادراً على القول: «إن تلك القصة التي أخبَرْتَني إياها في وقت سابق عن والدتك والمرأة في الحديقة، أنا حقاً لم أجدها مثيرة جداً. ليس فقط لأنني سمعت وشهدت قصصاً كثيرة من هذا القبيل، بل إنني أيضاً اشتركتُ في بعضها. الأمر برمّته طبيعي تماماً. هل تعني حقاً أنك تشير إلى أنني لو كنت في تلك الشرفة في فصل الصيف، لما سألتُ السؤال نفسه وأعطيتُ الإجابة من خلال الحديقة؟ وهذا حدث عادي تماماً!»

بعد أن قلتُ هذا، بدا مرتاحاً أخيراً. اخبرني بأنني حسن الهندام وأنه يحب كثيراً ربطتي. وأملك سحنة جميلة. وتلك الاعترافات أصبحت مفهومة أكثر عندما تراجعوا.

ج. قصة المتوسل

ثم جلس بجانبي، لأنني قد أصبحتُ خجولاً وبينما أحني رأسي إلى الجانب، خصّصتُ غرفة له. مع ذلك، فإنه لم يغب عني أنه أيضاً كان يجلس هناك محرجاً نوعاً ما، محاولاً أن يبقى على مسافة مني ويتحدث بصعوبة:

«أوه، يا لها من أيام مروعة تلك التي لا بد لي أن اعيشها! الليلة الماضية كنت في حفلة. كنت أنحني لسيدة شابة في ضوء الغاز وأقول: «أنا سعيد للغاية بقدوم الشتاء» ـ كنت أنحني وأنا أقول هذه الكلمات عندما لاحظتُ منزعجاً بأن فخذي الأيمن قد انزلق من رباطه. كما أن صابونة الركبة قد أصبحت أيضاً رخوة قليلاً.

«وهكذا جلستُ، ولأنني كنت دائماً أحاول السيطرة على عباراتي، قلت: «كون الشتاء يتطلب جهداً أقل بكثير؛ فإنه من السهل أن تريح نفسك، إذ لا ينبغي للمرء أن يدخل في الكثير من المتاعب بسبب كلماته. ألا توافقين على ذلك، يا آنستي؟ ويحدوني الأمل بأنني على حق بشأن هذا». ساقي اليمنى الآن تسبب لي الكثير من المتاعب. في البداية بدت أنها تتفكك قطعاً، وبشكل تدريجي تمكنتُ من إرجاعها إلى ما كانت عليه عن طريق التحريك وإعادة الترتيب الدقيق.

«ثم سمعتُ الفتاة، التي، بسبب التعاطف، قد جلستْ أيضاً، تقول بصوت خفيض: «لا، أنت لا تستهويني على الإطلاق لأن ـ».

«لحظة من فضلك، قلتُ، وأنا سعيد وتملؤني الآمال، يجب أن لا تضيّعي حتى ولو بقدر خمس دقائق وأنتِ تتحدثين معي، آنستي العزيزة. رجاءً تناولي شيئاً ما حينما تتحدّثين، أتوسّل اليكِ».

«وأنا أمدّد ذراعي أخذتُ قبضة كبيرة من العنب الذي يتدلى بثقله من وعاء قائم بواسطة كيوبيد برونزي مجنّح، لوّحتُ به للحظة في الهواء، ومن ثم وضعته على لوح أزرق صغير سلّمته إلى الفتاة، بشكل لا يخلو من بعض الأناقة، أنا على ثقة.

قالت، «أنت لا تستهويني على الإطلاق. كل ما تقوله ممل وغير مفهوم، لكن هذا وحده لا يجعله صائباً. ما أفكّر به حقاً يا سيدي ـ لماذا تدعونني دائماً بآنستي العزيزة؟ ـ هل أنك لا يمكن أن تنزعج من الحقيقة ببساطة لأنها مزعجة جداً».

«يا إلهي، كم جميل ذلك الشعور الذي أعيشه! نعم، آنستي، آنستي! صرختُ تقريباً، ‘كم أنتِ محقّة! آنستي العزيزة، ليتك تعرفين ما الفرح الغامر إذ أجد أحداً متفهماً جيداً ـ ودون بذل أي جهد!»

«ليس هناك شك، يا سيدي، بأنه بالنسبة لك تكون الحقيقة متعِبة جداً. فقط انظر إلى نفسك! إن طولك بأجمعه قد قُدَّ من مناديل ورقية، مناديل ورقية صفراء، مثل صورة ظلية، وعندما تمشي لا بد للمرء أن يسمع حفيف مشيك. لذلك ينبغي للمرء أن لا ينزعج من موقفك أو رأيك، لأنه لا يسعك إلاّ الانحناء أمام أي تيار يصادف أن يكون في الغرفة».

«أنا لا أفهم ذلك. صحيح أن العديد من الناس يقفون هنا في هذه الغرفة. إنهم يضعون أذرعهم على خلفيات الكراسي أو أنهم يتكئون على البيانو أو أنهم يرفعون كأساً بشكل مؤقت إلى أفواههم أو أنهم يمشون على استحياء في الغرفة المجاورة، بعد أن يضربوا أكتافهم اليمنى بخزانة في الظلام، فإنهم يقفون ليتنفسوا بجانب النافذة المفتوحة ويتفكرون: هناك فينوس، نجمة المساء. مع ذلك أنا ههنا، بينهم. إذا كان هناك اتصال، فإنني لا أفهمه. ولكنني لا أعرف حتى إن كان هناك اتصال. ـ وإنكِ ترين، آنستي العزيزة، من كل هؤلاء الناس الذين يتصرفون بتردد، بسخف كبير نتيجة ارتباكهم، فإنني وحدي أبدو أستحق سماع الحقيقة عن نفسي. ومن أجل جعل هذه الحقيقة أكثر قبولاً فإنكِ تضعينها بطريقة ساخرة حتى يبقى هناك شيء ما ملموس، كالجدران الخارجية للمنزل الذي تمّ تدمير أجزائه الداخلية. فلا شيء يكاد يعرقل العين؛ ففي النهار يمكن رؤية السحب والسماء من خلال الثقوب الكبيرة في النافذة، وفي الليل تُرى النجوم. لكن الغيوم غالباً ما تقدّ من الأحجار الرمادية، بينما النجوم تشكّل أبراجاً غير طبيعية. ـ كيف سيكون الأمر لو كنتُ في المقابل سأخبركِ بأنه ذات يوم بأن أي شخص يريد أن يعيش يبدو يشبهني ـ أي قُدّ من مناديل ورقية، مثل صور ظلية، كما أشرتِ ـ وعندما يمشون فإنهم سوف يُسمع حفيف مشيهم؟ لا يعني ذلك بأنهم سيكونون مختلفين عما هم عليه الآن، ولكن هذا هو ما يبدون عليه. حتى أنتِ، يا آنستي العزيزة ـ».

«ثم لاحظتُ بأن الفتاة لم تعد تجلس بجانبي. لا بد أنها غادرت بعد وقت قصير من التفوّه بكلماتها الأخيرة، فهي الآن تقف بعيداً عني بجانب نافذة، محاطة بثلاثة شبّان كانوا يتحدثون ويضحكون بياقاتهم البيض العالية».

«لذلك بسعادة شربتُ كأساً من النبيذ ومشيتُ إلى عازف البيانو الذي، كان وحيداً تماماً ويومئ إلى نفسه، صادف أن يعزف شيئاً ما حزيناً. انحنيتُ بعناية إلى أذنه حتى لا أخيفه وهمستُ في اللحن: «كونوا لطفاء جداً، يا سيدي، واسمحوا لي أن أعزف الآن، لأنني أشعر ببداية سعادتي الآن»

«ولأنه لم يعرني أي اهتمام، وقفتُ هناك لفترة من الوقت محرجاً، ولكن بعد ذلك، بعد التغلب على ترددي، مضيتُ من ضيف إلى آخر، قائلاً بلا تكلّف: «اليوم أنا سأعزف على البيانو. نعم.»

«يبدو أن الجميع يعرفون بأنني لا يمكنني العزف، لكنهم ابتسموا بطريقة ودية، وسُرّوا لهذه المقاطعة الجميلة لحديثهم. لم يعيروني اهتماماً مناسباً إلاّ عندما قلتُ لعازف البيانو بصوت عالٍ جداً: «أسدِ لي معروفاً، يا سيدي، بالسماح لي بالعزف الآن. بعد كل هذا، أنا فقط بدأتُ أشعر بالسعادة. الانتصار على المحك».

«على الرغم من أن عازف البيانو توقف، فإنه لم يترك مقعده البني ولا يبدو يفهمني. تنهّدَ وغطّى وجهه بأصابعه الطويلة.

«تأسّفتُ عليه، وكنت على وشك أن أشجّعه على الاستمرار في العزف عندما اقتربت المضيفة مع مجموعة من الناس.

«تلك مصادفة مضحكة، قالوا وضحكوا بصوتٍ عالٍ كما لو أنني على وشك أن أفعل شيئاً غير طبيعي».

«انضمت الفتاة إليهم أيضاً، نظرتْ إليّ بازدراء، وقالت: «من فضلكِ، سيدتي،

اسمحي له بالعزف. ربما كان يريد تقديم بعض المساهمات على سبيل التسلية. لا بد من تشجيعه. الرجاء السماح له».

«ضحك الجميع، معتقدين على مايبدو، كما اعتقدتُ أنا، بأن القصد من ذلك هو السخرية. فقط عازف البيانو كان صامتاً. وهو يخفض رأسه، أخذ يضرب خشب المقعد بسبابة يده اليسرى، كما لو أنه يقوم بتصاميم في الرمال. بدأتُ أرتجف، ومن أجل إخفاء ذلك، أقحمتُ يديّ في جيوب بنطلوني. كما أنني لم أتمكن أن أتحدث بوضوح أكثر من ذلك، لأن وجهي كله أراد أن ينتحب. وهكذا اضطررتُ إلى اختيار الكلمات بطريقة بحيث أن فكرة رغبتي في البكاء ستبدو سخيفة بالنسبة للمستمعين.

قلتُ، «سيدتي. يجب أن أعزف الآن لأنه ـ». وبينما كنت قد نسيتُ السبب فإنني جلستُ فجأة إلى البيانو. ومن ثم تذكرتُ مرة أخرى. وقف عازف البيانو وصعد بخفّة على المقعد، لأنني كنت أسدّ طريقه. «رجاءً اطفؤوا الضوء، فأنا لا يمكنني العزف إلاّ في الظلام». عدّلتُ من وقفتي.

«في تلك اللحظة مسك المقعد سيدان وبينما هما يترنمان بأغنية ويطوّحون بي جيئة وذهاباً، حملاني بعيداً عن البيانو إلى مائدة الطعام».

«كان الجميع يشاهد باستحسان فقالت الفتاة: ترين، ياسيدتي، إنه عزفَ بشكل جيد للغاية. كنت أعرف أنه سيعزف. وكنتِ قلقة جداً.

«فهمتُ وشكرتُها بانحناءة، نفّذتها بشكل جيد».

«سكبوا لي شيئاً من عصير الليمون فيما قامت فتاة بشفتين حمراوين بحمل كأسي وأنا أشرب. وقدّمتْ لي المضيفة الحلوى على صينية من الفضة وفتاة ترتدي بدلة ناصعة البياض وضعت الحلوى في فمي. فتاة أخرى، شهوانية وذات شعر أشقر، كانت تحمل قبضة من العنب فوقي، وكان كل ما يمكنني القيام به هو التقاطها بشفتيّ بينما كانت تحدق في عينيّ الذابلتين.

«لأن الجميع كان يعاملني بشكل جيد فقد فوجئت قليلاً بأنهم أجمعوا على صدّي مرة أخرى عندما حاولت العودة إلى العزف على البيانو».

«وهذا يكفي الآن»، قال المضيف، الذي لم أكن قد لاحظته من قبل. خرجَ وعاد على الفور بقبعة رسمية ضخمة ومعطف نحاسي بنّي ذي تصميم منمق. «هذه هي أشياؤك»».

لم تكن هذه أشيائي، بالطبع، لكنني لم أكن أريد أن أضعه في ورطة النظر مرة أخرى. ساعدني المضيف في المعطف الذي كان لائقاً بشكل جميل، متشبثاً بإحكام على جسدي النحيل. وهي تنحني ببطء، ثمة سيدة ذات وجه عطوف زرّرتْ المعطف من الأعلى إلى الأسفل.

«وداعاً، قالت المضيفة، وعُدْ قريباً. تعرف بأنك دائماً مرحّبٌ بك». عندها انحنى الجميع كما لو كانوا يعتقدون بأن ذلك ضروري. حاولتُ أن أحذو حذوهم، إلاّ أن معطفي كان ضيقاً جداً. لذلك أخذت قبعتي وبشكل مرتبك بلا شك، خرجتُ من الغرفة».

«لكنني عند مروري من خلال الباب الأمامي بخطوات قصيرة تعرّضتُ للهجوم من السماء عن طريق القمر والنجوم وفسحة مقببة كبيرة، ومن مقعد الصف الأول في الحلبة عن طريق دار البلدية، وعمود العذراء، والكنيسة».

«مشيت بهدوء من الظل إلى ضوء القمر، وفككتُ أزرار معطفي، ودفأتُ نفسي، ثم وضعتُ حداً لطنين الليل عن طريق رفع يديّ، وبدأتُ أفكّر على النحو التالي:

«ما الذي يجعلكم جميعاً تتصرفون كما لو كنتم حقيقيين؟ هل تحاولون أن تجعلوني أعتقد بأنني غير حقيقي، واقفاً هنا بشكل سخيف على الرصيف الأخضر؟ أنتِ، أيتها السماء، من المؤكد مرّت فترة طويلة مذ كنتِ حقيقية، وأما بالنسبة لك، أيتها الحلبة، فلم تكوني أبداً حقيقية.

«هذا صحيح، كنتم جميعاً وما زلتم تتفوقون عليّ، ولكن فقط عندما أترككم وحدكم».

«الحمد لله، أيها القمر، أنت لم تعد قمراً، ولكن ربما لإهمال مني ما زلت أدعوك قمراً، قمراً. لماذا تنخفض معنوياتك عندما أدعوك «فانوساً ورقياً منسياً ذا لون غريب»؟ ولماذا تنسحب تقريباً عندما أدعوك «عمود العذراء»؟ أما بالنسبة لك، ياعمود مريم العذراء، فإنني بالكاد أميّز موقفك المهدّد عندما أدعوك «قمراً يُلقي ضوءاً أصفر».

«يبدو لي حقاً بأن التفكير بك لا يقدّم لك أي خير؛ كنت تفتقد الشجاعة والصحة».

«يا إلهي، كم مربحاً سيكون الأمر أن يستطيع المفكّر أن يتعلم من السكران!»

«لماذا أصبح كل شيء هادئاً جداً؟ أعتقد بأن الرياح قد هدأت. والبيوت الصغيرة التي غالباً ما تتمايل عبر الساحة وكأنها على عجلات صغيرة تكون متجذرة في المكان ـ هادئة ـ هادئة ـ لا يستطيع المرء أن يرى حتى خطاً أسود رفيعاً يُستخدم لفصلها عن الأرض».

«وبدأت بالجري. ركضتُ دون عوائق ثلاث مرات حول الساحة الكبيرة، ولأنني لم ألتقِ سكراناً استمريتُ في الجري نحو زقاق تشارلس دون إبطاء ومن دون أي جهد. ظلي، الذي هو غالباً أصغر مني، ركض بجانبي على طول الجدار كما لو في ممر ضيق بين الجدار ومستوى الشارع».

«عندما مررت بمحطة الإطفاء سمعتُ ضوضاء قادمة من الحلقة الصغيرة، وعندما التفتُّ إلى ذلك رأيتُ سكراناً يقف بجانب السياج الحديدي من النافورة، كانت ذراعاه خارجتين بشكل جانبي وقدماه في حذاء خشبي يضرب الأرض».

«وإذ أقف لالتقاط أنفاسي، صعدتُ إليه، ورفعتُ قبعتي الرسمية، وقدّمتُ نفسي:

«مساء الخير، أيها النبيل اللطيف، أنا في الثالثة والعشرين من العمر، ولكن حتى الآن أنا بلا اسم. لكنك، بلا شك، تنحدر من المدينة العظيمة باريس ـ تحمل أسماء غير عادية، وفريدة تقريباً. كنتَ محاطاً بالرائحة غير الطبيعية جداً للمحكمة الماجنة لفرنسا. لا شك بأن عينيك الملونتين كانتا تشاهدان تلك السيدات العظيمات الواقفات على الشرفة العالية المشرقة، اللائي يلوين بشكل مضحك خصورهن الضيقة في حين ما تزال نهايات ثيابهن المزينة، المنتشرة على المدرجات، ملقاة على الرمال في الحديقة. ـ وبالتأكيد، العبيد الذين يرتدون سترات رمادية مفصّلة بجرأة وسراويل بيضاء إلى الركب يتسلقون أعمدة طويلة، وسيقانهم تحتضن تلكم الأعمدة لكن جذوعهم غالباً ما تنحني إلى الوراء وإلى الجانب، لأنها لا بد أن ترفع شراشف كتانية رمادية هائلة بعيداً عن الأرض بحبال سميكة وتنشرها في الهواء، لأن السيدة العظيمة أعربت عن رغبتها في صباح ضبابي».

«عندما تجشأ شعرتُ بالخوف تقريباً. هل هذا صحيح حقاً، يا سيدي، قلتُ، بأنك تنحدر من باريسنا، من باريس العاصفة تلك ـ آه، من عاصفة الثلج المترف تلك؟»

«وعندما تجشّأ مرة أخرى، قلتُ بإحراج: «أعرف، إنه لشرف عظيم ذلك الذي تسبغه عليّ»».

«وبأصابع رشيقة قمتُ بتزرير معطفي؛ ثم بحماس وباستحياء مع ذلك قلتُ: «أنا أعلم بأنك لا تراني أستحق جواباً، ولكن إذا لم أسألك اليوم فإن حياتي ستنقضي في البكاء. أنا أسألك يا سيدي الكبير، هل هو صحيح ما قيل لي؟ هل هناك أناس في باريس ممن يرتدون الباذخ من الملابس، وهل هناك منازل هي مجرد بوابات، وهل صحيح أنه في أيام الصيف تكون السماء فوق المدينة زرقاء عابرة منمقة فقط بسحب بيضاء صغيرة ملتصقة بها، وكلها على

شكل قلوب؟ وهل يكون فيها بانوبتيكون ذا شعبية كبيرة هناك لا يحتوي سوى على أشجار مثبّت عليها لويحات صغيرة تحمل أسماء الأبطال الأكثر شهرة، والمجرمين، والعشاق؟

«ومن ثم هذا الخبر الآخر! وهذا خبر ملفق بشكل واضح! شوارع باريس هذه، على سبيل المثال، فإنها تتفرع فجأة، أليس كذلك؟ إنها مضطربة، أليس كذلك؟ الأمور ليست دائماً كما ينبغي أن تكون، فكيف يمكن أن تكون، بعد كل هذا؟ أحياناً ثمة حادثة، ويجتمع الناس معاً من الشوارع الجانبية بذلك الخطو الحضري الذي لا يكاد يمس الرصيف؛ إنهم جميعاً يملؤهم الفضول، ولكن أيضاً يملؤهم الخوف من خيبة أمل؛ يتنفسون بسرعة ويمدّون رؤوسهم الصغيرة. ولكن عندما يلمسون بعضهم البعض فإنهم ينحنون ويعتذرون: «أنا آسف جداً ـ لم أقصد ذلك ـ ثمة زحام كبير؛ سامحني، أتوسل إليك ـ كان ذلك عملاً أخرق بدرَ مني، أعترف بذلك. اسمي هو ـ اسمي هو جيروم فاروشي، أنا بقّال في شارع دي كابوتن ـ اسمح لي بدعوتك لتناول طعام الغداء غداً ـ زوجتي أيضاً ستكون سعيدة لذلك».

«لذلك يمضون في الحديث بينما يمتد الشارع ثملاً والدخان المتصاعد من المداخن يقع بين المنازل. هذا ما يبدو عليه الأمر. ولكن قد يحدث بأن عربتين تتوقفان في شارع مزدحم لحيّ مميز. ويقوم عبيد عليهم سيماء الجد بفتح الأبواب. ثمانية كلاب ذئبية سيبيرية أنيقة تأتي تثب وتتقافز وهي تنبح عبر الشارع. ويقال بأنهم شبّان متأنقون باريسيون متنكرون».

«كانت عيناه مغلقتين تقريباً، وعندما صمتُّ، وضعَ كلتا يديه في فمه وسحبَ فكه السفلي. كانت ملابسه مغطاة بالأوساخ. ربما كان قد ألقي به خارج إحدى الحانات ولم يدرك ذلك حتى الآن».

«ربما كان ذلك سكوناً هادئاً قصيراً بين الليل والنهار عندما تتدلى رؤوسنا

إلى الخلف بشكل غير متوقع، عندما يصمت كل شيء من دون أن نعرف ذلك، وبما أننا لا ننظر إليه، ومن ثم يختفي؛ نبقى وحيدين، أجسادنا منحنية، ثم ننظر حولنا ولكن لم نعد نرى أي شيء، ولا حتى نشعر بأية مقاومة في الهواء ولو من الداخل نحن نتشبث بالذاكرة التي على مسافة معينة منها تقف منازل ذات أسقف وذات مداخن زاويّة لحسن الحظ يتسرّب الظلام أسفلها عبر الغرف العليا إلى غرف مختلفة. ومن حسن الحظ أنه غداً سيكون يوماً، من غير المحتمل كما قد يبدو، أن يستطيع فيه المرء أن يرى كل شيء.

«الآن هزّ السكران حاجبيه بحيث ظهر سطوع بينهما وبين عينيه، وأوضح بشكل متقطع: «الأمر مثل هذا، كما ترى ـ أنا نعسان، كما ترى، ولهذا السبب أنا سأنام. ـ كما ترى، لدي نسيب في ساحة فاتسلاف ـ هذا هو المكان الذي أنا ذاهب لأعيش فيه هناك، أنا ذاهب إلى حيث سريري ـ لذلك سأنطلق ـ لكنني لا أعرف اسمه، كما ترى، أو أين يعيش ـ يبدو أنني نسيت ـ لكن لا يهم، ذلك لأنني لا أعرف حتى إن كان لدي نسيب بالمرة. ـ لكنني سأنطلق الآن، كما ترى ـ هل تعتقد بأنني سوف أجده؟»

«إزاء ذلك، ودون تفكير، قلتُ: «ذلك مؤكد. ولكنك قادم من الخارج وخَدَمك لا يصادف أن يكونوا معك. اسمحوا لي أن أريكم الطريق».

«لم يجب. لذلك قدّمتُ إليه ذراعي، من أجل منحه بعض الدعم».

د. استمرار المحادثة بين الرجل البدين والمتوسل

لبعض الوقت كنت أحاول أن أسرّي عن نفسي. فركتُ جسدي وقلت لنفسي: «لقد حان الوقت لكي تتحدث. فأنت أصبحتَ محرَجاً. هل تشعر بأنك مظلوم؟ فقط انتظر! أنت تعرف هذه المواقف. فكّرْ في الأمر ملياً في وقت فراغك. فحتى المشهد سينتظر.

«إن هذ الشيء يشبه ما كان عليه في الحفلة الأسبوع الماضي. أحدهم يقرأ بصوت عالٍ من مخطوطة. وبناءً على طلبه قمت شخصياً بنسخ صفحة واحدة. عندما أرى كتابتي اليدوية بين الصفحات التي كتبها هو، ينتابني الخوف. إنها دون أي ثبات. إذ إن الناس ينحنون عليها من ثلاثة جوانب من الطاولة. وبعينين مغرورقتين بالدموع، أقسم أن هذا ليس خط يدي».

«لكن ما هي العلاقة مع ما حصل هذا اليوم؟ الأمر برمّته منوط بك لبدء محادثة معقولة. كل شيء على ما يرام. فقط ابذل جهداً، يا صديقي! ـ من المؤكّد أن تواجه اعتراضاً ـ يمكنك أن تقول: «أنا نعسان. عندي صداع. وداعاً». ثم اسرعْ! اسرعْ! كن متميّزاً! ـ ما هذا؟ مرة أخرى عقبات وعقبات؟ بماذا يذكرك هذا؟ ـ أتذكر هضبة عالية ارتفعت إلى السماء الواسعة كدرع إلى الأرض. رأيت ذلك من جبل وأعددتُ نفسي للتجوال خلاله. بدأتُ الغناء».

كانت شفتاي متيبستين وعصبيتين كما قلت: «أما كان ينبغي أن تعيش بشكل مختلف؟»

«لا»، قال، وهو يتساءل، مبتسماً.

«ولكن لماذا تصلي في الكنيسة مساء كل يوم؟» سألتُ بعدها، في حين أن كل شيء بيني وبينه، الذي كان حتى ذلك الحين متماسكاً، قد انهار وكأنني أحلم.

«أوه، لماذا ينبغي أن نتحدث عن ذلك؟ إن الناس الذين يعيشون وحدهم ليس لديهم أية مسؤولية في المساء. المرء يتخوف من عدة أمور ـ وهي أن جسد المرء يمكن أن يختفي، وأن البشر ربما يكونون حقاً على ما يبدون عليه في وقت الشفق، وأن المرء قد لا يُسمَح له بالمشي دون عصا، وأنه قد تكون فكرة جيدة الذهاب إلى الكنيسة والصلاة بأعلى صوت من أجل أن ينظر إليه الآخرون ويكتسب هيئة ما».

ولأنه تحدّث بهذه الطريقة ثم لاذ بالصمت، سحبتُ منديلي الأحمر من جيبي، وأحنيتُ رأسي، وبكيتُ.

وقفَ، وقبّلني، وقال: «ممَّ بكاؤك؟ أنت فارع الطول، أحب ذلك؛ تمتلك يدين طويلتين هما طوع بنانك؛ لماذا أنت غير سعيد بذلك؟ ارتدِ دائماً أكماماً داكنة، وهذه نصيحتي. ـ لا ـ أنا أداهنك ومع ذلك أنت تبكي؟ أرى أن عليك التعامل بشكل معقول جداً مع ضنك العيش».

«نحن نبني آلات حربية عديمة الفائدة وأبراجاً وجدراناً وستائر من الحرير، ويمكن أن نعجب بكل هذا أيما إعجاب إذا كان لدينا الوقت. نحن معلّقون، لا نسقط، بل نرفرف، برغم أننا قد نكون أقبح من الخفافيش. وفي يوم جميل بالكاد يستطيع أي شخص أن يمنعنا من قول: «يا إلهي، ما أجمل هذا اليوم. ذلك لأننا راسخون بهذه الأرض ونعيش بموجب اتفاق.

«ولأننا مثل جذوع الأشجار في الثلج. فهي غافية هناك أفقياً على الأرض كما يبدو للعيان، ويبدو الأمر كما لو أن بوسع المرء أن يزيحها بعيداً بركلة خفيفة. لكن لا، لا يمكن للمرء أن يفعل ذلك، لأنها متمسكة بقوة بالأرض. لذلك ترى حتى هذا هو مجرد شيء ظاهري».

الفكرة التالية منعتني من النشيج: «الوقت ليل ولا أحد سيعاتبني غداً على ما يمكن أن أقوله الآن، لأن ذلك يمكن أن يقال أثناء نومي».

ثم قلتُ: «نعم، هذا هو الأمر، ولكن عن ماذا كنا نتحدث؟ لم نكن نتحدث عن الضوء في السماء لأننا واقفون في ظلام المدخل. لا ـ كان يمكن أن نتحدث عن هذا، برغم ذلك، ألسنا غير أحرار في قول ما نرغب فيه في الحوار؟ مع ذلك، نحن لا نهدف إلى أي غرض محدد أو إلى الحقيقة، لكن ببساطة نهدف إلى إلقاء النكات وتزجية وقت طيب. ورغم ذلك، ألا تستطيع أن تسرد لي قصة المرأة في

الحديقة مرة أخرى؟ كم مثيرة للإعجاب، وكم ذكية هذه المرأة! علينا الاقتداء بها. كم أنا مولع بها! لذلك فمن محاسن الصدف أنني قابلتك وانتظرتك كما فعلتُ الآن. لقد غمرني الحديث بفرحة كبيرة. لقد تعلمت العديد من الأشياء التي، ربما عن قصد، لم تكن معروفة لي حتى الآن. ـ أنا ممتنّ».

بدا مسروراً. وبرغم أن الاتصال بجسم بشري دائماً ما يكون بغيضاً لي، فإنه لا يسعني إلاّ أن أحتضنه.

ثم خرجنا من الرواق تحت السماء. أبعدَ صديقي بعض الغمامات الصغيرة المتفرقة، مما سمح لسطح النجوم غير المتقطّع بالظهور. وسار بصعوبة.

4. غرق الرجل البدين

والآن كان كل شيء محكوماً بالسرعة وبعيد المنال. فماء النهر انسحب باتجاه المنحدر، حاول المقاومة، التفّ قليلاً عند الحافة المنهارة، لكن بعد ذلك تحطمَ في دخان مُزبد.

لم يتمكن الرجل البدين من مواصلة الحديث، واضطر إلى التحول والتخفّي في الهدير العالي للشلال.

أنا، الذي خبرَ الكثير من التحولات السارّة، وقفتُ على الضفة وأخذتُ أشاهد. «ما الذي يُفترَض أن تقوم به رئتانا؟» صرختُ. ثم صحتُ: «إذا كانتا تتنفسان بسرعة فسوف تخنقان نفسيهما بالسموم الداخلية؛ وإذا كانتا تتنفسان ببطء فإنهما سوف تختنقان بالهواء الذي لا يمكن تنفّسه. ولكن إذا حاولتا البحث عن إيقاعهما فإنهما ستهلكان بمجرد البحث».

وفي الوقت نفسه امتدت ضفاف النهر لتتجاوز كل الحدود، ومع ذلك لمستُ براحة يدي معدنَ لافتةٍ كانت تلمع بدقة في المسافة القصية. هذا حقاً لم أستطع أن افهمه تماماً. برغم كل هذا فأنا كنتُ صغيراً، أصغر تقريباً من المعتاد،

فشجيرة من الورد البري الأبيض بمجرد أن اهتزت بسرعة فائقة أصبحتْ أكبر مني. هذا ما رأيته، إذ طيلة لحظة خلت كان هذا قد حصل بالقرب مني.

مع ذلك كنت مخطئاً، لأن ذراعيّ كانتا ضخمتين جداً ضخامة غيوم مطر البلاد الثابت، ما عدا أنهما كانتا أكثر تسرعاً. لا أعرف لماذا كانتا تحاولان سحق رأسي البائس. فهو لم يكن أكبر من بيضة نملة، لكنه مدمَّر تدميراً طفيفاً، وكنتيجة لذلك لم يعد دائرياً تماماً. قمتُ ببعض حركات التضرع، والالتواء، ذلك لأن تعبير عينيَّ لا يمكن ملاحظته، فهما كانتا صغيرتين جداً.

لكن ساقَيّ، ساقَيّ العصيّتين تقعان فوق الجبال المشجرة، وأعطتا الظل إلى الوديان التي ترصّع القرية. كانتا تكبران وتكبران! وها هما وصلتا إلى الفضاء الذي لم يعد يمتلك أي منظر طبيعي، ولبعض الوقت كان طولهما قد ذهب خارج مدى رؤيتي.

لكن لا، ليس الأمر كذلك ـ برغم كل شيء، أنا صغير، صغير في الوقت الحاضر ـ أنا أتدحرج ـ أنا أتدحرج ـ أنا انهيار جليدي في الجبال! من فضلكم، أيها المارة، هلاّ تكرّمتم وقلتم لي كم هو طولي ـ فقط قيسوا هذه الأذرع، وهاتين الساقين.

III

«دعوني أفكر»، قال أحد معارفي، الذي كان يرافقني منذ الحفلة وكان يسير الهوينا بجانبي على طريق حتى التلّ. «فقط قف ساكناً للحظة حتى أستطيع أن أفهم الأمر بوضوح. ـ لدي شيء ما لتسويته، كما تعرف. وهو وجود شيء من الإجهاد ـ الليل متألق، برغم برودته نوعاً ما، ولكن هذه الرياح الساخطة، تبدو أحياناً وكأنها تغيّر موقع أشجار الأكاسيا».

جعل القمر منزل البستاني يلقي بظلاله على الطريق المحدودب قليلاً الذي

تنتشر عليه بقع ضئيلة من الثلج. عندما رأيت المقعد الذي انتصب بجانب الباب، أشرتُ إليه بإصبع مرفوع، ولأنني لم أكن شجاعاً وكنت أتوقع التأنيب فقد وضعتُ يدي اليسرى على صدري.

جلس ضجراً، متجاهلاً ملابسه الجميلة، وأذهلني وهو يضغط مرفقيه على وركيه ويضع جبهته على أطراف أصابعه المرهقة.

«نعم، الآن أريد أن أقول هذا. كما تعرف، أنا أعيش حياة منتظمة. لا يمكن أن يشوبها أي خطأ، فكل شيء أقوم به يعدّ صائباً وتتم الموافقة عليه عموماً. إن سوء الطالع، كما هو معروف في المجتمع الذي أتردد إليه، لم يدع لي مجالاً، كوني أنا ومَن يحيطني قد أدركنا ذلك بارتياح، وحتى حسن الحظ عموماً لم يخذلني فقد كنت شخصياً قادراً على الحديث عن ذلك في دائرة صغيرة من الأصدقاء. صحيح أنني حتى الآن لم أقع فعلاً في الحب. كنت أندم على ذلك من حين إلى آخر، لكنني كنت أستخدم هذه العبارة عندما كنت بحاجة إليها. والآن يجب أن أعترف: نعم، أنا واقع في الحب وإلى حد بعيد كنت استشيط غضباً. أنا محب متحمس، بالضبط ما تحلم به الفتيات. لكن هل ينبغي أن لا أعدّ ذلك بأنه مجرد نقصي السابق هذا وقد منح تحولاً استثنائياً وجميلاً، جميلاً على نحو خاص، لظروفي؟»

«هدّئ من روعك»، قلتُ ذلك بلا اهتمام، مفكراً فقط بنفسي. «حبيبتك جميلة، وأنا لا يسعني إلاّ أن أسمع ذلك».

«نعم، إنها جميلة. وبينما أجلس إلى جوارها، فإن كل ما كنت أفكر فيه هو: يا لها من مغامرة ـ ألستُ جريئاً! ـ أذهب هناك للشروع في رحلة بحرية ـ وأشرب الخمر بالغالون. لكن عندما تضحك فإنها لا تُظهر أسنانها كما هو متوقع؛ بدلاً من ذلك، فكل الذي يراه المرء هو فتحة فم مظلمة، ضيقة، ومنحنية. الآن يبدو هذا ماكراً وخرفاً، برغم أنها تلقي رأسها إلى الخلف عندما تضحك».

«لا أستطيع أن أنكر ذلك»، قلت متنهداً. «ربما قد رأيته، أيضاً، لذلك لا بد أن يكون هذا واضحاً. لكن الأمر لا يتعلق بذلك فحسب؛ إنه جمال الفتيات عموماً. في كثير من الأحيان عندما أرى فساتين ذات طيات، ورتوش، وكرانيش متعددة متشبثة بسلاسة بأجسام جميلة، يخيّل إليّ بأنهن لن يبقين على هذا النحو لفترة طويلة، وأنهن سوف تغزوهن التجاعيد التي لا يمكن تسويتها، والغبار سوف يتجمع في الزراكش بشكل كثيف جداً بحيث لا يمكن إزالته، وأنه ما من واحدة سوف تجعل نفسها بائسة جداً ومثيرة للسخرية بحيث كل يوم ترتدي اللباس الثمين نفسه في الصباح وتخلعه في الليل. ومع ذلك أرى فتيات جميلات بما فيه الكفاية، وهنّ يعرضن جميع أنواع العضلات الجذابة والعظام الصغيرة والبشرة الناعمة وغابة من الشعر الناعم، ويظهرن كل يوم في الملابس الرائعة الطبيعية نفسها، ودائماً يجعلن الوجه نفسه في راحة اليد نفسها ويتركنه ينعكس في المرآة. فقط في بعض الأحيان في الليل، عند العودة في وقت متأخر من حفلة، يحدّق هذا الوجه فيهن من المرآة متعباً، ومتورماً، حيث شاهده جمع غفير من الناس، ولا يكاد يستحق الخروج به مرة أخرى».

«لقد سألتك عدة مرات ونحن نسير إن كنتَ وجدتَ فتاتي جميلة، لكنك دائماً تشيح بوجهك بعيداً بلا جواب. قل لي، هل تنوي إلحاق بعض الأذى؟ لماذا لا تواسيني؟»

دفعتُ قدميّ في الظل وقلتُ بلطف: «أنت لا تحتاج إلى مَن يواسيك. برغم كل شيء، أنت محبوب». ولتجنب الإصابة بالزكام وضعتُ على فمي منديلاً يحمل تصميم العنب الأزرق.

التفتَ نحوي الآن وأحنى وجهه البدين على الظهر المنخفض للمقعد: «في الواقع ما يزال لدي الوقت، كما تعرف. يمكنني وضع حد لعلاقة الحب الوليدة هذه في الحال، إما عن طريق ارتكاب عمل قبيح، أو من خلال خيانة، أو بالخروج

إلى أرض نائية. ذلك لأن لدي شكوكاً خطيرة حول ما إذا كان ينبغي الاستسلام لكل هذه الإثارة. ليس هناك شيء مؤكد، لا أحد يمكنه أن يخبرك بالاتجاه أو المدة على نحو اليقين. إذ أدخلُ في حانة بقصد السكر، أعرف بأنني سوف أسكر في ذلك المساء. لكن في هذه الحالة! في غضون أسبوع نخطط للذهاب في رحلة مع بعض الأصدقاء. تخيّل العاصفة التي سيخلقها في القلب بالنسبة للأسبوعين القادمين! إن قبلات الليلة الماضية تجعلني أشعر بالنعاس وتمهّد الطريق لأحلام وحشية. أقاوم ذلك عن طريق الذهاب في نزهة في الليل، ولأنني في حالة دائمة من الاضطراب، يبقى وجهي يسخن ويبرد كما لو أن الرياح لفحته، عليّ أن أستمر باللعب بأصابعي بالشريط الوردي في جيبي طوال الوقت، فأنا مليء بأخطر المخاوف المحدقة بي التي لا يمكن متابعتها، وبوسعي أن أتحمّل صحبتك، يا سيدي، بينما أنا في العادة ما كنتُ لأقضي الكثير من الوقت في التحدث إليك».

كنت أشعر بالبرد القارس وكانت السماء تتحول إلى اللون الأبيض. «أخشى أن لا يكون أيّ عمل مشين، أو خيانة أو رحيل إلى أصقاع بعيدة بذي فائدة. «عليك أن تقتل نفسك»، قلت ذلك، وأنا أبتسم.

في مواجهتنا على الجانب الآخر من الشارع وقفت اثنتان من الشجيرات وأسفل هاتين الشجيرتين شخصت المدينة. كانت ما تزال هناك بعض الأضواء المشتعلة.

«حسناً»، بكى، وضرب المقعد بقبضته المشدودة الصغيرة التي، مع ذلك، تركها تقبع هناك. «لكنك مستمر في العيش. لا تقتل نفسك، لا أحد يحبك. أنت لا تحقق أي شيء. لا يمكنك التعامل مع اللحظة التالية. مع ذلك تجرؤ على التحدث إليّ بهذه الطريقة، أيها المتوحش. أنت غير قادر على الحب، فقط الخوف هو الذي يثيرك. فقط ألقِ نظرة على صدري».

عندها فتحَ بسرعةٍ معطفه وصدريته وقميصه. كان صدره فعلاً واسعاً وجميلاً.

«نعم، مثل هذه الأمزجة العنيدة تسيطر على المرء أحياناً»، بدأتُ أقول. «هذا الصيف كنت في القرية التي تقع بجانب نهر. أتذكره جيداً. فكثيراً ما كنت أجلس على مقعد بجانب الشاطئ في وضع ملتوٍ. كان هناك فندق، وغالباً ما يسمع المرء صوت الكمان. كان الأشخاص الأصحّاء الشباب يجلسون في الحديقة عند طاولات عليها البيرة ويتحدثون عن الصيد والمغامرات. وعلى الضفة الأخرى كانت الجبال التي تشبه الغيوم».

بعد ذلك، بمشية عرجاء، وفم مشوّه، نهضتُ، وخطوتُ على العشب وراء المقعد، وكسرتُ عدداً قليلاً من الأغصان المغطاة بالثلوج، وهمستُ في أذن قريبي: «أنا مرتبط، أعترف بذلك».

لم يتفاجأ قريبي بأنني نهضتُ. «أنت مرتبط؟» جلس هناك منهكاً تماماً، مستنداً فقط إلى ظهر المقعد. ثم خلع قبعته ورأيتُ شعره، المعطر والممشّط بشكل جميل، الذي يُبرز الرأس المدور على عنق مكتنز في خط منحنٍ حاد، كما كانت الموضة في ذلك الشتاء.

وقد سرّني أنني أجبته بمهارة فائقة. «فكرْ فقط»، قلت لنفسي، «كيف يتحرك في المجتمع برقبة مرنة وذراعين تتأرجحان بحرية. وبينما هو يستمر بحوارٍ ذكي، فإن بوسعه توجيه سيدةٍ تماماً من خلال غرفة الضيوف، وحقيقة أنها تمطر في الخارج، وأن شخصاً ما خائفاً يقف قريباً أو أن شيئاً ما بائساً يحدث الآن، لا تجعله عصبياً. لا، يستمر بالانحناء بالمجاملة نفسها للسيدات. وهناك يجلس الآن».

مسحَ قريبي حاجبه بمنديل باتيستة. «رجاءً ضعْ يدك على جبهتي»، قال. «أتوسل إليك». وعندما لم أفعل ذلك في الحال، طوى يديه.

وكأن حزننا قد عتّمَ كل شيء، جلسنا في أعالي الجبل كما لو أن الحال

في غرفة صغيرة، برغم أنه في وقت مبكر قليلاً كنا قد لاحظنا ضوء ورياح الصباح. جلسنا قريبين من بعضنا البعض على الرغم من أننا لا يحب أحدنا الآخر على الإطلاق، لكن لا يمكننا أن نتحرك متباعدين ذلك لأن الجدران كانت موضوعة بقوة وثبات. يمكننا، مع ذلك، أن نتصرف بشكل سخيف وبلا كرامة إنسانية، لأنه لم يجب علينا أن نخجل في حضرة الأغصان التي فوقنا والأشجار الشاخصة قبالتنا.

بعد ذلك، ومن دون مزيد من اللغط، سحب قريبي سكيناً من جيبه، فتحها بتروٍ، ومن ثم، كما لو كان يلعب، غرزها في الجزء العلوي من ذراعه، ولم يسحبها. بدأ الدم يشخب على الفور. وأصبحت وجنتاه المستديرتان شاحبتين. سحبتُ السكين، وقطّعتُ كمّ معطفه وسترته، ومزقتُ كمّ قميصه. ثم ركضتُ قليلاً إلى الشارع لمعرفة ما إذا كان هناك أي شخص يمكن أن يساعدنا. كانت جميع الأغصان تقريباً مرئية بشكل مبالغ به وبلا حراك. جعلتُ أمتصّ قليلاً في الجرح العميق. بعد ذلك تذكرتُ كوخ البستاني. ركضتُ صاعداً الدرجات المؤدية إلى المرج العلوي على الجانب الأيسر من البيت، وبسرعة تفحصتُ النوافذ والأبواب، وقرعتُ الجرس بقوة، وضربتُ بقدميّ، برغم أنني كنت أعرف طوال الوقت بأن المنزل غير مأهول بالسكان. بعدها نظرتُ إلى الجرح الذي كان ينزف شيئاً فشيئاً. وبعد أن ترطّبَ منديله في الثلوج، ربطته بشكل أخرق حول ذراعه.

قلتُ، «يا صديقي العزيز، العزيز. لقد جرحتَ نفسك من أجلي. إنك في مثل هذا الموقف الجيد، يحيط بك أصدقاء حسنو النية، يمكنك أن تتمشى في رابعة النهار حيث يمكن رؤية أي عدد من الناس المهندمين في كل مكان بين الطاولات أو على الممرات الجبلية. فقط أمعن التفكير، في الربيع سوف نذهب إلى البستان ـ لا، ليس نحن، ذلك غير صحيح للأسف ـ لكنك مع آنّي سوف تذهب في نزهة سعيدة. أوه نعم، صدقني، أتوسل إليك، والشمس

سوف تتباهى بك أمام الجميع في أفضل أحوالك. أوه، سيكون هناك موسيقى، وصوت خيول من الأقاصي، لا حاجة للقلق، سيكون هناك صراخ وستعزف الأرغنات اليدوية في الدروب».

«يا إلهي»، قال، ثم وقف، وانحنى عليّ ومضينا في سبيلنا، «يا إلهي، لا مناص من ذلك. هذا لن يجعلني سعيداً. اعذرني. هل الوقت متأخر؟ ربما عليّ أن أفعل شيئاً ما في الصباح. يا إلهي».

ثمة فانوس يتوهّج على مقربة من الجدار أعلاه؛ كان يُلقي بظلال جذوع الأشجار عبر الطريق والثلج الأبيض، بينما على المنحدر كانت ظلال جميع الأغصان منحنية، كما لو أنها مكسورة.

ترتيبات حفلة زواج في الريف

I

عندما سار إدوارد رابان، القادم على طول الممر، إلى المدخل المفتوح، رأى بأن السماء تمطر. لكنها لم تكُ تمطر بغزارة.

على الرصيف مباشرة أمامه كان هناك العديد من الناس يسيرون بإيقاعات مختلفة. بين الحين والآخر يقوم أحدهم بالخطوِ إلى الأمام ويعبر الطريق. ثمة فتاة صغيرة كانت تحمل جرواً متعباً في يديها الممدودتين. وكان سيّدان يتبادلان المعلومات. كان أحدهما يرفع الراحتين إلى أعلى، يرفعهما ويخفضهما بحركة منتظمة، كما لو كان يوازن حمولة. ثم لمح الآخرُ سيدة كانت قبعتها مثقلة بأشرطة، ومشابك، وزهور. ومرَّ مسرعاً شاب يحمل عصا مشي نحيفة، ويده اليسرى، التي كأنها مشلولة، استوت على صدره. بين الفينة والأخرى كان يأتي رجال يدخنون، ويحملون سحباً صغيرة مستقيمة مستطيلة تسير أمامهم. ثلاثة رجال ـ اثنان منهم يحملون معاطف خفيفة الوزن على سواعدهم المعقوفة ـ ساروا عدة مرات إلى الأمام من أمام المباني إلى حافة الرصيف، واستطلعوا ما كان يجري هناك، وبعد ذلك انسحبوا مرة أخرى، وهم يتحدثون.

من خلال الفجوات بين المارة يمكن للمرء أن يرى الحجارة المرصوفة بانتظام الخاصة بممر العربات. هناك كانت العربات على العجلات العالية الدقيقة تسحبها خيول ذات أعناق مقوسة. كان الناس الجالسون على راحتهم على

المقاعد المنجّدة يحدّقون بصمت في المارة، والمحلات التجارية، والشرفات، والسماء. وإذا حدث أن اجتازت عربةٌ ما عربةً أخرى، عندها فإن الخيول ستمضي باتجاه بعضها البعض، وتكون أشرطة اللجام متدلية. وبينما كانت الحيوانات مربوطة على العوارض، انطلقت العربة إلى الأمام، تتمايل وهي تزداد سرعة، حتى يكتمل الانحراف حول العربة وتتفرق الخيول عن بعضها مرة أخرى، ما عدا رؤوسها الهادئة الضيقة تميل تجاه بعضها البعض.

جاء بعض الناس بسرعة نحو المدخل الأمامي، وتوقفوا عند الرصيف الفسيفسائي الجاف، وهم يدورون في المكان ببطء، وقفوا يحدقون في المطر، الذي، وهو يتركّز في هذا الشارع الضيق، كان يتساقط دونما انتظام.

شعر رابان بالتعب. وكانت شفتاه شاحبتين شحوب اللون الأحمر المتلاشي لرباطه السميك، الذي كان ذا نمط مغاربي. السيدة بجانب عتبات الباب هناك، التي كانت حتى اللحظة تتأمل في حذائها، الذي كان واضحاً تماماً تحت تنورتها المسحوبة بإحكام، كانت تنظر إليه الآن. فعلت ذلك بلا مبالاة، وهي ربما كانت، في أي حال من الأحوال، تنظر فقط إلى تساقط الأمطار أمامه أو على لوحات أسماء الشركات المثبّتة على الباب فوق رأسه. اعتقدَ رابان بأنها بدت مندهشة. فكّرَ، «حسناً»، إذا كنتُ قادراً على أن أخبرها القصة الكاملة، لتوقفت عن الاندهاش. فالمرء يعمل بشكل محموم في المكتب لدرجة أنه بعد ذلك يصبح متعباً جداً بحيث لا يمكنه التمتع بالعُطَل كما ينبغي. لكن حتى كل هذا العمل لا يعطي الشخص زعماً بضرورة أن يعامله الكل بمحبة؛ على العكس من ذلك، المرء وحيد، غريب تماماً وهذا موضوع يبعث على الفضول ليس إلاّ. وطالما كنتَ تقول «امرُؤٌ» بدلاً من «أنا»، لا شيء في ذلك، ويمكن للمرء أن يسرد القصة بسهولة؛ ولكن بمجرد أن تعترف لنفسك بأن ذلك هو أنت بنفسك، فستشعر كما لو أنك مذهول، وعندها ستصاب بالرعب».

وضعَ الحقيبة ذات الغطاء المصنوع من القماش المربّع، وهو يحني ركبتيه أثناء قيامه بذلك. كانت مياه الأمطار تجري على طول حافة طريق العربات على شكل شرائط غالباً ما امتدت إلى المزاريب المنخفضة.

«لكن عندما أميّز بنفسي بين 'المرء' و'أنا'، فكيف أجرؤ عندئذ أن أشكو من الآخرين؟ ربما أنهم ليسوا ظالمين، ولكنني متعب جداً بحيث لا أقوى على استيعاب كل هذا. كما أنني متعب جداً لدرجة لا يمكنني المشي على طول الطريق إلى المحطة من دون مشقة، وهي مجرد مسافة قصيرة ليس إلاّ. لذلك لماذا لا أبقى في المدينة أثناء هذه العُطَل القصيرة، من أجل فترة نقاهة؟ كم أنا غير منطقيّ! ـ ستجعلني الرحلة أمرض، أعرف ذلك تماماً. فغرفتي ليست مريحة بما فيه الكفاية، يمكن أن تكون خلاف ذلك في الريف. كما أننا بالكاد في النصف الأول من شهر حزيران، والهواء في الريف ما يزال في كثير من الأحيان بارداً جداً. بالطبع، اتخذتُ الاحتياطات بالنسبة لملابسي، ولكن عليّ أن أنضم إلى الناس الذين يذهبون للتنزّه في وقت متأخر من المساء. ثمة برك هناك؛ يمكن للمرء أن يذهب للتنزه مشياً على طول تلك البرك. ذلك هو المكان الذي من المؤكد أنني سأصاب فيه بنزلة برد. ومن ناحية أخرى، لن أظهر إلاّ لماماً في الأحاديث؛ إذ إنني لن أكون قادراً على مقارنة هذه البركة مع برك أخرى في بلاد بعيدة أخرى، ذلك لأنني لم أسافر قط، كما أن الحديث عن القمر والشعور بالنعيم والتسلّق بطريقة مفعمة بالنشوة على أكوام الأنقاض، بعد كل هذا، هو شيء أرى نفسي إزاءه بأنني كبير السن جداً بحيث لا يمكن أن أقوم به من دون أن يضحكوا عليّ ازدراءً».

كان الناس ماضين في طريقهم برؤوس مائلة قليلاً، حملوا فوقها المظلات السوداء بقبضة مرتخية. كذلك مرت عربة بجانبهم؛ على مقعد السائق، المحشو بالقش، جلس رجل كانت ساقاه ممددتين بإهمال شديد بحيث أن إحدى

القدمين كانت تلامس الأرض تقريباً، في حين استندت الأخرى بسلام على القش وخرق القماش. بدا الأمر كما لو كان يجلس في حقل في طقس رائق. إلا أنه كان يمسك بالعنان بانتباه بحيث أن العربة، التي يصطفق عليها قضبان الحديد أحدها بالآخر، شقت طريقها بأمان خلال حركة المرور الكثيفة. على السطح المبلل للطريق يمكن للمرء أن يرى انعكاس الحديد بشكل متعرّج وببطء منسلاً من أحد صفوف الحصى إلى الآخر. كان الطفل الصغير بجانب السيدة قبالته يرتدي مثل خمّار قديم؛ إذ شكّل لباسه المجعّد دائرة كبيرة عند الحاشية وتمّ رفعه، تقريباً تحت الإبطين بالضبط، بحزام جلدي. ونزلت قبعته نصف الكروية حتى حاجبيه، وثمة شرّابة تدلت من الأعلى حتى أذنه اليسرى. كان مسروراً بالمطر. ركض خارجاً من المدخل، ونظر بعينين مفتوحتين على وسعهما إلى السماء من أجل الفوز بالكثير من ذلك المطر. وغالباً ما كان يقفز عالياً في الهواء بحيث بلّل منه الماء قدراً كبيراً فيما كان المارة يقرّعونه أيما تقريع. ثم دعته السيدة ومسكته من اليد... مع ذلك لم يبكِ.

انطلق رابان. ألم يكن الوقت متأخراً؟ ولأنه ارتدى معطفه الخفيف وسترته مفتوحة، فقد أخرج بسرعة ساعته. لم تكن تعمل. وبانفعال سأل أحد الجيران، الذي كان يقف أبعد قليلاً إلى الوراء في المدخل، عن الوقت. كان هذا الرجل مشغولاً في محادثة، وبينما كان ما يزال يضحك مع صاحبه، قال: «بالتأكيد. تعدّت الساعة الرابعة»، وانصرف.

رفع رابان مظلته بسرعة والتقط حقيبته. ولكن عندما كان على وشك الدخول إلى الشارع، اعترضت طريقه عدة نساء كنّ في عجلة من أمرهن وسمح لهن بالمرور أولاً. وهو يقوم بذلك أخذ ينظر في قبعة طفلة صغيرة، مصنوعة من القش الأحمر المضفور ولها إكليل صغير أخضر على حافتها المتموجة.

ومضى يتذكر هذا حتى عندما كان في الشارع، الذي ارتفع قليلاً في الاتجاه

الذي كان يرغب في اتخاذه. ثم نسي ذلك، والآن عليه أن يبذل جهده قليلاً؛ فحقيبته الصغيرة لم تكُ خفيفة جداً، والريح كانت تهبّ مستقيمة ضده، مما يجعل معطفه يرفرف والأسلاك الأمامية لمظلته تنحني.

كان عليه أن يتنفس بعمق أكثر. ثمة ساعة في ساحة قريبة إلى الأمام دقت الساعة الخامسة إلاّ ربعاً؛ وتحت المظلة رأى الخطوات القصيرة الخفيفة للناس القادمين نحوه؛ وعجلات العربات أصدرت صريراً عند استخدام الفرامل، وأصبحت بطيئة أكثر، ومدّت الخيول قوائمها الأمامية الرقيقة، متجاسرة كحيوانات الشامواه في الجبال.

ثم بدا لرابان بأنه سيعاني من الفترة الطويلة المزعجة للأسبوعين القادمين أيضاً. لذلك لم تكن سوى أسبوعين، بمعنى آخر، فترة محدودة، وحتى لو أصبحت المضايقات أكبر من أي وقت مضى، مع ذلك، فإن الوقت الذي كان على المرء أن يصبر فيه سصبح أقصر فأقصر. وهكذا، من المؤكد أن الشجاعة ستزداد. «كل الناس الذين يحاولون تعذيبي، والذين قد احتلوا الآن كامل المساحة من حولي، سيرجعون إلى الوراء بشكل تدريجيّ تماماً بفعل المرور الرحيم لهذه الأيام، دون الحاجةِ إلى مساعدتهم حتى في أقل تقدير. ولأن هذا الأمر سوف يحدث بشكل طبيعي تماماً، يمكن أن أكون ضعيفاً وهادئاً وأرى كل شيء يحصل لي، ومع ذلك لا بد أن يتحول كل شيء إلى خير ما يرام، عبر الحقيقة المطلقة لمرور الأيام.

«وعلاوة على ذلك، ألا يمكن لي أن أفعل ذلك بالطريقة التي كنت دائماً أفعلها عندما كنت طفلاً في المسائل التي كانت خطرة؟ لا حاجة لي للذهاب إلى الريف بنفسي، فهذا ليس ضرورياً. سوف أرسل جسدي المكسو بالملابس. عندما يترنح وهو يخرج من باب غرفتي، فإن الترنّح لا يشير إلى الخوف بل إلى تفاهة ذلك الجسد. كما أنه ليس علامة على الإثارة عندما يتعثر على الدرج، وعندما يسافر إلى البلاد، منتحباً وهو يمر، وهناك يأكل عشاءه مغمّساً

بالدموع. لأنني شخصياً في هذه الأثناء أرقد في سريري، تغطيني بيسر بطانية صفراء بنية، وأتعرض للنسيم الذي هبّ خلال تلك الغرفة التي نادراً ما يدخلها الهواء. العربات والناس في الشارع يتحركون ويمشون بتردد على أرض مشرقة، لأنني ما زلت أحلم. الحوذيون والمشاة خجولون، وفي كل خطوة يريدون أن يخطوها يسألونني عن إسداء جميل لهم، عن طريق النظر إليّ. أنا أشجّعهم ولا أواجه أي عائق.

«بينما أنا أرقد في السرير فإنني أفترض شكل خنفساء كبيرة، خنفساء الأيل أو جُعْل كبير، حسبما أعتقد».

أمام نافذة دكان، فيه، خلف لوح زجاجي رطب، كانت تُعرض قبعات صغيرة للرجال على أوتاد صغيرة، توقّفَ وأخذ يتفحّص، وشفتاه مزمومتان. «حسناً، ما تزال قبعتي صالحة لأيام العطل»، فكّر واستمر في سيره، «وعندما لا يسعُ أحد تحمّلي بسبب قبعتي، عندئذ يكون هذا أفضل.

«نعم، إنه شكل خنفساء كبيرة. ثم سأدّعي بأن هذا كان مجرد مسألة سبات، وسأضغط بساقيّ الصغيرتين على بطني المنتفخة. وسأهمس ببضع كلمات، تعليمات حزينة إلى جسدي، الذي يقف على مقربة مني، منحنياً. وقريباً سأكون قد انتهيتُ ـ ينحني، يذهب برشاقة، وسوف يدبّر كل شيء بكفاءة بينما أستريح أنا».

جاء إلى قوس مقبّب في الجزء العلوي من الشارع شديد الانحدار، يؤدي إلى مربع صغير كان يوجد حوله عدد من المحلات التجارية، المضاءة. في منتصف المربع، المحجوب نوعاً ما بفعل الضوء حول الحافة، كان ثمة نصب منخفض، وهو الشخصية المتأملة الجالسة لرجل. تحرك الناس عبر الأضواء مثل مصاريع ضيقة، ولأن البرك نشرت كل تألق في جميع الأماكن، فإن الساحة بدت تتغير دون توقف.

ذهب رابان بعيداً في الساحة، ولكن بشكل متأرجح، متملّصاً من العربات السائرة، وهو يقفز من حصاة جافة إلى المزيد من الحصى الجاف، حاملاً مظلته المفتوحة عالياً في يده من أجل أن يرى كل شيء حوله. أخيراً، توقّف بجانب عمود إنارة ـ وهو مكان حيث توقفَ الترام الكهربائي ـ القائم على قاعدة خرسانية صغيرة مربعة.

«لكنهم يتوقعون بأنني في الريف. ألا يتساءلون عني في هذا الوقت؟ مع ذلك، فأنا لم أكتب لها طيلة الأسبوع الذي كانت فيه في الريف، حتى هذا الصباح. لذلك سوف ينتهون بتخيّل أن مظهري أيضاً مختلف تماماً. قد يعتقدون بأنني أنطلق إلى الأمام عندما أخاطب شخصاً، رغم ذلك ليست تلك طريقتي على الإطلاق، أو أنني أعانق الناس عند وصولي، وذلك شيء لا أقوم به أيضاً. سأجعلهم يغضبون إذا حاولت تهدئتهم. أوه، ليتني تمكّنتُ فقط من جعلهم يغضبون تماماً في محاولتي لتهدئتهم».

في تلك اللحظة مرّت عربة مفتوحة، لم تك مسرعة؛ وخلف مصباحيها المضيئين يمكن أن تُرى سيدتان جالستان على مقاعد جلدية داكنة. إحداهما كانت منحنية إلى الخلف، ووجهها يُخفية حجاب وظلال قبعتها. لكن السيدة الأخرى كانت تجلس مستقيمة كالسهم؛ كانت قبعتها صغيرة، يحدّها ريش رقيق. وكل شخص باستطاعته أن يراها. كانت شفتها السفلى مسحوبة قليلاً داخل فمها.

وبمجرد أن العربة عبرت رابان، فإن قضيباً منع رؤية الحصان القريب الذي يجرّ العربة؛ ثم حوذي ـ يرتدي قبعة كبيرة ـ على صندوق عالٍ بشكل غير مألوف عبرَ من أمام السيدتين ـ كان هذا الآن أبعد بكثير ـ توجهتْ بعد ذلك عربتهم حول زاوية منزل صغير أصبح الآن مرئياً بشكل لافت للنظر، وتوارتْ عن الأنظار.

تبعها رابان بنظراته، وهو مطأطئ الرأس، واضعاً مقبض مظلته على كتفه من

أجل أن يرى بشكل أفضل. وكان قد وضع إبهامه الأيمن في فمه وفرك أسنانه به. كانت حقيبته بجانبه، أحد جانبيها على الأرض.

أسرعت العربات من شارع إلى شارع عبر الساحة، واندفعت أجسام الخيول أفقياً كما لو أنها كانت محلّقة في الهواء، لكن تمايل الرأس والرقبة أظهر إيقاع وجهد الحركة.

في كل مكان، على حواف أرصفة جميع الشوارع الثلاثة التي تلتقي هنا، كان هناك العديد من العاطلين متحلّقين حول المكان، وهم ينقرون على الحصى بالعصي الصغيرة. ومن بين المجموعات التي شكّلوها ثمة أبراج صغيرة كانت الفتيات فيها يصببن عصير الليمون، ثم ساعات شارع ثقيلة على قضبان رقيقة، بعد ذلك رجال يرتدون من أمامهم ومن ورائهم لافتات كبيرة معلنة التسالي بحروف متعددة الألوان، ثم رُسُل... [صفحتان مفقودتان]... تجمع اجتماعي صغير. عربتان أنيقتان شخصيتان، تسيران قطرياً عبر الساحة في الشارع المؤدي إلى المنحدر، ووصلتا إلى طريق بعض السادة من الرجال من هذه الحفلة، لكن بعد العربة الثانية ـ وحتى بعد الأولى حاولوا على استحياء القيام بذلك ـ هؤلاء السادة تشكّلوا في مجموعة مرة أخرى مع الآخرين، الذين صعدوا معهم على الرصيف في موكب طويل وشقّوا طريقهم خلال باب مقهى، غارق في ضوء المصابيح المتوهجة المعلقة فوق المدخل.

مرّتْ عربات الترام الكهربائية، ضخمة وقريبة جداً؛ ووقفت عربات أخرى، وهي مرئية بشكل غير واضح، [وقفت] بلا حراك بعيداً في الشوارع.

«كم منحنية هي»، فكّر رابان عندما نظر في الصورة الآن. «إنها لم تك مستقيمة حقاً، وربما كان ظهرها مقوّساً. يجب عليّ أن أعير انتباهاً كبيراً لهذا. فمها واسع جداً، وهنا، بلا شك، تبرز الشفة السفلى، نعم، الآن أتذكر ذلك أيضاً. ويا له من ثوب! بطبيعة الحال، أنا لا أعرف أي شيء عن الملابس، لكن هذه

الأكمام الضيقة جداً قبيحة؛ أنا على يقين، فهي تبدو مثل الضمادات. والقبعة، فإن الحافة عند كل نقطة تحوّلت عن الوجه بمنحنى مختلف. لكن عينيها جميلتان، فهما بنيتان، إن لم أكن مخطئاً. كل شخص يقول بأن عينيها جميلتان».

الآن توقفتْ سيارة ترام كهربائي أمام رابان واندفع كثير من الناس حوله نحو الدرجات، بمظلاتهم المفتوحة قليلاً، والمستدقة، التي حملوها بشكل مستقيم حيث كانت أيديهم تضغط على أكتافهم. كان رابان، الذي يمسك حقيبته تحت ذراعه، ابتعد عن الرصيف وخطى بقوة في بركة غير مرئية. داخل الترام ركع طفل على مقعد، ضاغطاً بأطراف أصابعه على شفتيه كما لو أنه كان يقول وداعاً لشخصٍ ما ذاهب بعيداً. خرج بعض المسافرين وتحتّمَ عليهم السير بضع خطوات على طول الترام من أجل أن يشقّوا طريقهم للخروج من الزحام. بعدها قفزت سيدة على الدرجة الأولى، تنورتها الطويلة، التي شدّتها إلى أعلى بكلتا يديها، امتدت بإحكام حول ساقيها. ثمة سيد يمسك بقضيب من النحاس وبرأس مرفوع، روى شيئاً للسيدة. كل الناس الذين يريدون أن يصلوا كانوا غير صبورين. صاح الجابي.

رابان، الذي وقف الآن على طرف مجموعة الانتظار، استدار حول نفسه، لشخص ما صاح باسمه.

«آه، يا لمنت»، قال ببطء ومدَّ لشابٍّ قادم نحوه بنصرَ اليد التي كان يحمل بها المظلة.

«إذاً ها هو العريس في طريقه إلى عروسه. ويبدو عاشقاً على نحو مخيف»، قال لمنت ثم ابتسم وفمه مغلق.

«نعم، لا بد أن تغفر ذهابي اليوم»، قال رابان. «كتبتُ لك هذا العصر، على أية حال. لا بد، بطبيعة الحال، أنني أعجبني كثيراً أن أسافر معك يوم غد؛ لكن غداً هو السبت، وكل شيء سيكون مزدحماً جداً، وهذه رحلة طويلة».

«أوه، هذا لا يهم. لقد قطعتَ وعداً، لكن عندما يكون المرء عاشقاً... إذن ينبغي لي أن أسافر بمفردي». وضع لمنت قدماً على الرصيف والأخرى على الحصى، مسنداً جسده آناً على ساق واحدة، وآناً على الأخرى. «ستصعد في الترام. ها هو يذهب. تعال، سنتمشّى، سأذهب معك. ما يزال أمامنا الكثير من الوقت».

«أليس الوقت متأخراً نوعاً ما، أرجوك قل لي؟»

«لا عجب أنك عصبي، لكنك حقاً لديك المزيد من الوقت. أنا لست عصبياً، وهذا هو السبب في أنني اشتقتُ إلى جلمان الآن».

«جلمان؟ ألن يقيم هناك، أيضاً؟»

«نعم، مع زوجته؛ في الأسبوع المقبل ينويان الذهاب، وهذا هو السبب في أنني وعدتُ جلمان بمقابلته اليوم عندما يغادر مكتبه. أراد أن يعطيني بعض التعليمات المتعلقة بتأثيث منزلهما، وهذا هو سبب مقابلتي له. لكن الآن أنا متأخر نوعاً ما، كان لدي بعض المهمات التي أقوم بها. وبالضبط بينما كنتُ أتساءل ما إذا كان ينبغي أن لا أذهب إلى شقتهما، رأيتك، في البداية تعجبتُ من الحقيبة، وتحدثتُ إليك. لكن الآن رحل المساء بعيداً بحيث لا يمكن القيام بالزيارات، وإنه من المستحيل إلى حد ما الذهاب إلى جلمان الآن».

«بالطبع. ولذا فإنني سأقابل أناساً أعرفهم هناك، برغم كل شيء. ليس لأنني رأيتُ السيد جلمان، برغم ذلك».

«وهي جميلة جداً. فهي شقراء، وشاحبة الآن بعد مرضها. وتمتلك أجمل عينين رأيتهما في حياتي».

«قل لي من فضلك، كيف تبدو العيون الجميلة؟ هل هي النظرة؟ لم أجد أبداً عيوناً جميلة».

«حسناً، ربما كنتُ أبالغ قليلاً. مع ذلك، فهي امرأة جميلة».

من خلال زجاج النافذة من مقهى في الطابق الأرضي، على مقربة من النافذة، يمكن رؤية السادة جالسين، يقرؤون ويأكلون، حول طاولة ذات ثلاثة جوانب؛ أحدهم كان قد وضع صحيفة على الطاولة، يرفع كأساً صغيرة، وينظر في الشارع من زوايا عينيه. ما وراء هذه الطاولات الملاصقة للنوافذ كان كل الأثاث واللوازم في المطعم الكبير مخفياً بسبب الزبائن، الذين جلسوا جنباً إلى جنب في دوائر صغيرة. [صفحتان مفقودتان]... «كما يحدث، مع ذلك، فإن هذا ليس عملاً تجارياً مزعجاً، أليس كذلك؟ فالكثير من الناس يواجهون مثل هذا العبء، حسبما أعتقد».

جاؤوا إلى ساحة مظلمة إلى حد ما، بدت على جانبهم من الشارع، لأن الجانب الآخر كان ممتداً أكثر. وعلى جانب الساحة الذي كانوا يمشون على طوله، هناك صف متواصل من المنازل، من زواياه امتدّ ـ في البداية على نحو بعيد جداً ـ صفّان من المنازل إلى مسافة غير معروفة بدت فيها هذه المنازل تتحد. كان الرصيف ضيقاً بفعل المنازل، التي كانت في معظمها صغيرة؛ ليست هناك محلات تلوح في الأفق، ولا أي عربة تمرّ. ثمة عمود من الحديد بالقرب من نهاية الشارع الذي خرجوا منه كان يحمل عدة مصابيح، كانت مثبتة في حلقتين معلقتين بشكل أفقي، إحداهما فوق الأخرى. والشعلة على شكل أرجوحة بين الصحيفتين المتصلتين من الزجاج كانت تتوهج في هذا الظلام الواسع الذي يشبه البرج وكأنها في غرفة صغيرة، جاعلة الظلام يؤكد نفسه عدة خطوات إلى الأمام.

«ولكن الآن أنا على يقين بأن الوقت متأخر؛ لقد أبقيتَ الأمر سراً عني، وسوف يفوتني القطار. لماذا؟» [أربع صفحات مفقودة]

... «نعم، في أغلب الأحيان بيركرشوفر ـ حسناً، هذا ما يستحقه».

«الاسم مذكور، كما أعتقد، في رسائل بَتي، فهو مساعد كاتب في السكك الحديد، أليس كذلك؟»

«نعم، مساعد كاتب في السكك الحديد وشخص مزعج. سترى أنني على حق بمجرد أن تأخذ لمحة لذلك الأنف السميك الصغير. أقول لك، إن المشي عبر الحقول الكئيبة مع هذا الشخص... على أية حال، تم نقله الآن وسيمضي بعيداً من هناك، كما أعتقد وأتمنى، الأسبوع المقبل».

«انتظرْ، قلتَ للتو بأنك نصحتني ان أبقى هنا هذه الليلة. لقد فكّرتُ في ذلك طويلاً؛ إذ إنه لا يمكن تدبّر ذلك جيداً. لقد كتبتُ لأقول أنا قادم هذا المساء؛ وأنهم سوف يكونون بانتظاري».

«ذلك سهل جداً، أرسلْ برقية».

«نعم، يمكن القيام به ـ لكن ذلك لن يكون لطيفاً جداً إذا لم أذهب ـ فضلاً عن أنني متعب، نعم، سأذهب سمعاً وطاعة. إذا جاءت برقية، سيتملّكه الخوف، أيضاً. ـ ولأجل ماذا، إلى أين نحن ذاهبون، على أية حال؟»

«إذن من الأفضل لك أن تذهب. كنتُ أفكر ليس إلاّ... على أية حال لا أستطيع أن أذهب معك اليوم، لأنني نعسان، فقد نسيتُ أن أخبرك بذلك. والآن سأقول لك وداعاً، لأنني لا أريد أن أذهب عبر المتنزه الرطب معك، كما أنني أودّ أن أزور بيت جلمان، مع كل هذا. الساعة السادسة إلاّ ربعاً، لذلك فالوقت ليس متأخراً، فزيارة الأشخاص الذين تعرفهم أمر جميل إلى حد ما. وداعاً. حسناً، رحلة سعيدة، وبلّغ تحياتي للجميع!»

تحوّل لمنت إلى اليمين ورفع يده اليمنى ليقول وداعاً، بحيث كان رابان للحظة يسير مقابل ذراع لمنت الممدودة.

«وداعاً». قال رابان.

من مسافة قليلة عاد لمنت عندئذ: «أقول، يا إدوارد، هل تسمعني؟ رجاءً أغلق مظلتك؛ لقد توقف المطر منذ فترة طويلة. لم يكن لدي فرصة لأخبرك».

لم يجب رابان، أغلق مظلته، وأطبقت عليه السماء من فوقه بظلام شاحب.

فكر رابان، «لو كنتُ على الأقل صعدتُ القطار الخطأ. عندها فإنه على أية حال سيبدو لي بأن المشروع بأكمله قد بدأ، وإن لاحقاً، بعد انجلاء الخطأ، سأكون قد وصلتُ إلى هذه المحطة مرة أخرى في طريق عودتي، عندئذ لا بد أنني بالتأكيد أشعر بتحسن الوضع كثيراً. وإذا تحوّل المشهد ليكون مملاً، كما يقول لمنت فإن ذلك ليس من الضروري أن يكون مضراً على الإطلاق. فالمرء يقضي المزيد من الوقت في الغرف وهو في الحقيقة لا يعرف أين يكون الآخرون، وإذا ما كان هناك خراب في منطقة، فمن المحتمل أن يسير الجميع إلى ذلك الخراب؛ إذ سيكون الأمر قد تمّ الاتفاق بشأنه قبل فترة من الزمن. ثم، مع ذلك، على المرء أن يتطلع إلى هذا؛ وللسبب نفسه على المرء ألا يفوته ذلك. لكن إذا لم يكن هناك مثل هذا المشهد، عندها لن تكون هناك مناقشة مسبقة بالمرّة، لأن الجميع من المتوقع أن يجتمعوا سوية بسهولة كبيرة إن كان ذلك فجأة، مقابل الممارسة المعتادة برمتها، ويُنظَر إلى الحملة الأكبر على أنها صائبة، لأنه لا يتوجّب على المرء سوى إرسال الخادمة إلى شقق الآخرين، حيث يجلسون بشأن رسالة أو كتب وهم مسرورون بهذه الأخبار. حسناً، ليس من الصعب حماية نفسك من هذه الدعوات. ومع ذلك لا أعرف ما إذا كنتُ قادراً على فعل ذلك، لأن الأمر ليس سهلاً كما أتصوره الآن عندما لا أزال وحدي، وبوسعي القيام بكل شيء، وبوسعي الرجوع إن أردتُ ذلك، لأنني ليس لدي أي أحد هناك من الممكن أن أزوره متى ما أشاء، وما من أحد يمكنني معه أن أقوم بحملات أكثر نشاطاً، لا أحد هناك يمكنه أن يريني كيف هو حال محاصيله أو يريني المحجر الذي

يعمل فيه. لأن المرء ليس متأكداً على الإطلاق حتى من معارفه ذوي المكانة الرفيعة. ألم يكن لمنت لطيفاً معي اليوم؟ ـ شرح لي بعض الأشياء، أليس كذلك، كما وصف كل شيء كما كان سيبدو لي. جاء وتحدّث إليّ ثم مشى معي، على الرغم من حقيقة أنّ لا شيء أراد أن يكتشفه عني، وأنه نفسه ما يزال لديه شيء آخر يقوم به. لكن الآن على حين فجأة قد غادر بعيداً، ومع ذلك لم أشأ الإساءة إليه ولو بكلمة واحدة. رفضتُ قضاء المساء في المدينة، لكن ذلك كان طبيعياً، ولم يشكّل إساءة إليه، كونه شخصاً حصيفاً».

دقّت ساعة المحطة معلنة السادسة إلاّ ربعاً. توقف رابان لأنه كان يعاني من الخفقان، ثم مشى بسرعة على طول بركة المتنزه، وذهب على طول ممر ضيق، سيئ الإنارة بين الشجيرات الكبيرة، وهرع إلى مكان مفتوح ذي عدد من المقاعد الفارغة متكئاً على أشجار صغيرة، بعدها ذهب ببطء أكثر من خلال فتحة في السور إلى الشارع، عَبَرَه، وقفز من خلال مدخل المحطة، وبعد حين وجد مكتب الحجز، وكان عليه أن يضرب لفترة على المصراع الحديدي. بعدها حذّر كاتبُ الحجز، وقال إن الوقت متأخر، وأخذ الورقة النقدية، وضرب التذكرةَ بعنف على الطاولة، تلك التذكرة التي سأله عنها وعن باقي الورقة النقدية. حاول رابان الآن حساب الباقي بسرعة، معتقداً بأنه يجب أن يحصل على أكثر من ذلك، لكن بواباً كان يسير قريباً عاجله من خلال باب زجاجي على المنصة. هناك نظر رابان حوله، وهو ينادي «شكراً لك، شكراً لك!» للبواب، ولأنه لم يجد الحرس، صعد درجات أقرب عربة بنفسه، في كل مرة يضع الحقيبة على الدرجة الأعلى ثم يصعد، مستنداً على مظلته بإحدى يديه، وعلى مقبض الحقيبة باليد الأخرى. العربة التي دخلها كانت مضاءة بشكل بهيّ بكمٍّ كبيرٍ من الضوء من القاعة الرئيسة للمحطة، التي كانت تقف فيها [تلك العربة]؛ وأمام العديد من زجاج النوافذ ـ المغلقة حتى السقف ـ ثمة مصباح قوسي يصدر صفيراً، معلّقٌ

في مستوى العين تقريباً، وكانت القطرات الكثيرة من المطر على الزجاج بيضاء، وغالباً ما كانت القطرات المفردة ستتحرك. كان بإمكان رابان سماع الضجيج الصادر من المنصة حتى عندما أغلق باب العربة وجلس على آخر جزء فارغ صغير من مقعد خشبي ذي لون بني فاتح. رأى ظهور كثير من الناس، وخلفيات رؤوسهم، وبينهم الوجوه المقلوبة للناس على المقعد المقابل. في بعض الأماكن كان الدخان يتكوّر من الغلايين والسيگار، وفي أماكن أخرى ينحرف بشكل هزيل ماراً من أمام وجه فتاة. غالباً ما كان المسافرون يغيرون الأماكن، ويناقشون هذه التغييرات مع بعضهم البعض، أو أنهم يغيّرون أمتعتهم، الموضوعة في شبكة زرقاء ضيقة فوق المقعد، إلى مكان آخر. وإذا ما برزت عصا أو زاوية حقيبة مغطاة بالمعدن، فإن صاحب الحقيبة يتمّ تنبيهه إلى هذا. فيذهب ويعيدها إلى مكانها الصحيح. تذكّرَ رابان أيضاً نفسه ودفع حقيبته تحت مقعده.

على يساره، عند النافذة، كان سيدان يجلسان قبالة بعضهما البعض، يتحدثان عن أسعار السلع. «إنهما تاجران متجولان»، فكّر رابان وبينما يتنفس بشكل اعتيادي، أخذ يحدّق فيهما. «التاجر يرسلهما إلى الريف، فيطيعان، ويسافران بالقطار، وفي كل قرية يذهبان من متجر إلى متجر. في بعض الأحيان يسافران بالعربة بين القرى. لا بد أنهما لا يقيمان طويلاً في أي مكان، لأن كل شيء لا بد أن يتم بسرعة، ولا بد أنهما دائماً لا يتحدثان إلاّ عن بضائعهما. فبأيما متعة، إذن، يمكن للمرء أن يبذل قصارى جهده في مهنة مقبولة جداً!»

كان الرجل الأصغر سناً قد أخرج دفتر ملاحظات من الجيب الخلفي لسرواله، وبسرعة تصفّح الأوراق بالسبابة التي بلّلها بلسانه، ثم أخذ يقرأ في إحدى الصفحات، وهو يسحب الجزء الخلفي من ظفره إلى أسفلها بينما كان ماضياً في القراءة. تطلّع في رابان بينما كان يحملق وبالفعل، عندما بدأ الآن بالحديث عن موضوع أسعار الخيوط، لم يحوّل وجهه بعيداً عن رابان،

كما لو أن المرء يحدّق بثبات عند نقطة من أجل ألا ينسى أي شيء مما يريد أن يقوله. وفي الوقت نفسه شدّ حاجبيه بقوة على عينيه. وحمل دفتر الملاحظات نصف المغلق بيده اليسرى، وهو يضع إبهامه على الصفحة أخذ يقرأ، من أجل أن يكون قادراً على الرجوع إليه بسهولة إذا توجّب عليه ذلك. واهتزّ دفتر الملاحظات، لأنه لم يسند ذراعه على أي شيء، والعربة، التي كانت الآن تسير، اصطدمت بالقضبان مثل المطرقة.

جلس المسافر الآخر منحنياً إلى الوراء، يصغي ويومئ على فترات منتظمة. بدا من الواضح أنه كان بعيداً عن الاتفاق مع كل شيء وفي وقت لاحق من شأنه أن يعطي رأيه الخاص.

وضع رابان راحة يديه على ركبتيه وبينما يميل إلى الأمام، بين رؤوس المسافرين رأى النافذة ومن خلال النافذة [رأى] الأضوية تتذبذب و[رأى] الآخرين يبتعدون في المدى. لم يفهم شيئاً مما كان يتحدّث عنه المسافر، ولم يفهم أيضاً جواب المسافر الآخر. فالأمر يتطلب أولاً الكثير من الاستعداد، فهؤلاء أناس مهتمون بالسلع منذ شبابهم. ولكن إذا حملَ أحدهم بكرة خيط في يده في كثير من الأحيان وسلّمها إلى أحد الزبائن في أحيان كثيرة، عندها يعرف المرء السعر ويمكنه الحديث عنه، في حين تأتي القرى نحونا وتمرّ مسرعة، بينما في الوقت نفسه ينصرفون بعيداً في أعماق البلاد، حيث بالنسبة لنا لا بد أن تختفي. ومع ذلك هذه القرى مأهولة، وربما هناك مسافرون يتنقلون من متجر إلى آخر.

في زاوية، في النهاية البعيدة من العربة، وقف رجل طويل القامة، يحمل ورق اللعب في يده، وصاح:

«أقول، ماري، هل حزمتِ القمصان الخفيفة؟»

«بالطبع فعلت ذلك»، قالت المرأة التي كانت تجلس قبالة رابان. كانت

تغفو، والآن عندما أيقظها السؤال أجابت كما لو أنها كانت تتحدث مع نفسها أو مع رابان. «أنت ذاهب إلى السوق في جونغبنزلاو، إيه؟» سألها المسافر النشيط. «جونغبنزلاو، هذا صحيح». وأضاف «إنه سوق كبير هذه المرة، أليس كذلك؟» «سوق كبير، هذا صحيح». كان يغلبها النعاس، أسندت مرفقها الأيسر على حزمة زرقاء، وانخفض رأسها بشدة نحو يدها، التي انضغطت خلال لحم الخد على عظمة الوجنة. «يا لها من شابة»، قال المسافر.

أخرج رابان النقود التي استلمها من أمين الصندوق من جيب صدريته وعدّها. كان يمسك بكل قطعة معدنية بقوة بين الإبهام والسبابة لفترة طويلة، وكذلك كان يلويها بهذه الطريقة أو تلك على السطح الداخلي لإبهامه بطرف سبابته. أخذ يتطلع لفترة طويلة في صورة الإمبراطور، ثم هاله إكليل الغار والطريقة التي تم تثبيته بعُقَد وأقواس الشريط في الجزء الخلفي من الرأس. أخيراً وجد أن المبلغ صحيح ووضع النقود في محفظة سوداء كبيرة. لكن الآن عندما كان على وشك أن يقول للمسافر: «إنهما زوجان، ألا تظن ذلك؟» توقفَ القطار. وتوقفَ ضجيج الرحلة، وصاح الحراس باسم المكان، ولم يفه رابان ببنت شفة.

بدأ القطار مرة أخرى ببطء شديد بحيث يمكن للمرء أن يصوّر دوران العجلات، ولكن بعد لحظة أخذ يسرع على منحدر، وبشكل غير متوقع تماماً تمزّقت الأسوار الطويلة للجسر، خارج النوافذ، وانضغطت معاً، كما بدت للعيان.

كان رابان الآن مسروراً بأن القطار يسير بسرعة كبيرة، لأنه لا يرغب في البقاء في المكان الأخير. «عندما يحلّ الظلام هناك، وعندما لا يعرف المرء أحداً هناك، وعندما يكون مثل هذا الطريق الطويل إلى البيت. ولكن عندها لا بد أن يكون الأمر هناك فظيعاً في النهار. لكن الأمر يكون مختلفاً في المحطة التالية أو في المحطات السابقة أو في المحطات اللاحقة أو في القرية التي أنا ذاهب إليها؟»

أخذ المسافر يتحدث فجأة بصوتٍ عالٍ. فكّر رابان، «ما يزال أمامنا طريق طويل. سيدي، أنت تعرف تماماً مثلما أعرف، أن هؤلاء المصنّعين يرسلون مسافريهم إلى أكثر القرى الصغيرة كآبة، فهم يذهبون زحفاً إلى أرذل أصحاب المحال التجارية القليلة، وهل تظن بأنهم يعرضون عليهم أسعاراً مختلفة عن تلك التي يعرضونها علينا نحن رجال الأعمال الكبار؟ سيدي، خذْها مني؛ بالضبط الأسعار نفسها، بالأمس فقط رأيتُ الأمر أكثر سوءاً. أسميها نذالة. إنهم يمتصون وجودنا؛ ففي ظل الظروف الحالية يستحيل علينا ببساطة القيام بأعمال تجارية».

تطلّع مرة أخرى في رابان؛ لم يستحِ من الدموع في عينيه؛ ضغطَ أصابع يده اليسرى على فمه لأن شفتيه ترتعشان. انحنى رابان إلى الخلف وسحب بشكل ضعيف شاربه بيده اليسرى.

نهضت صاحبة الدكان التي كانت قبالتنا ومرّرت يديها مبتسمة على جبينها. كان المسافر يتحدث بهدوء أكثر. مرة أخرى تحولتْ المرأة كما لو أنها ترتب أمرها للنوم، وتنهّدت بينما كانت نصف مضطجعة على حزمتها. انسحبت التنورة ضاغطة أكثر على وركها الأيمن.

جلس خلفها رجل يعتمر قبعةَ سفرٍ على رأسه، يقرأ جريدة كبيرة. الفتاة قبالته، التي ربما كانت إحدى قريباته، حثّتْه ـ وهي في الوقت نفسه تميل برأسها نحو كتفها الأيمن ـ لفتح النافذة، لأن الجو كان حاراً جداً جداً. قال، من دون أن يرفع طرفه، بأنه سيفعل ذلك في لحظة، إلاّ أن عليه أولاً الانتهاء من قراءة مقال في الجريدة، وأظهر لها المقال الذي قصده.

لم تستطع صاحبة الدكان الخلود إلى النوم مرة أخرى؛ جلست منتصبة وتطلّعت عبر النافذة؛ ثم لفترة طويلة نظرت إلى المصباح الزيتي وإلى اللهب المشتعل بلون أصفر بالقرب من سقف العربة. أغلق رابان عينيه لبرهة.

عندما حملق إلى الأعلى، كانت صاحبة الدكان تقضم لتوّها قطعة من الكعكة

المغطاة بالمربى البني. كانت الحزمة المجاورة لها مفتوحة. وكان المسافر يدخّن سيگاراً بصمت ومستمراً بحركات عصبية كما لو كان ينفض الرماد بعيداً عن نهايته. أما الآخر فكان يبحث عن الأجزاء المتحركة لساعةِ جيبٍ بطرف سكين، بحيث يمكن للمرء أن يسمع السكين وهي تكشط. وبعينيه المغمضتين تقريباً كان رابان ما يزال لديه الوقت ليرى، وبطريقة مشوّشة، قام الرجل المعتمر قبعة السفر بسحب حزام النافذة. جاءت هناك نفحة من هواء بارد، فسقطت قبعة القش من الخطاف. اعتقد رابان بأنه كان مستيقظاً وهذا هو السبب في أن وجنتيه كانتا منتعشتين جداً، أو أن شخصاً ما كان يفتح الباب ويسحبه [أي رابان] إلى داخل الغرفة، أو أنه كان نوعاً ما مخطئاً بشأن الأشياء، وهو يتنفس بعمق، سرعان ما سقط نائماً.

II

كانت درجات الحافلة ما تزال تهتز قليلاً عندما ترجّل رابان منها. وفي وجهه، الخارج من هواء الحافلة، ضربه المطر، ولذلك أغلق عينيه. كانت السماء تمطر بشكل صاخب على سطح الحديد المموج لبناية المحطة، لكن في الخارج في الريف المفتوح سقط المطر بحيث بدا مثل هبوب رياح غير منقطعة. جاء صبي حافي القدمين يركض صاعداً ـ لم يرَ رابان من أين جاء ـ وطلب بأنفاس مبهورة من رابان السماح له بحمل الحقيبة، لأنها كانت تمطر؛ لكن رابان قال: نعم، إنها تمطر، وبالتالي فإنه سيستقلّ الباص. وقال بأنه لم يكن بحاجة إلى هذا الصبي. على إثر ذلك عبس الصبي كما لو أنه اعتقد بأن المشي تحت المطر وحمل المرء حقيبته لأروع من الذهاب بالباص، وتحوّل على الفور وركض بعيداً. وعندما أراد رابان أن يناديه، كان الأوان قد فات.

كان ثمة مصباحان مضاءان، وخرج مسؤول المحطة من الباب. ودون تردد

مشى خلال المطر إلى الماكينة، وقف هناك بلا حراك وذراعاه مطويتان، وانتظرَ حتى انحنى سائق الماكينة على القضبان وتحدّثَ إليه. نودي بطلب بوّاب، وجاء، وطُلب منه الرجوع مرة أخرى. في العديد من النوافذ في القطار كان هناك مسافرون واقفون، ولأن ما كان عليهم أن ينظروا إليه هو مجرد محطة اعتيادية للسكك الحديدية فإن تحديقهم ربما كان معتماً، والجفون قريبة من بعضها البعض، كما لو أن القطار كان يتحرك. جاءت فتاة مسرعة من الطريق إلى المنصة تحت مظلة مورّدة؛ وضعت المظلة المفتوحة على الأرض وجلست، دافعة بساقيها عن بعضهما البعض من أجل أن تجف تنورتها بشكل أفضل، ومرّرت أطراف أصابعها على التنورة الضيقة. لم يكن هناك سوى مصباحين مضاءين؛ لذا لم يكن بالإمكان تمييز وجهها. جاء البواب واشتكى من أن البُرَك كانت تتشكل تحت المظلة؛ رفعَ ذراعيه على شكل نصف دائرة أمامه بغية توضيح حجم هذه البُرَك، ثم حرّك يديه في الهواء، الواحدة تلو الأخرى، كأسماك تخوض في مياه عميقة، من أجل التوضيح بأن حركة المرور أيضاً تعرقلت بسبب المظلة.

غذّ القطار السير، واختفى كأنه باب طويل متحرك على منزلق، وخلف أشجار الحور على الجانب البعيد من خط السكة الحديد كان هناك المشهد، ضخماً جداً بحيث يخلب اللب. هل كان هذا منظراً مظلماً عبر فجوة أو هل كان غابة، هل كان بركة، أم منزلاً كان فيه الناس نيام، هل كان برج كنيسة أم وادياً بين التلال؟ لا بد أن لا يتجرّأ أي شخص على الذهاب إلى هناك، ولكن مَن يتمكن أن يضبط نفسه؟

وعندما لمحَ رابان مسؤول المحطة ـ كان يهمّ بالصعود إلى مكتبه ـ ركض أمامه واستوقفه: «اسمح لي، من فضلك، هل المسافة بعيدة عن القرية؟ فذلك هو المكان الذي أريد أن أذهب إليه».

«لا، ربع ساعة، ولكن بالباص ـ لأنها تمطر ـ ستصل إلى هناك في غضون خمس دقائق».

«إنها تمطر. ليس ربيعاً جميلاً جداً»، قال راب. وكان المسؤول قد وضع يده اليمنى على وركه، ومن خلال المثلث الذي شكّله الذراع والجسم رأى رابان الفتاة، التي كانت قد أغلقت الآن المظلة، على المقعد الذي تجلس عليه.

«عندما يذهب المرء في عُطَله الصيفية الآن، وينوي البقاء هناك، فإنه لا يسعه إلاّ أن يأسف على ذلك. في الواقع اعتقدتُ بأنه لا بد أن يقابلني شخص ما». نظر حوله لجعل الأمر يبدو معقولاً.

«أخشى أن يفوتك الباص. فهو لا ينتظر وقتاً طويلاً. لا شيء تشكرني عليه. ذلك هو الطريق، بين الأسيجة». كان الطريق خارج محطة السكك الحديد غير مضاء؛ إذ ليس هناك سوى ثلاث نوافذ في الطابق الأرضي من المبنى كان يأتي منها وميض ضبابي، لكنه لا يمتد بعيداً. مشى رابان على رؤوس الأصابع عبر الطين وصاحَ «سائق»! و«مرحبا بك!» و«باص»! و«إنني هنا!» مرات عديدة. لكن عندما هبط بين البرك المستمرة على الجانب المظلم من الطريق، كان عليه أن يغذ الخطى إلى الأمام بكعبيه المتجهين إلى الأسفل، حتى فجأة لامست جبينَه كمامةُ الحصان الرطبة.

ها هو ذا الباص؛ لذلك قفز بسرعة إلى مقصورة فارغة، جلس بجانب زجاج النافذة وراء غرفة السائق، وحنى ظهره في الزاوية، لأنه قد فعل كل ما هو ضروري. فإذا نام السائق، فإنه سيستيقظ قبيل الصباح؛ وإن مات، عندها سوف يأتي سائق آخر، أو صاحب الحانة، ويجب أن لا يحدث أي منهما، ثم سيأتي الركاب بقطار الصباح الباكر، وبسبب عجلة الناس، ستصدر الضوضاء. على أية حال، يمكن أن يكون المرء هادئاً، يمكن للمرء أن يسحب الستائر على النوافذ وينتظر الهزّة التي لا بد أن تبدأ بها العجلة.

«نعم، بعد كل الذي أنجزته بالفعل، فمن المؤكد أنني غداً سأصل إلى بَتي

وماما؛ إذ لا أحد يستطيع أن يمنع ذلك. مع ذلك فمن الصحيح، ومن المتوقع فعلاً، بأن رسالتي لن تصل إلاّ غداً، لذلك ربما أكون قد بقيتُ في المدينة وأمضيتُ ليلة جميلة في بيت القي، من دون أن أخشى من عمل اليوم التالي، وهو الشيء الذي يدمّر بشكل أو بآخر كل بهجة بالنسبة لي. لكن انظر، لقد تبلّلت قدماي».

أشعلَ كعبَ شمعةٍ كان قد أخرجها من جيب صدريته ووضعها على المقعد المقابل. كانت ساطعة بما فيه الكفاية، جعلها الظلام في الخارج تبدو كما لو أن للباص جدراناً مشوشة سوداء بلا زجاج في النوافذ. لا حاجة للتفكير بأن هناك عجلات تحت الأرض وأمام الحصان بين الأعمدة. فرك رابان قدميه بشكل كامل على المقعد، وارتدى جوارب نظيفة، وجلس منتصباً. ثم سمع شخصاً من المحطة يصرخ: «مرحبا!» إذا كان هناك أي شخص في الحافلة ربما يقول كذلك. «نعم، نعم، وكان يود أن يبدأ الآن، أيضاً»، أجاب رابان، وهو يميل خارج الباب، الذي كان قد فتحه، متشبثاً بعضادة الباب بيده اليمنى، فيما كانت اليد اليسرى مفتوحة، على مقربة من فمه.

نزل المطر خلف رقبته، داخل ياقته.

وهو يلفّ نفسه بقماش جنفاص مأخوذ من كيسين جرى تقطيعهما، جاء السائق، وانعكاس فانوسه المستقر يقفز خلال البرك عند قدميه. وبانفعال بدأ يُعطي تفسيراً: أصغِ هنا، قال، كان يلعب الورق مع لبيدا وكانا منسجمين جداً عندما جاء القطار. وكان من المستحيل حقاً بالنسبة له إلقاء نظرة إلى الخارج في ذلك الحين، مع ذلك، هو لم يقصد الإساءة إلى أي شخص لم يفهم ذلك. بغض النظر عن ذلك، كان هذا المكان هنا نفاية قذرة، وليست هناك أية حلول، ومن الصعب أن نرى ما هو العمل الذي يمكن أن يقوم به رجل نبيل كهذا هنا، وأنه سوف يصل إلى هناك في وقت قريب جداً على أية حال، لذلك ليس من الضروري الذهاب والشكوى في أي مكان. والآن فقط السيد بيركرشوفر - من

فضلك، ذلك هو مساعد الكاتب الصغير ـ قد دخل وقال بأنه اعتقد بأن رجلاً أشقر صغيراً كان يريد أن يذهب بالباص. حسناً، لذلك جاء حالاً وسأل، أو ألم يأتِ حالاً ويسأل؟

كان الفانوس معلقاً بنهاية العمود؛ والحصان، بعد أن صاحوا به بصوت مخنوق، بدأ ينسحب، والماء على أعلى الباص، الذي بدأ الآن يتحرك، أخذ يقطر ببطء خلال شقّ في العربة.

ربما كان الطريق كثير التلال؛ إذ إن هناك بالتأكيد طيناً يتطاير إلى شعاع العجلات؛ وتشكّلت مراوح من ماء البرك، بصوت مندفع، وراء العجلات الدائرة؛ إذ إن السائق كان بالنسبة للجزء الأكبر يقود الحصان المتصبّب بأعنّة مرتخية. ـ ألا يمكن استخدام كل هذا كتقريع ضد رابان؟ كانت الكثير من البرك مضاءة بشكل غير متوقع بالفانوس الذي يرتجف على العمود، ومنقسمة، على شكل تموجات، تحت العجلة. حدث هذا فقط لأن رابان كان مسافراً إلى خطيبته، إلى بَتي، وهي فتاة تقليدية جميلة. ومَن، لو قيّض للمرء أن يتحدث عن ذلك على الإطلاق، سيقدّر ما كان رابان يمتلكه من مزايا، حتى لو كان فقط في احتماله لكل تلك التقريعات، التي من المؤكد أن لا أحد يمكن أن يفعلها علناً. بالطبع إنه كان يقوم بذلك برحابة صدر. كانت بَتي خطيبته، وكان مولعاً بها، وسيكون من المثير للاشمئزاز لو شكرتْه على ذلك أيضاً، ولكن كل ذلك سيّان ـ ...

ودون قصد، كان في كثير من الأحيان يضرب رأسه على اللوحة التي كان يتّكئ عليها، ثم لبعض الوقت أخذ يتطلع في السقف، إذ انزلقت يده اليمنى إلى الأسفل من فخذه، حيث كان يسندها. لكن مرفقه بقي في الزاوية بين البطن والساق.

كان الباص الآن يمرّ بين المنازل؛ هنا وهناك كان داخل العربة تأتيه حصة من الضوء من الغرفة؛ ثمة درجات ـ ومن أجل رؤية مقدّمتها اضطر رابان إلى

الوقوف ـ موصولة إلى الكنيسة؛ إذ كان خارج بوابة الحديقة مصباح يتوهج بلهب كبير، لكن تمثال قديس برز في النقش البارز الأسود فقط بسبب الضوء القادم من محل البزّاز، ورأى رابان شمعته، التي احترقت عن آخرها، وبقايا الشمع تتدلى من المقعد.

عندما توقف الباص خارج الحانة، وكان بالإمكان سماع المطر بصوتٍ عالٍ و- ربما كانت هناك نافذة مفتوحة ـ وكذا كان بالإمكان سماع أصوات الضيوف، تساءل رابان أيّ من شأنه أن يكون أفضل، الخروج حالاً أم الانتظار حتى مجيء صاحب الحانة إلى العربة. إنه لم يعرف ما هو التقليد السائد في هذه البلدة، ولكن من المؤكد جداً بأن بَتي ستكون قد تحدّثت عن خطيبها، وحسب ما إذا كان وصوله هنا رائعاً أو واهناً، لذلك فإن الاحترام الذي تتمتع به هنا من شأنه أن يزداد أو يتضاءل، ووفق هذا المنظور، يكون احترامه هو، أيضاً. لكنه بالطبع لا يعلم ما كان يشعر به الناس تجاهها ولا يعرف ما الذي قد أخبرتهم به عنه، وهكذا كان كل شيء أكثر بغضاً وصعوبة. أوه، يا لها من مدينة جميلة وطريق عودة إلى البيت جميل! إذا كان المطر يهطل هناك، يذهب المرء إلى بيته عن طريق الترام فوق الحصى الرطب؛ وهنا يذهب المرء في عربة عبر الطين إلى الحانة. ـ «المدينة بعيدة عن هذا المكان، ولو كنت الآن في خطر الموت من الحنين إلى الوطن، فإنه لا أحد بإمكانه أن يُرجعني إلى هناك مرة أخرى اليوم. ـ حسناً، على أية حال، أنا لا ينبغي أن أموت ـ ولكن هناك أحصل على الوجبة المتوقعة لذلك المساء، موضوعة على الطاولة، إلى اليمين وراء طبقي تكون الصحيفة، والمصباح إلى اليسار، هنا سيُقدّم ليّ طبق دسم بشكل مرعب وصحيفة غير مألوفة ـ إنهم لا يعرفون بأن شهيتي ضعيفة، وحتى لو عرفوا فإن الكثير من الناس، الذين يمكنني أن أسمعهم، سيكونون هناك، وسوف يضاء مصباح واحد للجميع. أي نوع من الضوء يمكنه أن يقدمه؟ يكفي أن يلعبوا الورق بجانبه ـ ولكن ليس لقراءة الصحيفة.

«صاحب الحانة لا يأتي، فهو غير مهتم بالضيوف، ربما يكون رجلاً غير ودي. أو هل يعلم بأنني خطيب بَتي، وهل هذا يعطيه سبباً في عدم المجيء واصطحابي؟ وهذا يتوافق مع إبقاء السائق لي أنتظر وقتاً طويلاً في المحطة. وكثيراً ما كانت بَتي تخبرني، برغم كل شيء، كم كانت متضايقة من الرجال الداعرين وكيف أنها كانت مضطرة لصد إصرارهم؛ ربما ذلك يحصل هنا أيضاً...!»
[النص منقطع]

[المخطوطة الثانية]

عندما مشى إدوارد رابان، القادم على طول الممر، إلى المدخل المفتوح، تمكّن الآن من رؤية كيف كانت السماء تمطر. لم تكن تمطر مطراً غزيراً.

على الرصيف مباشرة أمامه، ليس أعلى، وليس أقل من ذلك، كان هناك، برغم المطر، العديد من المارّة. وبين الفينة والفينة يخطو شخص ما إلى الأمام ويعبر الطريق.

ثمة فتاة صغيرة تحمل كلباً رمادياً على ذراعيها الممدودتين. كان سيدان يتبادلان المعلومات بشأن موضوع ما، تارة يحوّلان مقدّمة جسميهما بالكامل نحو بعضهما البعض، وتارة يميلان ببطء عن بعضهما الآخر؛ وبدا الأمر مثل أبواب مواربة في مهب الريح. أحدهما يداه والراحتان إلى الأعلى، يرفعهما ويخفضهما بحركة منتظمة، كما لو كان يوازن حملاً، لاختبار وزنه. ثم لمح الآخر سيدة نحيفة كان وجهها يرتعش قليلاً، مثل ارتعاشة ضوء النجوم، وقبّعتها المسطحة كانت مثقلة إلى الأعلى وإلى الحافة بأشياء لا يمكن تمييزها؛ بدت غريبة لكل المارّة، دون قصد، كما لو كان ذلك مفروضاً بالقانون. ومرّ مسرعاً شاب يحمل عصا مشي رقيقة، يضع يده اليسرى، كما لو أنها مشلولة، على صدره. كان العديدُ من الناس خارجين في أعمالهم؛ وبرغم حقيقة أنهم كانوا يمشون بسرعة، فإن المرء كان

يراهم أطول من غيرهم، آناً على الرصيف، وآناً في الأسفل؛ كانت معاطفهم لا تلائمهم بشكل جيد؛ كما أنهم لا يهمهم كيف يحملون أنفسهم؛ فهم سمحوا للناس بدفعهم وهم أيضاً دفعوا الآخرين. ثمة ثلاثة سادة ـ اثنان منهم يحملان معاطف خفيفة على سواعدهما المعقوفة ـ كانوا يسيرون من أمام المبنى إلى حافة الرصيف، من أجل رؤية ما يجري في الطريق وعلى الرصيف الأبعد.

من خلال الفجوات بين المارة، الآن بشكل عابر، ثم بشكل مريح، كان المرء يرى الحصى المرصوفة بانتظام في الطريق التي كانت العربات فيه، وهي تتمايل على عجلاتها، تسحبها الخيول بخفة بأعناق مقوّسة. كان الناس الذين جلسوا على راحتهم على مقاعد منجدة يحدّقون بصمت في المارّة، والمحلات التجارية، والشرفات، والسماء. إذا حدث أن اجتازت عربةٌ عربةً أخرى، فإن الخيول تندفع مع بعضها البعض، وتتدلّى أشرطة اللجام. فتُسحب الحَيوانات من العوارض، وتتحرك العربة إلى الأمام، وهي تتمايل كلما زادت السرعة، حتى يكتمل الانحراف حول العربة وتبتعد الخيول مرة أخرى عن بعضها البعض، فيما تبقى رؤوسها الهزيلة مائلة تجاه بعضها الآخر.

جاء رجل نبيل مسن مسرعاً نحو المدخل الأمامي، ووقف على الرصيف الفسيفسائي الجاف، واستدار. وبعد ذلك حدّق في المطر، الذي أخذ يسقط باضطراب، بعد أن انحشر في الشارع الضيق.

أنزل رابان الحقيبة ذات الغطاء المؤلف من القماش الأسود، وهو يحني ركبته اليمنى قليلاً عند قيامه بذلك. كانت مياه الأمطار تجري على طول حافة الطريق على شكل شرائط امتدت تقريباً إلى المزاريب الأقل ارتفاعاً.

وقفَ السيد المسن مستقيماً بالقرب من رابان، الذي كان يسند نفسه بالانحناء قليلاً أمام عضادة الباب الخشبي؛ ومن وقت إلى آخر كان يحملق نحو

رابان، على الرغم من أنه من أجل أن يقوم بذلك كان عليه أن يلوي عنقه بشكل حاد. مع ذلك لم يفعل هذا إلاّ من وحي الرغبة الطبيعية، إذ صادف الآن أنه غير مشغول، في مراقبة كل شيء بالضبط، على الأقل في المناطق المجاورة له. وكانت نتيجة هذا التحديق الطائش هنا وهناك هو أن هناك قدراً كبيراً لم يلحظه. لذلك، على سبيل المثال، فاته بأن شفتي رابان كانتا شاحبتين جداً، ليستا أقل كثيراً من اللون الأحمر المتلاشى من ربطة عنقه، التي كانت ذات يوم تمتلك نمطاً مغاربياً أخّاذاً. الآن، لو لاحظ هذا، لعملَ بالتأكيد ضجة حول هذا الموضوع، على الأقل داخلياً، حيث، مرة أخرى، لن يكون هذا الأمر الشيء الصائب، لأن رابان كان شاحباً دائماً، حتى لو، وهذه حقيقة، جعلتْه أشياءُ مختلفة متعباً على نحو خاص في الآونة الأخيرة.

«يا له من طقس!» قال الرجل النبيل بصوت خفيض وهو يهز رأسه، بوعي، كان ذلك صحيحاً، لكن ما يزال بطريقة خرفة نوعاً ما.

«نعم، فعلاً، وعندها يُفترض بأن أحداً ينطلق في رحلة، أيضاً»، قال رابان، وهو يستقيم بجسمه بسرعة.

«إنه ليس ذلك النوع من الطقس الذي من شأنه أن يتحسن»، قال الرجل النبيل، من أجل التأكد من ذلك مرة أخرى وأخيرة، وانحنى إلى الأمام ليتفحّص الشارع، ثم يشيح ببصره إلى أسفل، وبعد ذلك إلى السماء. «قد يستمر لأيام أو حتى لأسابيع. وبقدر ما أتذكر، وأيضاً لا شيء أفضل يمكن توقعه لشهر حزيران وبداية تموز. حسناً، لا يُسعد هذا أي شخص؛ أنا على سبيل المثال عليّ أن أتخلّى عن نزهاتي مشياً على الأقدام، والتي هي مهمة للغاية لصحتي».

وبهذا تثاءب وبدا منهكاً، لأنه سمع الآن صوت رابان ولانهماكه بهذه المحادثة، لم يعد مهتماً بأي شيء، ولا حتى بالمحادثة نفسها.

ترك هذا انطباعاً على رابان، لأنه رغم ذلك كان الرجل النبيل قد خاطبه أولاً، وهو لذلك حاول التباهي قليلاً، برغم عدم ظهور ذلك. قال، «صحيح، في المدينة يمكن للمرء بسهولة كبيرة الاستغناء عن كل ما هو ليس مفيداً لأحد. وعندما لا يستغني المرء عنه، عندها لا يلومن المرء إلاّ نفسه على العواقب الوخيمة. وسيأسف المرء، وبهذه الطريقة سيرى للمرة الأولى بوضوح تام كيفية تدبّر الأمر في المرة القادمة. وحتى لو كان ذلك في المسائل التفصيلية... [صفحتان مفقودتان]... «أنا لا أقصد من ذلك أي شيء. لا أقصد أي شيء على الإطلاق»، أسرع رابان إلى القول، واستعدّ للصفح عن شرود الذهن لدى الرجل النبيل بأية طريقة ممكنة، لأنه بعد كل هذا أراد إظهار مزيد من التباهي. «كل هذا جاء من الكتاب المذكور سابقاً، وأنا، مثل الآخرين، حدثَ أن قرأته في المساء في الآونة الأخيرة. لقد كنت وحيداً في أغلب الأحيان. ونظراً لظروف عائلية، كما ترى. ولكن بصرف النظر عن أي شيء آخر، فإن كتاباً جيداً هو ما أفضّله أكثر بعد العشاء. دائماً ما كان ذلك. فقط مؤخراً قرأت في نشرةٍ اقتباساً من أحد الكتّاب. 'الكتاب الجيد هو أفضل صديق هناك'، وهذا صحيح بالفعل، فالأمر هو كذلك، الكتاب الجيد هو أفضل صديق هناك».

«نعم، عندما يكون المرء شاباً» ـ قال الرجل النبيل، وهو لا يعني شيئاً على وجه الخصوص بقوله هذا، فقط لمجرد الرغبة في الإشارة إلى كيفية هطول المطر، إذ إن المطر اشتدّ من جديد، وإنه الآن لن يتوقف على الإطلاق؛ ولكن بالنسبة لرابان بدا الأمر برغم أنه في الستين إلاّ أن الرجل النبيل ما يزال يرى نفسه شاباً ويفيض حيوية ويرى سني رابان الثلاثين لا شيء مقارنة به، وبرغم أنه كان يقصد أن يقول إضافة إلى ذلك، بقدر الإمكان، بأنه في سن الثلاثين كان، بطبيعة الحال، أكثر عقلانية من رابان. كما اعتقد بأنه حتى لو لم يمتلك المرء شيئاً آخر يقوم به، مثله، على سبيل المثال، بوصفه رجلاً عجوزاً، مع ذلك كان حقاً

إضاعة للوقت الوقوف هنا في هذه القاعة، والنظر إلى المطر، ولكن إذا قضى المرء الوقت، إلى جانب ذلك، في الثرثرة، فإن المرء يهدر ذلك الوقت على نحو مضاعف.

الآن ظنّ رابان لبعض الوقت بأن الآخرين لم يتحدثوا بشيء حول قدراته أو آرائه والذي من شأنه أن يؤثر عليه، على العكس من ذلك، [ظنّ] بأنه ترك بشكل إيجابي الموقف حيث كان يستمع، بشكل مطيع تماماً، إلى كل ما قيل، حتى أن الناس كانوا الآن لا أكثر من أنهم يرهقون أنفسهم سواء كانوا ضده أو معه. «نحن نتحدث عن أشياء مختلفة، لأنك لم تنتظر لسماع ما كنتُ سأقوله».

«رجاءً استمر، رجاءً استمر»، قال الرجل النبيل.

قال رابان، «حسناً، ليس هذا مهماً جداً». كنت فقط أريد أن أقول بأن الكتب مفيدة بكل معنى الكلمة وخاصة في نواحي لا يتوقعها المرء. ذلك لأنه عندما يكون المرء على وشك الشروع بمشروع ما، فإن الكتب بالضبط الكتب التي لا تمتلك محتوياتها على الإطلاق أي قواسم مشتركة مع ذلك المشروع هي التي تكون الأكثر فائدة. بالنسبة للقارئ الذي ينوي برغم كل شيء الشروع في ذلك المشروع، بمعنى، [القارئ] الذي يصبح بطريقة أو بأخرى متحمساً (وحتى لو كان، إذا جاز التعبير، أثر الكتاب لا يمكنه أن يخترق سوى ذلك الحماس)، فإن الكتاب سيحفّز لديه جميع أنواع الأفكار المتعلقة بمشروعه. الآن، على أية حال، لأن محتويات الكتاب هي على وجه التحديد عبارة عن شيء ما ينم عن لا مبالاة مطلقة، فإن القارئ ليس خاضعاً على الإطلاق لتلك الأفكار، ويمرّ إلى منتصف الكتاب معها، كما مرّ ذات يوم اليهود عبر البحر الأحمر، وهذه هي الكيفية التي أود أن أطرح الموضوع بها».

بالنسبة لرابان فإن شخص الرجل النبيل العجوز أفصح الآن عن تعبير غير

سار. بدا الأمر له كما لو أنه قد انجذب بشكل خاص تجاهه ـ لكن هذا كان مجرد عبث... [صفحتان مفقودتان]... «الصحيفة، أيضاً. ـ ولكن كنت على وشك أن أقول، أنا ذاهب إلى الريف، هذا كل شيء، فقط لمدة أسبوعين؛ إنني آخذ عطلة للمرة الأولى لفترة زمنية طويلة نوعاً ما، وهي ضرورية لأسباب أخرى أيضاً، ومع ذلك على سبيل المثال فإن الكتاب، كما ذكرت، الذي كنت أقرؤه مؤخراً علّمني عن رحلتي القصيرة أكثر مما قد تتصور».

قال الرجل النبيل، «أنا أستمع».

كان رابان صامتاً وإذ يقف هناك منتصباً، وضع يديه في جيوب معطفه، التي كانت نوعاً ما مرتفعة للغاية. قال الرجل النبيل العجوز بعد هنيهة: «يبدو أن لهذه الرحلة أهمية خاصة بالنسبة لك».

«حسناً، كما ترى، كما ترى»، قال رابان، وهو يسند نفسه مرة أخرى إلى عضادة الباب. الآن فقط رأى كيف كان الممر يغصّ بالناس؛ إذ كانوا يقفون حتى في أسفل السلّم، وثمة مسؤول، كان قد استأجر غرفة في شقة المرأة ذاتها كما استأجر رابان، عندما نزل السلّم تحتّم أن يطلب من الناس إفساح المجال له. بالنسبة لرابان، الذي كان يشير إلى المطر، صاح بعدة أشخاص، استداروا الآن نحو رابان قائلين، «نتمنى لك رحلة جيدة» وكرروا وعداً، من الواضح أنهم قطعوه في وقت سابق، بزيارة رابان بالتأكيد الأحد المقبل.

[صفحتان مفقودتان]... لديه وظيفة ممتعة، مقتنع بها بالفعل وبقيتْ دائماً مفتوحة بالنسبة له. لديه قوى تحمل كبيرة وهو مبتهج جداً من الداخل بحيث لا يحتاج أي شخص لإمتاعه مطلقاً، ولكن الجميع بحاجة إليه. كان دائماً بصحة جيدة. أوه، لا تحاول أن تخبرني.

قال الرجل النبيل، «أنا لست بصدد الجدال».

«أنت لن تجادل، لكنك لن تعترف بخطئك أيضاً. لماذا تتشبّث بذلك إلى هذا الحد؟ ومهما كانت ذاكرتك حادة الآن، فإنك، أراهن على ذلك، ستنسى كل شيء إذا ما أردتَّ التحدّث معه. ستلومني لعدم تفنيدك بشكل أكثر فعالية الآن. وإذا ما تحدث عن الكتاب، فهو يكون منتشياً على الفور بكل شيء جميل»...

الحكم

كان صباح يوم أحد في أوج الربيع. كان جورج بنديمان، وهو تاجر شاب، يجلس في غرفته الخاصة في الطابق الأول لصف طويل من المنازل الصغيرة، الآيلة للسقوط الممتدة بجانب النهر والتي لا يمكن تمييزها عن بعضها البعض من حيث الارتفاع والتلوين. كان قد انتهى لتوه من رسالة إلى صديق قديم له يعيش الآن في الخارج، ووضعها في مظروفها بطريقة بطيئة وحالمة، وبمرفقيه المسنودين على طاولة الكتابة أخذ يحدّق عبر النافذة في النهر، والجسر، والتلال على الضفة البعيدة للنهر بخضرتها اليانعة.

كان يفكّر بصديقه، الذي هرب في الواقع إلى روسيا قبل بضع سنوات، وهو غير راضٍ عن مستقبله في بلده. الآن استمرّ بمزاولة عمل في سان بطرسبرغ، الذي ازدهر في البداية لكنه أخذ يتراجع منذ فترة طويلة، حسبما كان يشتكى دائماً أثناء زياراته النادرة جداً. لذلك أنهك نفسه من دون أي غرض في بلد أجنبي، ولحيته الكاملة غير المألوفة لم تخفِ تماماً الوجه الذي عُرِف به جورج جيداً منذ طفولته، كما أن جلده أصبح شاحباً ليشير إلى مرض كامن. وحسب روايته هو لم يك لديه اتصال منتظم مع مستعمرة مواطنيه هناك، وليس لديه اي اتصال اجتماعي مع الأسر الروسية، بحيث أنه جعل نفسه ليصبح عازباً دائماً.

ما عسى أن يكتب المرء إلى مثل هذا الرجل، الذي يتضح أنه حادَ عن الطريق، وهو رجل يمكن للمرء أن يتأسف عليه لكنه لا يسعه ذلك. هل ينبغي للمرء أن ينصحه بالقدوم إلى البيت، لينقل نفسه ويبدأ بصداقاته القديمة مرة

أخرى ـ إذ ليس هناك ما يعيقه ـ وبشكل عام يعتمد على مساعدة من أصدقائه؟ لكن هذا كان جيداً بمثابة قولك له، الذي كلما كان بلطف كان أكثر عدوانية، بأن كل جهوده حتى الآن أجهضت، وأن عليه أن يستسلم في النهاية، ويعود إلى المنزل، ويحدّق الجميع في وجهه بوصفه المسرف العائد، الذي لا يعرف ما يدور في خلده سوى أصدقائه وأنه هو نفسه كان مجرد طفل كبير ينبغي أن يفعل ما يصفه له أصدقاؤه الناجحون، الملازمون البيت. وهل من المؤكد، إلى جانب ذلك، أن كل الآلام التي يجب على المرء أن يلحقها به ستحقق هدفها؟ ربما لن يكون من الممكن جعله يأتي إلى البيت بالمرة ـ فقد قال بنفسه إنه الآن بعيد كل البعد عن التجارة في وطنه ـ وبعد ذلك سيُترك غريباً في أرض أجنبية يتجرّع مرارة نصيحة أصدقائه وأكثر بعداً من أي وقت مضى عنهم. لكن إذا ما تبع نصحهم ولم يلائمه البيت ـ ليس خبثاً، بطبيعة الحال، ولكن بسبب قوة الظروف ـ فهو لا يمكنه التواصل مع أصدقائه أو بدونهم، ويشعر بالمهانة، ولا يمكن أن يقال عنه بأن لديه أصدقاء أو بلد خاص به، أليس من الأفضل له أن يبقى في الخارج تماماً كما كان؟ وبأخذ كل هذا بنظر الاعتبار، كيف يمكن للمرء أن يكون على يقين من أنه سيحقّق نجاحاً في الحياة في وطنه؟

لهذه الأسباب، لنفترض أن أحداً أراد الاستمرار بمراسلته، فإنه لا يمكنه أن يرسل له أية أخبار حقيقية كتلك التي تقال بصراحة إلى الأقرباء الأكثر بعداً. لقد مرّت أكثر من ثلاث سنوات منذ زيارته الأخيرة، ومن أجل هذا قدّم حجة واهية بأن الوضع السياسي في روسيا كان مضطرباً جداً، والذي لا يسمح على ما يبدو حتى أقصر غياب لرجل أعمال صغير في حين أنه أتاح لمئات الآلاف من الروس السفر بسلام إلى الخارج. ولكن أثناء هذه السنوات الثلاث كان موقف جورج نفسه في الحياة قد تغير كثيراً. قبل سنتين توفيت والدته، منذ أن كان هو ووالده قد تقاسما أعباء العائلة معاً، وجرى إخبار صديقه بطبيعة الحال بذلك،

وأعرب عن تعاطفه برسالةٍ صيغت بجفاء شديد لدرجة أن الحزن الذي سبّبه مثل هذا الحدث - بوسع المرء أن يستنتج - لا يمكن إدراكه في بلد بعيد. ومنذ ذلك الحين، على أية حال، أجهد جورج نفسه بعزم لا يلين في العمل وبأي شيء آخر.

ربما أثناء حياة والدته كان إصرار والده على أن يأخذ كل شيء طريقه الخاص في العمل قد أعاقه عن تطوير أي نشاط حقيقي خاص به، وربما منذ وفاتها أصبح والده أقل عدوانية، على الرغم من أنه كان ما يزال نشيطاً في الأعمال التجارية، ربما كان هذا يرجع في معظمه إلى ضربة حظ موفقة ـ هي من المحتمل جداً كانت كذلك ـ ولكن على أية حال أثناء تينك السنتين تطورت الأعمال التجارية بطريقة غير متوقعة أبداً، ولا بد أن الموظفين تضاعفت أعدادهم، وتعاظمت المبيعات بخمسة أضعافها؛ ولا شك في ذلك، أن المزيد من التقدم قادم.

لكن صديق جورج ليس لديه أدنى فكرة عن هذا التحسن. في السنوات السابقة، ربما في المرة الأخيرة في رسالة التعزية تلك، حاول إقناع جورج بالهجرة إلى روسيا وأسهب في احتمالات النجاح لفرع جورج التجاري بالضبط. وكانت الأرقام المذكورة صغيرة جداً بالمقارنة مع نطاق عمليات جورج الحالية. مع ذلك انتفض من مسألة جعل صديقه يعرف مدى نجاحه التجاري، ولو قيّض له أن يفعل ذلك الآن بأثر رجعي فإن ذلك بالتأكيد سوف يبدو غريباً.

لذلك آلى جورج على نفسه تبادل أحاديث غير مهمة مع صديقه كتلك التي تطفح عشوائياً في الذاكرة عندما يفكر بها المرء بكسلٍ في يومِ أحدٍ هادئ. كل الذي كان يرغب فيه هو ترك فكرة مدينته الأم التي كان لا بد لصديقه أن يبنيها حسب قناعته أثناء الفترة الفاصلة الطويلة. وهكذا حدث لجورج بأن أخبر صديقه ثلاث مرات في ثلاث رسائل منفصلة حول ارتباط رجل غير مهم بفتاة غير مهمة أيضاً، حتى بالفعل، تماماً على عكس نواياه، بدأ صديقه بإظهار بعض الاهتمام بهذا الحدث البارز.

مع ذلك فضّلَ جورج أن يكتب عن أشياء كهذه بدلاً من الاعترف بأنه هو نفسه قد ارتبط قبل شهر بالآنسة فريدا براندنفيلد، وهي فتاة من عائلة موسرة. وكثيراً ما كان يناقش صديقه بموضوع خطيبته والعلاقة الخاصة التي نشأت بينهما في مراسلاتهما. «وبالتالي لن يأتي إلى زفافنا»، قالت، «ومع ذلك لدي الحق في التعرف على كل أصدقائك». «أنا لا أريد أن أزعجه»، أجاب جورج، «لا تسيئي فهمي، ربما يأتي على الأرجح، على الأقل أعتقد ذلك، لكنه يشعر بأنه مكره على ذلك وأنه سوف يتأذى، ربما كان سيحسدني وبالتأكيد سيكون ساخطاً من دون أن يتمكن من فعل أي شيء حيال استيائه وسيضطر إلى أن يبتعد مرة أخرى وحيداً. وحيداً ـ هل تعرفين ماذا يعني ذلك؟» «نعم، لكن ألا يمكن أن يسمع عن زفافنا بطريقة أخرى؟» «لا أستطيع منع هذا، بطبيعة الحال، لكنه من غير المرجّح، عند الأخذ بعين الاعتبار الطريقة التي يعيش بها». «ولأن أصدقاءك هم من هذا القبيل، يا جورج، فإنك لا ينبغي أبداً أن ترتبط على الإطلاق» «حسناً، كلانا ملوم على حد سواء إزاء ذلك؛ ولكنني لن أفهم الأمر بأية طريقة أخرى الآن. «وعندما تتنفس بسرعة تحت قبلاته، فهي ما تزال تعيد: «كل شيء سيّان عندي، وإنني أشعر بالضيق»، كان يعتقد بأنه لا يمكن حقاً أن يقع في ورطة لو أرسلَ الخبر إلى صديقه. «ذلك هو أنا وعليه أن يتقبلني كما أنا»، قال في نفسه، «أنا لا أستطيع أن أكيّف نفسي إلى نمط آخر قد يجعل مني صديقاً أكثر ملاءمة بالنسبة له».

في واقع الأمر إنه لم يبلغ صديقه، في الرسالة الطويلة التي كان قد كتبها في صباح ذلك الأحد، عن خطوبته، بهذه الكلمات: «لقد احتفظتُ بأفضل أخباري إلى النهاية. لقد ارتبطت بالآنسة فريدا براندنفيلد، وهي فتاة من عائلة موسرة، جاءت للعيش هنا بعد فترة طويلة من ابتعادك، بحيث يصعب عليك جداً أن تعرفها. سيكون هناك متسع من الوقت لأخبرك المزيد عنها في وقت لاحق،

بالنسبة لهذا اليوم اسمح لي فقط أن أقول بأنني سعيد جداً، وبيني وبينك فإن الفرق الوحيد في علاقتنا هو أنه بدلاً من وجود صديق عادي جداً ستجد الآن فيّ صديقاً سعيداً. بالإضافة إلى ذلك، سوف تكتسب في خطيبتي، التي ترسل تحياتها الدافئة والتي قريباً ستكتب لك بنفسها، صديقة حقيقية من الجنس الآخر، وهذا لا يخلو من أهمية بالنسبة لعازب. أعلم أن هناك العديد من الأسباب عن عدم مجيئك لرؤيتنا، ولكن ألن يكون زواجي بالضبط الفرصة المناسبة لنقول لكل العقبات وداعاً؟ مع ذلك، مهما يكن من أمر، افعل كل ما يبدو جيداً بالنسبة لك دون الالتفات إلى أية مصالح خلا مصلحتك أنت».

وبينما كانت هذه الرسالة في يده جلس جورج فترة طويلة إلى طاولة الكتابة، ووجهه متحول صوب النافذة. وكان بالكاد يلتفت، بابتسامة غائبة، إلى تحية ألقاها عليه من الشارع أحد معارفه المارّين.

أخيراً وضع الرسالة في جيبه وخرج من غرفته عبر رواق صغير في غرفة والده، التي لم يدخلها لعدة أشهر؛ إذ ليس هناك في الواقع حاجة للدخول إليها، لأنه كان يرى والده يومياً في العمل ويتناولان وجبة غدائهما معاً في مطعم. وفي المساء، صحيح أن كل شخص فعل ما يحلو له، لكن حتى في ذلك الحين، ما لم يخرج جورج ـ كما كان ذلك يحدث في الغالب ـ مع أصدقائه أو، في الآونة الأخيرة، يزور خطيبته، فإنهما كانا يجلسان دائماً لفترة من الوقت، ولكل منهما صحيفته، في غرفة جلوسهما المشتركة.

تفاجأ جورج بظلام غرفة والده حتى في هذا الصباح المشمس. فقد كان يظللها كثيراً جدار عالٍ على الجانب الآخر من الفناء الضيق. كان الده يجلس قرب النافذة في زاوية معلق عليها مختلف تذكارات أم جورج الميتة، يقرأ صحيفة كان يحملها إلى أحد الجوانب أمام عينيه في محاولة للتغلب على قصور في الرؤية. وعلى الطاولة كانت بقايا وجبة إفطاره، الذي بدا أنه لم يؤكل منه الكثير.

«آه، يا جورج»، قال والده، وهو ينهض حالاً لمقابلته. كان ثوبه الثقيل يتأرجح مفتوحاً بينما كان يسير وترفرف حواشيه حوله. ـ «ما يزال أبي رجلاً عملاقاً»، قال جورج لنفسه.

«إنها مظلمة هنا بشكل لا يطاق»، قال بصوت عال.

«نعم، إنها مظلمة بما فيه الكفاية»، أجاب والده.

«وإنك أغلقتَ النافذة، أيضاً؟»

«أنا أفضّل الأمر هكذا».

«حسناً، الجو دافئ جداً في الخارج»، قال جورج، كما لو أنه مستمرّ بملاحظته السابقة، وجلس.

أزال والده أطباق الإفطار ووضعها على صندوق.

«لم أرد حقاً سوى أن أقول لك»، استمرَّ جورج، الذي كان يتابع تحركات العجوز ببلاهة، «بأنني الآن أقوم بإرسال أخبار خطوبتي إلى سان بطرسبيرغ». سحب الرسالة قليلاً من جيبه وأرجعها مرة أخرى.

«إلى سانت بطرسبيرغ؟» سأل والدُه.

«إلى صديقي هناك»، قال جورج، محاولاً مواجهة عين والده. ـ في ساعات العمل يكون مختلفاً تماماً، كان يفكر، كيف يجلس بصلابة وذراعاه متصالبتان.

«أوه، نعم، إلى صديقكَ»، قال والده، بتركيز غريب.

«حسناً، أنت تعرف يا أبي، بأنني لم أرغب في إخباره عن خطوبتي في البداية. من وجهة النظر بالنسبة له، كان ذلك هو السبب الوحيد. أنت نفسك تعرف بأنه رجل صعب. قلت في نفسي إن شخصاً ما آخر قد يخبره عن خطوبتي، على الرغم من أنه ذلك المخلوق الانفرادي جداً لدرجة أن ذلك مستبعد ـ لم يكن بوسعي منع ذلك ـ ولكنني لم أكن لأقول له بنفسي».

«والآن هل غيرتَ رأيك؟» سأل والدُه، وهو يضع جريدته الكبيرة على عتبة النافذة، وأعلى من ذلك [وضع] نظارته، التي غطّاها بيد واحدة.

«نعم، لقد فكّرتُ في هذا الأمر ملياً. إذا كان هو صديقاً جيداً لي، قلت في نفسي، فإن كوني مرتبطاً بسعادة لا بد أن يجعله سعيداً أيضاً. ولذا فإنني لا أؤجّل مسالة إخباره كثيراً. ولكن قبل أن أرسل الرسالة أردت أن أعْلمك».

«يا جورج»، قال والده، وهو يمطّ فمه الخالي من الأسنان، «استمع إليّ! لقد جئتَ لي في هذا الشأن، لتتحدث به معي. لا شك في أن ذلك يشرّفك. لكن هذا لا شيء، بل أسوأ من لا شيء، عندما لا تقول لي الحقيقة كاملة. إنني لا أريد إثارة الأمور التي لا ينبغي أن تُذكر هنا. فمنذ وفاة أمّنا العزيزة تمّ القيام ببعض الأشياء التي ليست صائبة. ربما سيحين الوقت لذكرها، وربما في وقت أقرب مما نعتقد. هناك العديد من الأشياء في العمل التي لستُ على علم بها، ربما لم تُفعل من وراء ظهري ـ لن أقول بأن ذلك جرى من وراء ظهري ـ فأنا لست بقدر تلك الأشياء، ذاكرتي تخونني، وليست لدي رؤية بالنسبة لأشياء كثيرة. وهذا هو مجرى الطبيعة في المقام الأول، وفي المقام الثاني وفاة والدتنا العزيزة أصابتني أشدّ مما أصابتك. ـ ولكن بما أننا نتحدث عن ذلك، حول هذه الرسالة، أتوسل إليك، يا جورج، لا تخدعني. إنها قضية تافهة، لا تستحق الذكر، لذلك لا تخدعني. هل لديك حقاً هذا الصديق في سان بطرسبيرغ؟»

نهض جورج محرجاً. «لا تهتموا يا أصدقائي. فألف صديق لا يعوّضني عن والدي. هل تعرف ما أفكّر به؟ إنك لا تهتم كثيراً بنفسك. ولكن لا بد من الاهتمام بالشيخوخة. لا أستطيع أن أعمل دونك في هذا العمل التجاري، وأنت تعرف ذلك تمام المعرفة، ولكن إذا كان العمل سيقوض صحتك، فأنا مستعد لإغلاقه غداً إلى الأبد. وذلك لن يفلح. علينا أن نقوم بإجراء تغيير في طريقة معيشتك، ولكن تغييراً جذرياً. أنت تجلس هنا في الظلام، وفي غرفة الجلوس ستنعم بالكثير من

الضوء. ما عليك سوى تناول لقمة في الإفطار من أجل الاحتفاظ بقوتك إلى حدّ بعيد. تجلس بجانب نافذة مغلقة، وسيكون الهواء جيداً بالنسبة لك. لا، يا أبي! سأحضر الطبيب، وسوف نتبع أوامره. سنقوم بتغيير غرفتك، يمكنك الانتقال إلى الغرفة الأمامية وسوف أنتقل إلى هنا. لن تلاحظ التغيير، إذ إن جميع أشيائك ستنتقل معك. ولكن هناك وقت لكل ذلك فيما بعد، سوف أضعك في السرير الآن لبعض الوقت، فأنا على يقين من أنك بحاجة إلى الراحة. هيّا، سوف أساعدك على خلع ثيابك، سترى بأنني أستطيع أن أفعل ذلك. أو إذا كنت تفضل الذهاب إلى الغرفة الأمامية حالاً، يمكنك الاستلقاء في سريري في الوقت الحاضر. وذلك سيكون الشيء الأكثر منطقية».

وقف جورج قريباً بجانب والده، الذي ترك رأسه بشعره الأشيب غير المرتّب ينحدر على صدره.

«جورج»، قال والده بصوت منخفض، من دون أن يتحرك.

انحنى جورج حالاً بجانب والده، وفي الوجه المنهك للرجل العجوز رأى الحدقتين، متوسعتين، تنظران إليه بثبات من زوايا العينين.

«ليس لديك صديق في سانت بطرسبيرغ. لقد كنتَ دائماً معرقلاً ولم تتوانَ عن صدّي. كيف يمكن أن يكون لديك صديق هناك! لا أستطيع أن أصدّق ذلك».

«فقط ارجع بتفكيرك إلى الوراء قليلاً، يا أبي»، قال جورج، وهو يرفع والده من الكرسي ويخلع ثوبه بينما كان يقف بوهن كبير، «ستمرّ قريباً ثلاث سنوات مذ جاء صديقي لرؤيتنا آخر مرة. أتذكر أنك اعتدتَ ألا تحبه بالمرة. على الأقل منعتُك مرتين من رؤيته، على الرغم من أنه كان يجلس في الواقع معي في غرفتي. بوسعي أن افهم جيداً كرهك له، فلصديقي خصوصياته. ولكن حينها، في وقت لاحق، انسجمتَ معه أيما انسجام. أنا فخور لأنك استمعتَ له وأومأتَ وسألتَه أسئلة. لو عدتَ بتفكيرك إلى الوراء فستتذكر حتماً. لقد اعتاد أن يسرد لنا

القصص الأكثر دهشة عن الثورة الروسية. على سبيل المثال، عندما كان في رحلة عمل إلى كييف وصادف أعمال شغب، رأى كاهناً على شرفةٍ مسح صليباً عريضاً مليئاً بالدم على راحة يده ورفع يده عالياً وناشد الغوغاء. لقد سردتَ تلك القصة بنفسك مرة أو مرتين منذ ذلك الحين».

في هذه الأثناء نجح جورج في إنزال والده مرة أخرى، وبعناية خلع سرواله الصوفي الذي كان يرتديه فوق لباسه الكتاني وجوربيه. فمظهر ملابسه الداخلية غير النظيف بالمرة جعله يؤنّب نفسه لكونه أصبح مهملاً. لا بد أنه كان من واجبه بالتأكيد أن يرى أن لوالده تبديلات نظيفة من الملابس الداخلية. لم يناقش بشكل واضح لحد الآن مع عروسه المستقبلية الترتيبات الواجب اتخاذها حيال والده في المستقبل، ذلك لأنهما بصمت اعتبرا من المسلم به بأن الرجل العجوز سيستمر في العيش وحيداً في البيت القديم. لكنه الآن اتّخذ قراراً حاسماً، سريعاً لنقله إلى مؤسسته المستقبلية الخاصة به. وبدا الأمر تقريباً، عند المعاينة عن كثب، وكأن العناية التي قصد إغداقها هناك على والده ربما جاءت متأخرة.

حمل والده إلى الفراش بين ذراعيه. وقد تملّكه شعور مروّع إذ لاحظ بأنه في الوقت الذي أخذ الخطوات القليلة نحو السرير كان الرجل العجوز على صدره يلهو بسلسلة ساعته. لم يتمكن من وضعه على السرير للحظة، لأنه كان متشبّثاً بقوة بسلسلة الساعة.

ولكن بمجرد أن وُضِع في السرير، بدا كل شيء على ما يرام؛ إذ غطّى نفسه وحتى سحب البطانيات أبعد من المعتاد على كتفيه. وتطلّع في جورج بعين ودية.

«حاول أن تتذكر صديقي، أليس كذلك؟» سأل جورج، وهو يعطيه إشارة مشجعة.

«هل أنا مغطى جيداً الآن؟» سأل والدُه، كما لو أنه لم يكن قادراً على رؤية إن كانت قدماه مدسوستين بشكل صحيح أم لا.

«لذلك تجد الأمر مريحاً في السرير»، قال جورج، وسحب البطانيات أكثر فأكثر حوله.

«هل أنا مغطى جيداً؟» سأل الأبُ مرة أخرى، على ما يبدو أنه مصرّ بشكل غريب على الجواب.

«لا تقلق، أنت مغطى جيداً».

«لا!»، صاح والده، وهو يختصر الجواب، ورمى البطانيات بقوة جعلتها تتطاير جميعها للحظة ووثب منتصباً في السرير. ثمة يد واحدة فقط مسّت بخفةٍ السقفَ لتُوازن الوالد.

«أردتَ أن تغطيني، أنا أعلم، يا ريحانة عمري، لكنني أبعد من كوني مغطى حتى الآن. وحتى لو كان هذا هو آخر قواي التي أمتلكها، فهذا يكفي بالنسبة لك، كثير جداً بالنسبة لك. بالطبع أنا أعرف صديقك. كان ابناً مثلما يتمناه قلبي. لهذا السبب كنتَ تخدعه كل هذه السنوات. وإلاّ لماذا؟ هل تعتقد بأنني لم أكن متأسفاً عليه؟ وهذا هو السبب لماذا تحتّمَ عليك سجن نفسك في مكتبك ـ الرئيس مشغول، ويجب عدم إزعاجه ـ فقط بحيث تتمكن من كتابة رسائلك الصغيرة إلى روسيا. ولكن الحمد للّه لا حاجة لتعليم الأب كيف يدرك حقيقة ابنه. والآن بعد أن اعتقدتَ بأنك قد أوقعْته حزناً وكمداً، إلى الأسفل بحيث يمكن أن تضع مؤخرتك عليه وتجلس فوقه وهو لن يتحرك، عندها فإن ابني اللطيف يقرر أن يتزوج!»

حدّق جورج في البعبع الذي استحضره والده. صديقه في سانت بطرسبيرغ، الذي عرفه والدُه فجأة بشكل جيد، قدح خياله كما لم يحدث له ذلك من قبل. رآه ضائعاً في أراضي روسيا الشاسعة. رآه عند باب مستودع فارغ، منهوب. وبين حطام خزائن العرض، والبقايا المقطوعة لبضاعته، ومساند الغاز الساقطة، كان واقفاً ليس إلاّ. لماذا كان عليه الذهاب بعيداً جداً!

«ولكن أصغِ إلي!» صاح والده، وجورج، منصرف الذهن تقريباً، ركض نحو السرير لأخذ كل شيء، مع ذلك توقف في منتصف الطريق.

«لأنها رفعت تنورتها»، بدأ والده يغرّد، «لأنها رفعت تنورتها على هذه الشاكلة، هذه المخلوقة السيئة»، ومحاكاةً لها رفع قميصه عالياً جداً لدرجة أن المرء يمكن أن يرى الندبة على فخذه من جرحه في الحرب، «لأنها رفعت تنورتها بهذا الشكل فإنك استحسنتها، ومن أجل أن تستغلها دونما حرج لطّختَ ذاكرة والدتك بالعار، وخنتَ صديقك، ووضعتَ والدك في السرير من أجل أن لا يتمكن من الحركة. لكنه يمكن أن يتحرك، أم أنه لا يمكنه ذلك؟»

ووقف غير مستندٍ تماماً وأخرج ساقيه. وبصيرته جعلته مشعاً.

انكمش جورج إلى الزاوية، وبعيداً عن والده قدر الإمكان. قبل وقت طويل قرّر بقوة أن يراقب عن كثب كل حركة من أجل ألا يتفاجأ بأي هجوم غير مباشر، انقضاض من الخلف أو من الأعلى. في هذه اللحظة استذكر عزمه الذي طواه النسيان ونسيه مرة أخرى، مثل رجل يسحب خيطاً قصيراً من خلال ثقب إبرة.

«لكن صديقك لم يتعرض إلى الخيانة رغم كل شيء!» صاح والده، مؤكداً على النقطة بطعنات من سبابته. «إنني أمثّله هنا في هذا المكان».

«أيها الكوميديّ» لم يستطع جورج مقاومة الرد الساخر، أدرك في الحال الضرر الذي ألحَقَه وعيناه تدوران في رأسه، توقّف عن الكلام، فقط بعد فوات الأوان، حتى بان الألمُ على ركبتيه.

«نعم، بالطبع كنتُ أمثّل ملهاة! ملهاة! ذلك خير تعبير! أيّ عزاء آخر تُرِكَ لأرملٍ عجوزٍ مسكين؟ قل لي ـ وبينما تجيبني فأنت ما تزال ابني الحيّ ـ ماذا بقي لي، في غرفتي الخلفية، المبتلاة بكادر خائن، والقديمة جداً؟ وابني المتبختر عبر

العالم، والمنتهي من صفقات كنتُ قد أعددتها له، والذي يفيض بغبطة منتصرة، والمبتعد عن والده بالوجه المنغلق لرجل أعمال محترم! هل تعتقد بأنني لم أحبك، أنا، الذي عن طريقه رأيتَ الدنيا.

الآن سوف يميل إلِى الأمام، فكّر جورج، ماذا لو سقط وحطّم نفسه! بقيت هذه الكلمات ترن في عقله.

انحنى والده إلى الأمام لكنه لم يسقط. ولأن جورج لم يقترب، كما كان متوقعاً، فإنه قوّمَ نفسه مرة أخرى.

«ابقَ حيث أنت، لستُ بحاجة إليك! تعتقد بأن لديك ما يكفي من القوة بحيث تأتي إلى هنا وتتأخر بمحض إرادتك. لا تكن على يقين تام! فأنا ما أزال أقوى الاثنين بكثير. بمفردي تماماً ربما تحتّمَ عليّ أن أفسح المجال، لكن والدتك أعطتني كثيراً من قوتها بحيث أقمتُ اتصالاً جميلاً مع صديقك كما أن زبائنك هنا طوع بناني!»

«عنده جيوب حتى في قميصه!» قال جورج في نفسه، واعتقد بأنه بهذه الملاحظة يمكن أن يجعل منه شخصية مستحيلة للعالم أجمع. للحظة فقط أخذ يفكر هكذا، لأنه داوم على نسيان كل شيء.

«فقط خذ عروسك على ذراعك وحاول الوقوف في طريقي! سأكتسحها من جانبك تماماً، أنت لا تعرف كيف!»

أشاح جورج بوجهه كعلامة لعدم التصديق. أومأ والده برأسه فقط، مؤكداً صدق كلامه، نحو زاوية جورج.

«كم سلّيتني اليوم، إذ تأتي لتسألني إن كان يجب أن تخبر صديقك بخطوبتك. فهو يعرف ذلك مسبقاً، أيها الصبي الأحمق، هو يعلم ذلك كله! لقد كتبتُ له، لأنك نسيتَ أن تُبعد كتاباتي. وهذا هو السبب في أنه لم يكن هنا لسنوات، فهو

يعرف كل شيء مئة مرة أفضل مما تعرفه أنت، في يده اليسرى يجعّد رسائلك وهي مغلقة بينما في يده اليمنى يحمل رسائلي ليقرأها!»

ووسط حماسه هذا لوّحَ بذراعه فوق رأسه. وصاح، «إنه يعرف كل شيء أفضل ألف مرة!»

«عشرة آلاف مرة!» قال جورج، ليسخر من والده، ولكن تحولت الكلمات في فمه نفسه إلى كلمات جدية قاتلة.

«لسنوات كنت أنتظرك أن تأتي بمثل هذا السؤال! هل تعتقد بأنني أشغل نفسي بأي شيء آخر غيره؟ هل تعتقد بأنني قرأتُ صحفي؟ انظر!» وألقى لجورج ورقةَ صحيفةٍ كان قد أخذها بطريقة أو بأخرى إلى السرير معه. صحيفة قديمة، تحمل اسماً غير معروف تماماً لجورج.

«كم من الوقت تستغرق لكي تكبر! كان على أمك أن تموت، فهي لم ترَ يوم السعد، صديقك ذاهب إلى أجزاء في روسيا، وحتى قبل ثلاث سنوات كان أصفر بما فيه الكفاية بحيث لا بد أن يُرمى، وبالنسبة لي، فأنت ترى الحالة التي أنا فيها. لديك عينان في رأسك لذلك الغرض!»

«لذلك فأنت قد تتربص بي!» صاح جورج.

قال والده بإشفاق، بطريقة ارتجالية: «أفترضُ بأنك أردتَ أن تقول ذلك عاجلاً. لكن الآن لا يهم». وبصوت أعلى: «إذن الآن أنت تعلم ماذا يوجد هناك في العالم إضافة إلى نفسك، حتى الآن أنت لا تعرف إلا عن نفسك! طفل بريء، نعم، هكذا كنتَ، حقاً، ولكن الذي ما يزال أكثر صدقاً هو أنك كائن شيطاني إنساني!- وبالتالي اعلم الآن: أنا أحكم عليك الآن بالموت غرقاً!»

شعر جورج نفسَه بأنه أثيرَ من الغرفة، إذ إن الاصطدام الذي سقط به والده

على السرير وراءه كان ما يزال يرنّ في أذنيه أثناء فراره. على السلّم، الذي اندفع نازلاً فيه كما لو كانت درجاته سطحاً مائلة، هرع إلى خادمته وهي في طريقها للقيام بالتنظيف الصباحي للغرفة. «يا إلهي!» صاحت، وغطت وجهها بمئزرها، لكنه قد مرّ. خرج من الباب الأمامي، عبر الجادة، مندفعاً نحو الماء. وهكذا كان يمسك بدرابزين السلّم مثل رجل جائع يمسك بالطعام. طوّح بنفسه، مثل لاعب جمباز بارع كان في أوجّ شبابه، افتخاراً بوالديه. وبقبضة واهنة ما زال متمسّكاً حينما لمحَ بين الدرابزين باصاً قادماً غطّى بسهولة على ضوضاء سقوطه، ونادى بصوت منخفض: «والداي العزيزان، أنا دائماً أحبكما، على حد سواء»، ثم سقط.

عند هذه اللحظة كان سيل مستمرّ من السيارات يمرّ فوق الجسر.

المسخ

(I)

بينما استيقظ غريغور سامسا صباح أحد الأيام من أحلام مضطربة وجد نفسه متحولاً في سريره إلى حشرة ضخمة. كان مستلقياً على ظهره الصلب، كما لو أنه كان مدرّعاً، وعندما رفع رأسه قليلاً استطاع أن يرى بطنه البنية الشبيهة بالقبة منقسمة إلى قطع مقوسة قاسية لم يكن بإمكان لحاف السرير في أعلاها أن يبقى في مكانه وكان على وشك الانزلاق بشكل كامل. كانت سيقانه المتعددة، التي بدت رقيقة بشكل يدعو إلى الرثاء بالمقارنة مع بقية بدنه، تلوّح يائسة أمام ناظريه.

ماذا حدث لي؟ فكّرَ. لم يكن حلماً. كانت غرفته، غرفة نوم إنسان عادية، صغيرة جداً إلى حد ما، تربض هادئة بين أربعة جدران مألوفة. وفوق الطاولة التي كانت عليها مجموعة من مختلف الملابس غير المرزومة والمبعثرة ـ حيث كان سامسا تاجراً متجولاً ـ عُلّقت الصورة التي كان قد اقتطعها مؤخراً من مجلة مصورة وضعها في إطار مذهب جميل. كانت تُظهر سيدة، تعتمر قبعة من الفراء وشالاً من الفراء أيضاً، تجلس منتصبة وتمدّ إلى المشاهد غطاء يد من الفراء اختفى داخله كل ساعدها!

تحولت عينا غريغور بعد ذلك إلى النافذة، والسماء الملبدة ـ إذ يمكن للمرء أن يسمع قطرات المطر تضرب على ميزاب النافذة ـ جعلته حزيناً جداً. وفكّر،

ماذا بشأن النوم لفترة أطول قليلاً، ونسيان كل هذا الهراء، لكن لم يكن بالإمكان القيام بهذا، لأنه اعتاد على النوم على جانبه الأيمن وفي ظرفه الحالي لا يقوى على قلب نفسه. فمهما أجبر نفسه جاهداً نحو جانبه الأيمن كان دائماً يتدحرج على ظهره مرة أخرى. جرّب ذلك على الأقل مئات المرات، وهو يغلق عينيه لكي لا يرى ساقيه المتأرجحتين، ولم يكفّ عن ذلك إلاّ عندما بدأ يشعر في جانبه وجعاً ممضاً خفيفاً لم يشهده من قبل.

يا إلهي، فكّر، يا لها من وظيفة مرهقة تلك التي اخترتها! وهي السفر يوماً بعد يوم. إنه عمل أكثر إزعاجاً من القيام بالأعمال الحقيقية في المكتب، وعلى رأس ذلك هناك عناء السفر المستمر، وعناء القلق حول مواصلة القطارات، والمنام وعدم انتظام وجبات الطعام، والمعارف العرضية التي تكون دائماً جديدة ولا تصبح أبداً صداقات حميمة. فليأخذها الشيطان كلها! شعر بحكة خفيفة في أعلى بطنه؛ لذا دفع نفسه ببطء على ظهره بالقرب من أعلى السرير حتى يتمكن من رفع رأسه بسهولة أكبر؛ وحدّد مكان الحكة التي كانت محاطة بالعديد من البقع الصغيرة البيضاء التي لم يفهم طبيعتها وجعل يلمسها بإحدى سيقانه، لكنه سحب ساقه فوراً، لأن الاحتكاك جعل رعشة باردة تسري في أوصاله.

انزلق إلى الأسفل مرة أخرى إلى وضعه السابق. وفكّر بأن هذا الاستيقاظ مبكراً يجعل المرء غبياً جداً. فالإنسان يحتاج النوم. أما التجار الآخرون فيعيشون مثل الحريم. على سبيل المثال، عندما أعود إلى الفندق صباحاً لكتابة الطلبات التي عندي، أجد هؤلاء الآخرين يجلسون إلى مائدة الإفطار. دعني أجرّب ذلك مع رئيسي؛ وسوف أطرَد على الفور. على أية حال، قد يكون ذلك شيئاً جيداً لا بأس به بالنسبة لي، مَن يدري؟ ولو لم تكن هناك ضرورة للاحتفاظ بعملي بسبب والديّ لأعطيتُ إشعاراً بذلك منذ فترة طويلة، ولذهبتُ إلى الرئيس وقلتُ له بالضبط ما أراه فيه. وذلك من شأنه أن يطرحه أرضاً من على مكتبه! إنها طريقة

غريبة للقيام، أيضاً، بهذا الجلوس عالياً إلى مكتبٍ والتحدث إلى الموظفين، وخاصة عندما يضطرون إلى الاقتراب أكثر كون الرئيس ثقيل السمع. حسناً، ما يزال ثمة أمل؛ إذ ما إن أكون قد وفّرتُ ما يكفي من المال لتسديد ديون والديّ له ـ حيث لا بد أن يستغرق هذا خمس أو ست سنوات ـ فإنني سأفعل ذلك دون تردد. عندئذٍ سأتحرر تماماً. في الوقت الحاضر، على الرغم من كل هذا، أفضّل النهوض، لأن قطاري يمضي في الساعة الخامسة.

نظر في الساعة المنبهة التي تدق فوق الصندوق. يا أبانا الذي في السماء! فكّر. كانت الساعة السادسة والنصف والعقارب تتحرك بهدوء، بل تجاوز الوقت نصف الساعة، واقترب من حوالي الساعة السابعة إلاّ ربعاً. ألم ينطلق رنين الساعة المنبهة؟ من السرير بإمكان المرء أن يرى بأنها قد تم توقيتها بشكل صحيح على الساعة الرابعة؛ بالتأكيد لا بد أنها قد رنّت. نعم، ولكن هل كان من الممكن أن ينام بهدوء مع تلك الضوضاء التي تصمّ الآذان؟ حسناً، إنه لم ينم بهدوء، مع ذلك على ما يبدو في الظاهر أنه نام نوماً عميقاً. لكن ما الذي عليه أن يفعله الآن؟ فالقطار القادم يمضي في الساعة السابعة؛ وللّحاق به كان عليه أن يسرع مثل المجنون وبينما حاجياته لم تُحزَم حتى، كما أنه هو نفسه لم يشعر بالنشاط والتجدد على نحو خاص. وحتى لو لحق بالقطار فإنه لن يتجنب الخلاف مع الرئيس، لأن حمّال الشركة كان ينتظر قطار الساعة الخامسة وستكون قد مضت فترة طويلة على تبليغه بهذا التخلف. كان الحمّال مخلوقاً من أتباع الرئيس، ضعيف الشخصية وغبياً. حسناً، لنفترض أنه كان سيقول بأنه مريض؟ لكن ذلك سيكون غير مرضٍ، وسوف يبدو مشكوكاً فيه، لأنه خلال عمله الذي دام خمس سنوات لم يكن مريضاً ولو لمرة واحدة. كما أن الرئيس نفسه من المؤكد أن يحضر بمعية طبيب التأمين الصحي، وسيوبّخ أبويه على كسل ابنهما، وسيرفض كل الأعذار بالرجوع إلى طبيب التأمين الصحي، الذي بالطبع

يرى البشرية جمعاء بأنهم متمارضون يفيضون صحة. فهل سيكون حتى الآن مخطئاً في هذه الحالة؟ إذ إن غريغور شعر بالتحسّن، ما عدا شيء من الخمول الذي كان لا طائل من ورائه تماماً بعد هذا النوم الطويل، بل حتى كان جائعاً على نحو غير عادي.

وبينما كان كل هذا يدور في ذهنه بسرعة فائقة من دون أن يكون قادراً على أن يقرر ترك سريره ـ دقت ساعة التنبيه السابعة إلاّ ربعاً ـ حيث جاءت هناك ضربة حذرة على الباب خلف رأس سريره. «غريغور»، قال الصوت ـ إنه صوت والدته ـ «الوقت هو السابعة إلاّ ربعاً. ألم يكن لك قطار لتلحق به؟» يا له من صوت لطيف! انتابت غريغور صدمة عندما سمع صوته يجيب نداءها، صوته هو بلا أدنى شك، كان ذلك صحيحاً، ولكنه مصحوب بصرير مستمر مزقزق مخيف مثل نغمة واهنة، تركت الكلمات فى شكلها الواضح فقط للوهلة الأولى ومن ثم ارتفعت [هذه النغمة الواهنة] مدوية حولها لتدمر معناها، بحيث أن المرء لا يستطيع أن يتيقّن بأنه قد سمعها بشكل صحيح. أراد غريغور أن يجيب بعد طول انتظار ويشرح كل شيء، ولكن في الظروف التي حدد فيها نفسه قائلاً: «نعم، نعم، شكراً لك، يا أماه، ها أنذا أنهض من فراشي الآن». بيد أن الباب الخشبي بينهما لا بد أنه أبقى التغيير في صوته غير ملاحَظ من الخارج، لهذا اقتنعت أمه بهذه العبارة وانسلّت مبتعدة. مع ذلك، فإن هذا التبادل الوجيز من الكلمات جعل أعضاء الاسرة الآخرين على علم بأن غريغور ما يزال في المنزل، على عكس ما توقعوا، وعند أحد الأبواب الجانبية كان والده يطرق، بلطف، ولكن بقبضته منادياً: «غريغور، غريغور، ما خطبك؟» وبعد هنيهة نادى مرة أخرى بصوت أعمق: «غريغور! غريغور!» وعند الباب الجانبي الآخر كانت أخته تقول بنبرة خفيضة، حزينة: «غريغور؟ ألستَ على ما يرام؟ هل تحتاج أي شيء؟» وأجابهما حالاً: «ها أنذا جاهز»، وبذل قصارى جهده لجعل صوته يبدو طبيعياً قدر الإمكان

عن طريق نطق الكلمات بشكل واضح جداً وترك وقفات طويلة بينها. وهكذا ذهب والده لتناول إفطاره، إلا أن شقيقته همست: «غريغور، افتح الباب، رجاء». على أية حال، لم يفكر في فتح الباب، وشعر بالامتنان لهذه العادة الحكيمة التي اكتسبها في السفر المتمثلة في قفل جميع الأبواب ليلاً، حتى في البيت.

كانت نيته المباشرة هي النهوض بهدوء من دون ازعاج، وارتداء ملابسه وقبل كل شيء تناول وجبة إفطاره، وبعد ذلك فقط ينظر ما الذي ينبغي القيام به، لأنه طالما هو في السرير، كان يدرك جيداً، بأن تأملاته لا تأتي بأيما استنتاج معقول. وتذكر بأنه طالما يمكث طويلاً في الفراش فإنه يشعر بآلام وأوجاع بسيطة، ربما بسبب أوضاع نومه المزعجة، التي تبيّنَ بأنها خيالية بحتة ما إن نهض، وأخذ يتطلع بفارغ الصبر لرؤية أوهام هذا الصباح وهي تتبدد تدريجياً. ذلك التغير في صوته لم يكن سوى مقدمة لنوبة برد شديدة، وهو مرض يصيب التجار المتجولين، ولم يكن عنده أدنى شك في ذلك.

إن التخلص من اللحاف كان سهلاً جداً؛ إذ ما كان عليه سوى الانكماش قليلاً وسوف يسقط [اللحاف] من تلقاء نفسه. لكن الخطوة التالية كانت صعبة، خاصة لأنه كان عريض الجسم بشكل غير مألوف. وسيحتاج أذرعاً وأيادي لرفع نفسه؛ وبدلاً عن ذلك ليس لديه سوى السيقان الصغيرة المتعددة التي لم تتوقف أبداً عن الحركة في جميع الاتجاهات والتي لا يمكنه التحكم فيها على الأقل. وعندما حاول ثني إحداها فقد كانت الأولى التي مدّت نفسها مباشرة؛ ونجح في النهاية في جعلها تفعل ما أراده منها، بينما اضطربت كل السيقان الأخرى اضطراباً شديداً بدرجة عالية من الانفعال غير السار. وقال غريغور في نفسه، «لكن ما الفائدة من وراء الاضطجاع خاملاً في السرير».

فكّر بأنه ربما يخرج من السرير مبتدئاً بالجزء السفلي من جسمه أولاً، لكن الجزء السفلي هذا، الذي لم يره حتى الآن والذي لم يتمكن أن يشكّل من خلاله

أي تصور واضح، كان من الصعب جداً تحريكه؛ إذ إنه تحول ببطء شديد؛ وعندما أخيراً، تقريباً بانزعاج شديد، استجمع قواه واندفع خارجاً بتهور، كان قد أخطأ الاتجاه واصطدم بشدة بالطرف السفلي من السرير، وجعله الألم الممض الذي شعر به يعلم بأن هذا الجزء السفلي من جسمه بالتحديد كان في تلك الحظة ربما الأكثر حساسية.

وهكذا حاول أن يُخرج الجزء العلوي من جسمه أولاً، وبحذر نقل رأسه نحو حافة الفراش. بدا ذلك سهلاً للغاية، وعلى الرغم من عرضه وكتلته تبع جذعُه أخيراً وببطء حركةَ رأسه. مع ذلك، عندما حرّر في نهاية المطاف رأسَه على حافة الفراش شعر أنه خائف جداً بحيث لا يتمكن من مواصلة التقدم، لأنه بعد كل هذا إذا سمح لنفسه بالوقوع بهذه الطريقة فسيتطلب الأمرُ معجزة للحفاظ على رأسه من التعرض للإصابة. ومهما كلّف الثمن لا بد له ألا يفقد وعيه الآن، بالضبط الآن؛ إذ من الأفضل أن يبقى في الفراش.

ولكن بعد تكرار الجهود نفسها استقرّ في وضعه السابق مرة أخرى، متنهداً، وشاهد سيقانه الصغيرة تكافح ضد بعضها البعض أكثر من أي وقت مضى، لو كان ذلك ممكناً، ولم يرَ أية وسيلة لإعادة النظام إلى هذا الارتباك التعسفي، لأخبرَ نفسه ثانية بأنه من المستحيل البقاء في الفراش وأن أكثر أسلوب منطقي هو المخاطرة بكل شيء من أجل تحقيق الأمل الأصغر في الخروج منه. في الوقت نفسه لم ينسَ أن يذكّر نفسَه في بعض الأحيان بأن التفكير الهادئ، أهدأ ما يمكن من التفكير، هو أفضل بكثير من القرارات اليائسة. في مثل هذه اللحظات ركّز عينيه بأشد ما يمكن على النافذة، لكن، للأسف، مرأى ضباب الصباح، الذي لفّ حتى الجانب الآخر من الشارع الضيق، أعطاه النزر اليسير من التشجيع والراحة. «الساعة السابعة» حدّث نفسه عندما دقت ساعة التنبيه مرة أخرى، «الساعة السابعة وما يزال يخيّم مثل هذا الضباب الكثيف». ولبرهة استلقى هادئاً، وهو

يتنفس قليلاً، كما لو أنه ربما يتوقع بأن مثل هذه الراحة التامة ستعيد كل شيء إلى حالته الحقيقية والطبيعية.

ولكن بعد ذلك قال في نفسه: «قبل أن تدق الساعة السابعة والربع ينبغي أن أكون تماماً خارج هذا الفراش، من دون تأخير. على أية حال، في ذلك الوقت سيكون شخصٌ ما قد أتى من المكتب ليسأل عني، لأنه يفتح قبل السابعة». وأخذ يهزّ جسمه بالكامل حالاً بإيقاع منتظم، بغية تأرجحه للخروج من الفراش. ولو أمال بنفسه إلى الخارج بتلك الطريقة لتمكّنَ من حماية رأسه من الإصابة عن طريق رفعه بزاوية حادة عندما يسقط. بدا ظهره صلباً، ومن غير المحتمل أنه يعاني من سقوط على السجادة. كان مصدر قلقه الأكبر منصباً على الاصطدام بصوت عالٍ الذي لن يكون بمقدوره تحاشيه، الأمر الذي من المحتمل أن يسبّب القلق، إن لم يكن الرعب، وراء كل الأبواب. مع ذلك، عليه أن يركب الأهوال.

عندما أصبح في منتصف طريقه للخروج من الفراش ـ كان الأسلوب الجديد لعبة أكثر منه جهداً، لأنه لم يكن بحاجة إلاّ إلى ربط نفسه عن طريق التطوّح جيئة وذهاباً ـ وقد هاله كم سيكون الأمر سهلاً لو تلقّى المساعدة. شخصان قويان ـ فكّر بوالده والخادمة ـ سيكونان كافيين إلى أبعد حد؛ لا يتوجب عليهما سوى دفع أذرعهما تحت ظهره المحدّب، ورفعه خارج الفراش، والانحناء إلى الأسفل بحملهما، ومن ثم التحلّي بما فيه الكفاية من الصبر للسماح له بقلب نفسه تماماً على الأرض، حيث من المؤمل أن تجد سيقانه وظيفتها الصحيحة. حسناً، عند تجاهل حقيقة أن الأبواب كانت مغلقة، فهل يجب عليه حقاً أن يطلب المساعدة؟ وعلى الرغم من بؤسه فإنه لم يكبت ابتسامة على فكرة كهذه.

لقد بلغ حداً الآن بحيث إنه بالكاد تمكّن من الاحتفاظ بتوازنه عندما هزّ نفسه بقوة، وعليه أن يستجمع شجاعته بأقرب وقت ممكن لاتخاذ القرار النهائي لأنه في ظرف خمس دقائق سيكون الوقت السابعة والربع ـ عندما يدق جرس

الباب الأمامي. «ذلك شخص ما من المكتب»، قال في نفسه، وتجمّد تقريباً، في حين ارتجّت سيقانه الصغيرة بسرعة كبيرة. وللحظة بقي كل شيء هادئاً. «إنهم لن يفتحوا الباب»، قال غريغور في نفسه، وهو يتشبّث بنوع من أملٍ غير منطقي. لكن بعد ذلك بالطبع ذهبت الخادمة كالعادة إلى الباب بخطواتها الثقيلة وفتحته. ولم يكن غريغور بحاجة سوى إلى سماع أول صباح الخير التي يقولها الزائر ليعرف على الفور مَن القادم ـ لقد كان كبير الموظفين نفسه. يا له من قدر، حيث تتم إدانتك في العمل في شركة كان أقل سهوٍ فيها يؤدي في الحال إلى أخطرِ الشبهات! هل كان جميع العاملين برمتهم لا شيء سوى أوغاد، ألم يكن بينهم رجل واحد مخلص وفيّ، لم يضيّع سوى ساعة واحدة أو نحوها من وقت الشركة في الصباح، وكان يعذّبه ضميره ليفقد صوابه ويكون فعلاً غير قادر على مغادرة فراشه؟ ألا يكفي فعلاً إرسال المتدرب للاستفسار ـ إن كان أي استفسار ضرورياً بالمرة ـ هل يتحتم على كبير الموظفين نفسه أن يأتي وبالتالي يشير إلى جميع أفراد العائلة، وهي عائلة بريئة، بأن هذا الظرف المشبوه لا يمكن التحقيق فيه على يد أي شخص أقل براعة في هذه الشؤون منه شخصياً؟ ومن خلال الإثارة الناجمة عن هذه التأملات أكثر منه عبر أي دافع من دوافع الإرادة حيث طوّح غريغور بنفسه خارجاً من الفراش بكل ما أوتي من قوة. ثمة دويّ بصوت عال، لكنه لم يكن اصطداماً حقاً. إذ إن سقوطه خففته السجادة إلى حد ما، وظهره، أيضاً، كان أقل صلابة مما كان يعتقد، وهكذا كانت هناك مجرد صدمة حمقاء، وليست مذهلة جداً. هو ببساطة لم يرفع رأسه بعناية كبيرة ولهذا ضربه؛ عندها أداره وفركه على السجادة بألم وتهيج.

«كان ذلك شيئاً ما سقط في الداخل هناك»، قال كبير الموظفين في الغرفة المجاورة إلى اليسار. حاول غريغور أن يفترض لنفسه أن شيئاً مثل الذي حدثَ له اليوم قد يحدث في يوم من الأيام لكبير الموظفين؛ إذ لا أحد ينكر حقاً

بأن ذلك ممكن. ولكن كردٍّ قاسٍ لهذا الافتراض، اتخذ كبير الموظفين خطوتين ثابتتين في الغرفة المجاورة وصرّ حذاؤه الجلدي اللماع. ومن الغرفة اليمنى كانت أخته تهمس لإبلاغه بالوضع: «يا غريغور، كبير الموظفين هنا». «أنا أعرف»، تمتم غريغور في نفسه؛ لكنه لم يجرؤ على رفع صوته بما فيه الكفاية بحيث تسمعه أخته.

قال والده الآن من الغرفة اليسرى «يا غريغور، لقد جاء كبير الموظفين ويريد أن يعرف لماذا لم تلحق بالقطار المبكر. نحن لا نعرف ماذا نقول له. وعلاوة على ذلك، يريد أن يتحدث إليك شخصياً. لذلك افتح الباب، من فضلك. وسيكون طيباً بما فيه الكفاية لتبرير عدم ترتيب غرفتك». «صباح الخير، سيد سامسا»، حيّاه كبير الموظفين بشكل ودّي في أثناء ذلك. «إنه ليس على ما يرام»، قالت والدته للزائر، في حين كان والده ما يزال يتحدث من خلال الباب، «إنه ليس على ما يرام، يا سيدي، صدقني. فأي شيء آخر يجعله يتخلف عن القطار! فالفتى لا يفكر في شيء سوى عمله. ويحزّ في نفسي تقريباً أنه لم يخرج قط في الأماسي؛ لقد كان هنا في ثمانية الأيام الأخيرة ولزم البيت كل مساء. هو فقط يجلس هناك بهدوء إلى الطاولة يقرأ صحيفة أو ينظر في مواعيد القطارات. والتسلية الوحيدة التي يحصل عليها هي من خلال قيامه بالزخرفة. على سبيل المثال، أمضى ليلتين أو ثلاث ليالٍ في عمل إطار صورة صغير؛ سوف تندهش كم هو جميل؛ إنه معلق في غرفته؛ ستراه في ظرف دقيقة واحدة عندما يفتح غريغور الباب. لا بد أن أقول أنا سعيدة لأنك قد أتيتَ، يا سيدي؛ لا ينبغي لنا أبداً أن نرغمه على فتح الباب؛ فهو عنيد جداً؛ وأنا متأكدة من أنه ليس على ما يرام، على الرغم من أنه لم يكن في تصوّره أن يتأخر في هذا الصباح». «إنني آتٍ للتو»، قال غريغور ببطء وبتؤدة، من دون أن يتحرّك بوصة واحدة خوفاً من فقدان كلمة واحدة من المحادثة. «لا أستطيع التفكير بأي تفسير آخر، يا سيدتي»، قال كبير الموظفين

وأضاف، «آمل أن لا شيء خطراً. برغم أنه من ناحية أخرى يجب أن أقول إننا معشر رجال الأعمال ـ لحسن الحظ أو لسوئه ـ في كثير من الأحيان علينا ببساطة تجاهل أية وعكة طفيفة، لأنه لا بد من الاهتمام بالعمل». «حسناً، هل يمكن لكبير الموظفين أن يدخل الآن؟» سأل والدُ غريغور بفارغ الصبر، وهو يطرق مرة أخرى على الباب. «لا»، قال غريغور. في الغرفة اليسرى، تبع هذا الرفض صمتٌ مؤلمٌ، وفي الغرفة اليمنى بدأت شقيقته تنتحب.

لماذا لم تنضم شقيقته إلى الآخرين؟ ربما كانت حديثة العهد في خروجها من الفراش ولم تبدأ بارتداء ملابسها حتى الآن. حسناً، لماذا كانت تبكي؟ هل لأنه لم ينهض ولم يسمح لكبير الموظفين بالدخول، ولأنه يخشى فقدان وظيفته، ولأن الرئيس سيبدأ بمضايقة والديه مرة أخرى بمطالبته بالديون القديمة؟ بالتأكيد كانت هذه الأمور التي لا حاجة للمرء أن يقلق بشأنها في الوقت الحاضر. كان غريغور ما يزال في البيت ولم يكن لديه أدنى تفكير بالفرار من الأسرة. في هذه اللحظة، صحيح، كان يستلقي على السجادة ولا أحد ممن عرفوا الحالة التي كان فيها يمكنه بجدية أن يتوقع منه أن يسمح لكبير الموظفين بالدخول. ولكن بالنسبة لمثل هذه الفظاظة الصغيرة، التي يمكن تفسيرها بشكل معقول فيما بعد، لا يمكن لغريغور أن ينصرف على الفور. وبدا لغريغور بأنه من الصواب أن يتركوه بسلام في الوقت الحاضر بدلاً من إزعاجه بالدموع والتوسلات. ومع ذلك، بالطبع، عدم تأكدهم حيّرهم جميعاً وغفر سلوكهم.

نادى كبيرُ الموظفين الآن بصوت أعلى، «يا سيد سامسا، ما خطبك؟ ها أنت تحبس نفسك في غرفتك، مكتفياً بـ«نعم» و«لا» في إجاباتك، مسبباً لوالديك الكثير من المتاعب التي لا داعي لها والاهمال ـ إنني فقط أمرّ على هذا مرور الكرام ـ وهو إهمالك لواجبات عملك بطريقة لا تصدق. أنا أتحدث هنا باسم والديك وباسم رئيسك، وأتوسل إليك جاداً أن تعطيني تفسيراً فورياً ودقيقاً. أنت

تُدهشني، أنت تُدهشني. كنت أظنك شخصاً هادئاً، شخصاً يمكن الاعتماد عليه، والآن كل شيء على حين غرة يشير إلى أنك عازم على تقديم استعراض مشين لنفسك. لقد لمّح لي الرئيس في وقت سابق من هذا الصباح بتفسير محتمل لغيابك ـ مع الإشارة إلى المدفوعات النقدية التي أُسنِدَت إليك مؤخراً ـ لكنني التزمتُ تقريباً بكلمة الشرف التي قطعتها بأن مثل هذا لا يمكن أن يحدث. لكن الآن بعد أن رأيتُ كم أنت عنيد بشكل لا يصدّق، فأنا لم تعد لدي أدنى رغبة للوقوف معك على الإطلاق. كما أن وضعك في الشركة ليس منيعاً جداً. لذلك نويتُ أن أخبرك عن كل هذا على انفراد، ولكن لأنك تضيّع وقتي من دون داعٍ فإنني لا أرى سبباً لماذا لا ينبغي لوالديك سماع هذا أيضاً. منذ وقت مضى لم يكن عملك مرضياً؛ وهذا ليس موسم ازدهار للأعمال التجارية في هذه السنة، بطبيعة الحال، علينا أن نعترف بذلك، ولكن الموسم الذي لا نقوم فيه بأي عمل على الإطلاق، فلا وجود له، يا سيد سامسا، لا بد أن يكون لا وجود له».

«لكن، يا سيدي»، صاح غريغور، غاضباً وثائراً متناسياً كل شيء آخر: «إنني ذاهب لأفتح الباب في هذه اللحظة بالذات. لكن وعكة طفيفة، نوبة من الغثيان، حالت دون استيقاظي. ما زلتُ مستلقياً في الفراش. لكنني أشعر بتحسن مرة أخرى. إنني أخرج من الفراش الآن. فقط أمهلني لحظة أو اثنتين! لستُ على ما يرام تماماً مثلما ظننت. لكنني بخير، حقاً. كيف يمكن لشيء من هذا القبيل أن يُلقي بالمرء أرضاً فجأة! لم أتحسن سوى الليلة الماضية، يمكن لوالديّ أن يخبراك، وإلاّ ما كان الذي تملّكني مجرد هاجس طفيف. لا بد أن أوضّح ذلك. لماذا لم أبلغ عن هذا في المكتب! لكن المرء دائماً ما يعتقد بأن الوعكة يمكن تجاوزها من دون البقاء في المنزل. يا سيدي، ارحم والديّ! فكل الذي تؤنّبني عليه ليس له الآن أي أساس؛ إذ لا أحد قال لي كلمة واحدة حول هذا الموضوع. ربما لم تكن قد نظرتَ إلى الطلبات الأخيرة التي بعثتُ بها. على أية حال، ما

يزال بإمكاني اللحاق بقطار الساعة الثامنة، وأنا أفْضل كثيراً بسبب راحتي لبضع ساعات. لا ينبغي أن تتأخر هنا بسببي، يا سيدي؛ سأباشر عملي في وقت قريب جداً، فهلا تكرّمتَ وأخبرتَ الرئيس بذلك، وقدّمتَ اعتذاراتي له!»

وعلى الرغم من اختلاط هذا كلّه، وكان غريغور بالكاد يعرف ما كان يقوله، كان قد وصل إلى الصندوق بسهولة كبيرة، ربما بسبب الممارسة التي داوم عليها في الفراش، وهو الآن يحاول رفع نفسه مستقيماً بفضل هذا الصندوق. كان يقصد في الواقع فتح الباب، وفعلاً لإظهار نفسه والتحدث إلى كبير الموظفين؛ حيث كان حريصاً على معرفة ما سيقوله الآخرون، بعد كل إصرارهم هذا، عندما يرونه. فإن خالجهم الروع عندئذ لم تقع المسؤولية على عاتقه وبإمكانه البقاء هادئاً. ولكن إذا أخذوا الأمر بروية، عندها ليس لديه أي سبب للانزعاج بالمرة، ويمكنه حقاً الذهاب إلى المحطة ليلحق بقطار الساعة الثامنة إذا أسرع. في البداية انزلق إلى الأسفل عدة مرات من السطح المصقول للصندوق، ولكنه في النهاية بحركة أخيرة وقف منتصباً؛ ولم يلتفت إلى الآلام في الجزء السفلي من جسمه، مهما شعر بها. ثم سمح لنفسه بالسقوط على ظهر كرسي قريب، وتشبث بسياقانه القصيرة بجوانب الكرسي. وهذا أعاد السيطرة إليه مرة أخرى وتوقف عن التحدث، لأنه الآن بإمكانه أن يستمع إلى ما كان يقوله كبير الموظفين.

سأل كبير الموظفين «هل فهمتم كلمة من ذلك؟ بالتأكيد إنه لا يستطيع أن يحاول استغفالنا؟» وصاحت أمه باكية «يا عزيزي، ربما يكون مريضاً جداً ونحن نعذّبه بهذا. ثم نادت، غريتا! غريتا! وأجابتها أخته من الجانب الآخر، «نعم يا أماه؟» كانتا تناديان بعضهما البعض عبر غرفة غريغور. «يجب أن تذهبي في هذه اللحظة إلى الطبيب. غريغور مريض. اذهبي إلى الطبيب، هيا أسرعي. هل سمعتِ كيف كان يتكلم؟» «لم يكن ذلك صوتاً بشرياً»، قال كبير الموظفين بصوت خفيض بشكل ملحوظ مقابل حدة صوت الأم. «آنا! آنا!»، كان أبوه يصيح

من خلال القاعة إلى المطبخ وهو يضرب يديه معاً، «اجلبي صانع الأقفال حالاً» وانطلقت الفتاتان عبر القاعة وسُمِع حفيف تنورتيهما ـ كيف استطاعت أخته أن ترتدي بهذه السرعة؟ ـ وفتحتا الباب الأمامي على مصراعيه. لم يُسمع صوت انغلاقه مرة أخرى؛ من الواضح أنهما تركتاه مفتوحاً، تماماً مثلما يفعل المرء في المنازل عندما يحصل خطب عظيم.

لكن غريغور الآن اصبح أكثر هدوءاً. ولم تعد الكلمات التي كان ينطقها مفهومة، على ما يبدو، على الرغم من أنها بدت واضحة بما فيه الكفاية له، بل حتى أكثر وضوحاً من ذي قبل، ربما لأن أذنه قد اعتادت على صوتها. مع ذلك، على أية حال، ظنّ الناس الآن بأن خطباً قد ألمّ به، وكانوا على استعداد لمساعدته. إن اليقين الإيجابي الذي تمّ اتخاذ هذه التدابير الأولى بموجبه قد أراحه. شعر بأنه انسحب مرة أخرى إلى الدائرة البشرية وطمح إلى نتائج عظيمة ورائعة من كلّ من الطبيب وصانع الأقفال، من دون أن يميّز بدقة بينهما. ومن أجل جعل صوته واضحاً قدر الإمكان في المحادثة الحاسمة التي كانت الآن وشيكةً، سعل قليلاً، بهدوء، بطبيعة الحال، ذلك لأن هذا الضجيج أيضاً ربما لا يبدو مثل سعال بشري فهو ما زال قادراً على أن يحتسب لكل شيء. في الغرفة المجاورة في غضون ذلك ثمة صمت مطبق. ربما كان والداه يجلسان إلى الطاولة مع كبير الموظفين، يتهامسون، ربما كانوا جميعاً متكئين على الباب ويستمعون.

وببطء دفع غريغور الكرسي نحو الباب، ثم تركه، وتمسّك بالباب ليستند عليه ـ كانت بواطن أقدامه عند نهاية سيقانه الصغيرة لزجة نوعاً ما ـ لذلك استند إلى الباب بعد جهوده هذه. ثم هيأ نفسه ليُدير المفتاح في القفل بفمه. لكن بدا، لسوء الحظ، أنه لم يكن لديه حقاً أية أسنان ـ فبماذا يستطيع أن يقبض على المفتاح؟ ـ ولكن من ناحية أخرى كان فكاه بالتأكيد قويين جداً؛ إذ بمساعدتهما تمكّن من تحريك المفتاح، دون الالتفات إلى حقيقة أنه كان يدمّرهما بلا شك

في مكان ما، لأن سائلاً بنياً انبجس من فمه، وتدفّق على المفتاح، وسال على الأرض. «فقط استمع إلى ذلك»، قال كبير الموظفين من الناحية المقابلة. «إنه يدير المفتاح». كان هذا تشجيعاً كبيراً لغريغور؛ ولكن الجميع صاحوا بعبارات التشجيع له، والده وأمه أيضاً: «هيا، يا غريغور»، صاح الجميع «عليك بالاستمرار، تمسّك بهذا المفتاح!» وإيماناً منه بأنهم كانوا جميعاً يتابعون جهوده باهتمام، أطبق بفكيه بتهور على المفتاح بكل ما أوتي من قوة. وبينما استمرت عملية تدوير المفتاح فإنه أدار نفسه حول القفل، الذي يمسكه الآن بفمه فقط، ويدفع المفتاح، كما هو مطلوب، أو يسحبه مرة أخرى بكل ثقل جسمه. إن الطقطقة بصوت أعلى التي يصدرها القفل أخيراً جعلت غريغور يسرع في مهمته. وبزفرة ارتياح عميقة قال في نفسه: «لذلك لم أكن بحاجة إلى صانع الأقفال»، ووضع رأسه على المقبض ليفتح الباب على مصراعيه.

ولأن عليه سحب الباب نحوه، كان ما يزال غير مرئي عندما كان بالفعل مفتوحاً على مصراعيه. وكان عليه أن يحرك نفسه ببطء حول النصف القريب من الباب المزدوج، ولكي يقوم بذلك بعناية فائقة لتفادي عدم وقوعه مقلوباً على ظهره على العتبة تماماً. كان ما يزال ينفّذ هذه المناورة الصعبة، مع عدم وجود وقت لملاحظة أي شيء آخر، عندما سمع كبير الموظفين يصيح بصوتٍ عال: «أوه!» ـ بدت وكأنها هبّة ريح ـ والآن كان بإمكانه أن يرى الرجل، واقفاً كما كان بأقرب نقطة من الباب، لاطماً بإحدى يديه فمه المفتوح وببطء تراجع كما لو أن ضغطاً ثابتاً غير مرئي قد دفعه إلى ذلك. والدته ـ على الرغم من وجود كبير الموظفين كان شعرها ما يزال غير مرتّب ومنفوش في كل الاتجاهات ـ شبكت أولاً يديها ونظرت إلى والده، ثم خطت خطوتين نحو غريغور وسقطت على الأرض على تنورتها الممدودة، فاختفى وجهها تماماً في صدرها. ضمّ والده قبضته وهو يشيح بتعابير صارمة على وجهه كما لو أنه كان يقصد أن يعيد

غريغور إلى غرفته، ثم نظر بعدم يقين حول غرفة الجلوس، وغطى عينيه بيديه، وأخذ يبكي حتى اضطرب صدره الواسع.

لم يذهب غريغور الآن إلى غرفة الجلوس، لكنه انحنى على الجزء الداخلي لضلفة الباب المحكمة السد، بحيث لم يُرَ سوى نصف جسمه بينما ينحني رأسه فوقها بشكل جانبي لينظر إلى الآخرين. كان الضوء في هذه الأثناء قد اشتد؛ لذلك على الجانب الآخر من الشارع يمكن للمرء أن يرى بوضوح مقطعاً من البناية الطويلة بلا نهاية، المظلمة، الرمادية، في الجهة المقابلة ـ كانت هذه مستشفى ـ تتخللها فجأة صفوف من النوافذ المنتظمة؛ كان المطر ما يزال ينهمر، ولكن بقطرات كبيرة واضحة منفردة وبالضبط بطرطشات منفردة. وأعدّت أطباق الإفطار على الطاولة ببذخ، لأن الإفطار كان أهم وجبة في اليوم لوالد غريغور، الذي كان يتلكأ لساعات منشغلاً بمختلف الصحف. وبالضبط مقابل غريغور على الحائط عُلقت صورة له بالبزة العسكرية، كملازم، يده على السيف، وتعبر وجهه ابتسامة هانئة، تجعل المرء يحترم بدلته ورتبته العسكرية. كان الباب المؤدي إلى الصالة مفتوحاً، وبوسع المرء أن يرى بأن الباب الأمامي مفتوح أيضاً، يبدو خلفه مهبط السلم وبداية السلّم النازل.

«حسناً»، قال غريغور، وهو يعلم تماماً بأنه الوحيد الذي لم يعد يحتفظ برباطة جأشه، «سأرتدي ملابسي على الفور، وأحزم حاجياتي، وأنطلق. هل ستسمحون لي أن أذهب؟ كما ترى، يا سيدي، أنا لست عنيداً، ولكنني على استعداد للعمل؛ فالسفر هو حياة صعبة، إلاّ أنني لا أستطيع العيش دونه. إلى أين أنت ذاهب يا سيدي؟ إلى المكتب؟ نعم فعلاً؟ هل ستعطي وصفاً صحيحاً لكل هذا؟ ربما يكون المرء عاجزاً مؤقتاً، لكن هذه هي مجرد اللحظة التي يتذكر فيها الخدمات السابقة ومع الأخذ في الاعتبار بأنه في وقت لاحق، عندما يتم التغلب على هذا العجز، فإن المرء بالتأكيد سيعمل بكل ما أوتي من ذكاء

وتركيز. أنا مفطور بإخلاص لخدمة الرئيس، وأنت تعرف ذلك جيداً. إلى جانب ذلك، لا بد لي أن أعيل والديّ وأختي. إنني أمرّ بمصاعب كبيرة، لكنني سأخرج منها مرة أخرى. لا تجعل الأمور أكثر سوءاً مما هي عليه. قف إلى جانبي في الشركة. فالتجار المتجولون غير مرحبٍ بهم هناك، أعرف هذا. فالناس يعتقدون بأنهم يكسبون أكياساً من المال ويتمتعون بأجمل الأوقات، وهو إجحاف ليس ثمة سبب معين لمراجعته. لكنك، يا سيدي، تمتلك نظرة للأمور أشمل من بقية الموظفين، نعم، اسمح لي أن أسرّ لك أمراً، بل وأشمل من الرئيس نفسه، الذي، بصفته المالك، يسمح لحكمه أن يميل بسهولة ضد أحد موظفيه. وأنت تعرف تمام المعرفة بأن التاجر المتجول، الذين لم يرهم أحد في المكتب على مدار السنة تقريباً، يمكن أن يقعوا بسهولة ضحية القيل والقال وسوء الحظ والشكاوى التي لا أساس لها، التي لا يعرفون في الغالب أي شيء عنها، إلاّ عندما يعودون منهكين من جولاتهم، وعندئذ فقط يعانون شخصياً من عواقبها المريرة، التي لم يعودوا قادرين على إرجاعها إلى الأسباب الأصلية. يا سيدي، يا سيدي، لا تخرج من دون أن تقول لي كلمة واحدة لإظهار أنك تظنني على صواب إلى حد ما على الأقل!»

لكن عند سماعه كلمات غريغور الأولى تراجع كبير الموظفين ولم يفعل شيئاً سوى التحديق في وجهه بفم فاغر فوق كتف مرتعش. وعندما كان غريغور يتحدث لم يشأ أن يتوقف لحظة واحدة لكنه انسلّ بعيداً نحو الباب، من دون أن يرفع عينيه عن غريغور، ولو بشبر واحد فقط في كل مرة، كما لو أنه يطيع أمراً سرياً بمغادرة الغرفة. وكان بالفعل في الصالة، والحركة الفجائية التي أخذ بها خطوته الأخيرة للخروج من غرفة الجلوس جعلت المرء يعتقد بأنه حرق باطن قدمه. ما إن كان في الصالة حتى بسط ذراعه اليمنى أمامه نحو السلّم، وكأن قوة خارقة للطبيعة كانت تنتظر هناك لتتلقفه.

أدرك غريغور بأن كبير الموظفين يجب مهما كلّف الثمن أن لا يُسمح له بالانصراف في هذه الحالة العقلية لو لم يتعرض منصبه في الشركة إلى الخطر إلى أبعد حد. لم يفهم والداه هذا جيداً؛ إذ كانوا قد أقنعوا أنفسهم على مرّ السنين بأن غريغور استقرت به الحياة في هذه الشركة، وإلى جانب ذلك كانا منهمكَين جداً بمشكلاتهم المباشرة لدرجة أن البصيرة قد غابت عنهم. مع ذلك كانت لدى غريغور هذه البصيرة. وهي أنهم يجب عليهم إغراء كبير الموظفين بالبقاء، وتهدئته، وإقناعه، وفي الأخير الفوز برضاه؛ حيث إن مستقبل غريغور كله ومستقبل عائلته يعتمد على ذلك! آه لو كانت شقيقته هناك! فهي ذكية؛ وقد أجهشت بالبكاء بينما كان غريغور ما يزال مضطجعاً بهدوء على ظهره. ومما لا شك فيه بأن كبير الموظفين، المنحاز جداً للسيدات، سيكون طوع بنانها؛ ستكون قد أغلقت باب الشقة وفي الصالة قد تحدثت إليه لتهدئ روعه. لكنها لم تكن هناك، ولذلك على غريغور أن يتدبر الوضع بنفسه. ومن دون أن يتذكر بأنه ما يزال يجهل القوى الحركية التي يمتلكها، بل حتى من دون أن يتذكر بأن كلماته في أقصى الاحتمالات، بالفعل في كل الاحتمالات، ستكون مرة أخرى غير مفهومة، ترك ضلفة الباب، ودفع نفسه خلال الفتحة، وبدأ في السير نحو كبير الموظفين، الذي كان متشبثاً بشكل يبعث على السخرية بكلتا يديه بدرابزين السلم على المهبط؛ لكن على الفور، بينما كان يشعر بالاستناد، سقط مُصدِراً صرخة خافتة تلاشت بين سيقانه المتعددة. وبقسوة سقط أرضاً عندما تملّكه للمرة الأولى هذا الصباح شعور بالراحة الجسدية؛ إذ إن سيقانه كان تحتها أرضية صلبة؛ فقد كانت طيّعة تماماً، كما لاحظ ذلك بفرح؛ بل حتى إنها سعت لحمله إلى الأمام في أيّ اتجاه كان يختاره؛ ومال إلى الاعتقاد بأن راحة نهائية من كل معاناته قد أصبحت في متناول اليد. ولكن في اللحظة نفسها عندما وجد نفسه على الأرض، وهو يهتز بلهفة مكبوتة للتحرك، ليس بعيداً عن والدته، بالضبط

أمام عينيها تماماً، والدته التي بدت منسحقة تماماً، قفزت فجأة على قدميها، وذراعاها وأصابعها ممدودة، وصرخت: «النجدة، بحق السماء، النجدة»! وهي تحني رأسها إلى الأسفل كما لو أنها تريد أن ترى غريغور بشكل أفضل، مع ذلك على العكس من هذا أخذت تتراجع بعيدة بلا شعور؛ إذ نسيت تماماً بأن المنضدة كانت تنتصب محملة خلفها؛ جلست عليها على عجل، كما لو كانت شاردة الذهن، عندما اصطدمت بها؛ وبدت غير واعية تماماً إلى أن إبريق القهوة الكبير بجانبها قد انقلب وسكب القهوة وفاض على السجادة.

«أمي، أمي»، قال غريغور بصوت منخفض، ونظر إليها. كبير الموظفين، في هذه اللحظة، قد خرج من تفكيره تماماً؛ إذ بدلاً عن ذلك، لم يتمكن من مقاومة إطباق فكيه معاً عند رؤيته القهوة المنسابة. وذلك ما جعل والدته تصرخ مرة أخرى، هربت من الطاولة وسقطت في أحضان والده، الذي سارع إلى الإمساك بها. لكن غريغور لم يعد لديه متسع من الوقت لوالديه؛ حيث إن كبير الموظفين كان على السلّم؛ وبينما كان ذقنه على أعمدة ذلك السلّم أخذ نظرة خلفية أخيرة. لذلك قفز غريغور، ليتأكد قدر المستطاع من اللحاق به؛ لا بد أنّ كبير الموظفين قد تكهّن بنيّته، لأنه قفز إلى أسفل عدة خطوات واختفى؛ كان ما يزال يصرخ متأففاً وتردد صدى صرخته عبر السلّم كله.

للأسف، بدا خروج كبير الموظفين يغيظ تماماً والد غريغور، الذي بقي هادئاً نسبياً حتى الآن، فهو بدلاً من الجري وراء الرجل نفسه، أو على الأقل عدم إعاقة غريغور في تعقبه، أمسك في يده اليمنى عصا المشي التي كان كبير الموظفين قد تركها خلفه على الكرسي، جنباً إلى جنب مع قبعة ومعطف سميك، وخطف في يده اليسرى صحيفة كبيرة من المنضدة، وبدأ يدق الأرض بقدميه ويلوّح بالعصا والصحيفة لدفع غريغور إلى العودة إلى داخل غرفته. لم تُجدِ التماسات غريغور أي جدوى، في الواقع لم تكن هذه الالتماسات مفهومة، مهما أحنى رأسه بتواضع

ما كان من الده إلاّ أن يضرب على أرضية الغرفة بصوت أكثر ارتفاعاً. وخلف والده كانت والدته قد فتحت النافذة، برغم برودة الطقس، وأمالت بنفسها بعيداً عنها واضعة وجهها بين يديها. دخل تيار قوي من الشارع إلى السلّم، وانتفخت ستائر النافذة، وأخذت الصحف على الطاولة ترفرف، وطارت صفحات ضالة إلى الأرضية. وبلا رحمة أرجعه والد غريغور مرة أخرى، وهو يهسهس ويصيح مثل وحشٍ. لكن غريغور لم يكن متمرّساً جداً في المشي إلى الخلف، فمشيه بهذه الطريقة بطيء في الواقع. فلو قيّض له أن يستدير حول نفسه لتمكّن أن يعود إلى غرفته حالاً، لكنه كان يخشى أن يستفزّ أباه ببطءٍ مثل هذه الاستدارة كما أنه في أية لحظة قد تضربه العصا في يد والده ضربة قاتلة على ظهره أو على رأسه. في النهاية، على أية حال، لم يبقَ أمامه أي خيار آخر يتخذه لأنه بسبب رعبه لاحظ بأنه عندما يتحرك إلى الوراء لم يكن بمقدوره التحكم بالاتجاه الذي يتخذه؛ وهكذا، وهو يراقب والده بقلق بالغ طوال الوقت من فوق كتفه، بدأ يستدير بأسرع ما يمكن، والذي كان في الواقع بطيئاً جداً. ربما لاحظ والده نواياه الطيبة، حيث أنه لم يتدخل إلا بين الحين والآخر لمساعدته في المناورة عن بعد بطرف العصا. آه لو كان توقف عن إصدار مثل ذلك الضجيج الذي لا يطاق! فهذا جعل غريغور يفقد صوابه تماماً. لقد استدار دورة كاملة تقريباً عندما صرف الصفير انتباهه بحيث إنه استدار في الطريق الخطأ مرة أخرى. ولكن عندما كان رأسه أخيراً لحسن الحظ مباشرة أمام المدخل، بدا له بأن جسده كان واسعاً جداً لدرجة لا يمكنه معها الدخول من خلال الفتحة. والده، بطبيعة الحال، في مزاجه الحالي كان أبعد ما يكون عن التفكير بشيء من قبيل فتح الضلفة الأخرى من الباب، للسماح لغريغور بأخذ مساحة كافية؛ إذ كانت تتملكه الفكرة الثابتة في إرجاع غريغور إلى غرفته بأسرع وقت ممكن. إنه لن يسمح لغريغور بالقيام بالترتيبات اللازمة لجعله يقف في النهاية وربما ينزلق من خلال الباب. ربما كان الآن يصدر ضوضاء أعلى من ذي قبل من أجل حث غريغور

على التقدم إلى الأمام، كما لو لم تكن هناك أية عقبة تعيقه؛ بالنسبة لغريغور، على أية حال، لم تعد الضوضاء في مؤخرته تبدو كصوتِ أبٍ واحد؛ وهذه لم تكن مزحة، وغريغور دفع نفسه ـ مهما كلّف الأمر ـ في المدخل. ارتفع أحد جوانب جسده، وكان يميل بزاوية في المدخل، أصيبت خاصرته بكدمات، وبقع فظيعة لطّخت الباب الأبيض، وسرعان ما علق ولم يتمكن أن يتحرك مطلقاً، حيث إن سيقانه على جانب واحد رفرفت مرتجفة في الهواء، بينما السيقان على الجانب الآخر انسحقت بشكل مؤلم في الأرض ـ عندما أعطاه والده من الخلف دفعة قوية كانت بالضبط تعني الخلاص وهكذا حلّق بعيداً داخل الغرفة، وأخذ ينزف بغزارة. كان الباب قد انصفق وراءه بالعصا، ومن ثم حلّ الصمت في نهاية المطاف.

II

لم يستيقظ غريغور من نومته العميقة حتى حلول وقت الغسق، بشكل أشبه بالإغماء منه إلى النوم. كان بالتأكيد سيستيقظ من تلقاء نفسه في وقت لاحق ليس طويلاً، فهو شعر بأنه أخذ قسطاً كافياً من الراحة ونام نومة مريحة، لكن بدا الأمر وكأن خطوة عابرة وإغلاقاً حذراً للباب المؤدي إلى القاعة قد أيقظه. ألقت المصابيح الكهربائية في الشارع ببريق شاحب هنا وهناك على السقف والسطوح العليا من الأثاث، ولكن إلى الأسفل، حيث كان يرقد، كان هناك ظلام. ببطء، وهو يحاول بارتباكٍ تجريب حواسه، إذ علم الآن لأول مرة أن يقدر قيمتها، أخذ طريقه إلى الباب لرؤية ما كان يحدث هناك. كان يشعر بأن جانبه الأيسر كأنه ندبة واحدة طويلة، ومتوترة على نحو كريه، واضطر في الواقع أن يضلع في مشيته على صفين من سيقانه. إحدى سيقانه القصيرة، علاوة على ذلك، قد تضررت ضرراً كبيراً في أثناء أحداث ذلك الصباح ـ كانت معجزة تقريباً أن تضررت ساق واحدة ـ وأخذت تسحل دون جدوى وراءه.

لقد وصل إلى الباب قبل أن يكتشف ما الذي أوصله إليه فعلاً: رائحة الطعام. إذ كان يقف هناك حوض مليء بالحليب الطازج يطفو فوقه قليل من الخبز الأبيض غير المنقوع. كان خليقاً به أن يضحك بفرح، لأنه كان الآن ما يزال أكثر جوعاً مما كان عليه في الصباح، فغطّس رأسه تقريباً إلى ما فوق العينين مباشرة في الحليب. لكنه سرعان ما سحبه ثانية بخيبة أمل؛ ليس فقط لأنه وجد صعوبة في إطعام نفسه بسبب رقة جانبه الأيسر ـ فهو لم يتمكن من تناول طعامه إلاّ عن طريق تعاون جميع أجزاء جسمه النابض ـ بل لأنه لم يستسغ الحليب أيضاً، على الرغم من أن الحليب كان شرابه المفضل وهذا يفسر بالتأكيد لماذا كانت أخته تضعه هناك من أجله، بل كان ذلك تقريباً بسبب نفوره الذي جعله يشيح بوجهه بعيداً عن الحوض ويزحف إلى وسط الغرفة.

استطاع أن يرى من خلال شق الباب بأن الغاز مفتوح في غرفة الجلوس، ولكن في الوقت الذي جرت فيه عادة الأب في هذا الوقت في قراءة صحيفة المساء بصوتٍ عالٍ لوالدته وأحياناً لأخته أيضاً، فإنه لا يُسمع الآن أي صوت. حسناً، ربما كان والده قد أقلع مؤخراً عن عادة القراءة هذه بصوتٍ عالٍ، التي ذكرتها أخته في كثير من الأحيان في حديثها وفي رسائلها. لكن خيّم هناك الصمت نفسه في كل مكان، على الرغم من أن الشقة لم تكن بالتأكيد خالية من الساكنين. «يا لها من حياة هادئة تلك التي تحياها عائلتنا»، قال غريغور لنفسه، وبينما كان جالساً هناك واجماً يحدّق في الظلام تملّكه شعور كبير بالفخر كونه تمكّن من توفير مثل هذه الحياة لوالديه وشقيقته في مثل هذه الشقة الرائعة. ولكن ماذا لو انتهى الآن كل هذا الهدوء، والسكينة، والرضا إلى الرعب؟ وبغية الحفاظ على نفسه من الضياع في مثل هذه الأفكار لجأ غريغور إلى الحركة والزحف في الغرفة ذهاباً وإياباً.

ذات مرة أثناء المساء الطويل فُتح أحد الأبواب الجانبية قليلاً وأغلق بسرعة

مرة أخرى، وبعد ذلك جرى الشيء نفسه مع الباب الجانبي الآخر أيضاً؛ على ما يبدو ثمة شخص ما أراد أن يدخل ومن ثم فكّر بالأمر. رابطَ غريغور الآن أمام باب غرفة الجلوس مباشرة، عاقداً العزم على إقناع أي زائر يتردد في أن يدخل أو على الأقل أن يكتشف مَن ذلك القادم؛ لكن الباب لم يُفتح مرة أخرى وأخذ ينتظر عبثاً. في الصباح الباكر، عندما كانت الأبواب مغلقة، أرادوا جميعاً أن يدخلوا، والآن بعد أن كان قد فتح باباً واحداً والآخر كان على ما يبدو مفتوحاً أثناء النهار، لم يدخل أحد حتى إن المفاتيح كانت على الجانب الآخر من الأبواب.

لقد تأخر الوقت كثيراً ليلاً قبل إطفاء الغاز في غرفة الجلوس، وكان بمقدور غريغور أن يقول بسهولة بأن والديه وأخته قد بقوا مستيقظين حتى ذلك الحين، لأن بإمكانه أن يسمعهم ثلاثتهم بوضوح وهم يسترقون السير مبتعدين على رؤوس الأصابع. لم يكن أحد من المرجح أن يزوره، قبل طلوع الصباح، كان مؤكداً؛ لذلك كان لديه الكثير من الوقت للتأمل في وقت فراغه حول كيفية ترتيب حياته من جديد. لكن الغرفة العالية، الفارغة التي كان عليه أن يستلقي فيها على الأرض ملأته بفزعٍ لم يكن في الحسبان، لأن هذه كانت غرفته نفسها على مدى السنوات الخمس الماضية ـ وبحركة نصف واعية، وليس بلا أدنى شعور بحرج، أسرعَ تحت الأريكة، حيث شعر بالراحة في الحال، على الرغم من أن ظهره كان متشنجاً قليلاً ولم يكن بوسعه رفع رأسه إلى فوق، وكان أسفه الوحيد هو أن جسمه كان عريضاً جداً بحيث لا يستطيع أن يضعه بأكمله تحت الأريكة.

مكث هناك طوال الليل، وهو يزجي الوقت آناً في سبات خفيف، كان جوعه دائماً ما يوقظه منه فزعاً، وآناً أخرى [يزجي الوقت] في القلق ورسم الآمال الغامضة، التي كانت جميعها تؤدي إلى النتيجة نفسها، وهي أن عليه أن يستلقي أرضاً في الوقت الحاضر ومن خلال التدرع بالصبر وأقصى قدر من التدبّر، أن يساعد الأسرة في تحمّل الإزعاج الذي كان من المحتم أن يسببه لها في وضعه الحالي.

في وقت مبكر جداً في الصباح، وبينما كان الظلام ما يزال يخيّم على الأجواء، سنحت الفرصة لغريغور اختبار قوة قراراته الجديدة، إذ إن أخته، التي ترتدي ثيابها كاملة تقريباً، فتحت الباب من الصالة وأطلّت في الداخل. لم تره في الحال، ولكن عندما لمحته تحت الأريكة ـ حسناً، لا بد أنه كان في مكان ما، لم يكن قد طار بعيداً، أليس كذلك؟ ـ فزعت فزعاً شديداً حتى أنها أغلقت الباب مرة أخرى. ولكن كما لو أنها تأسفت لسلوكها هذا فقد فتحت الباب مرة أخرى فوراً ودخلت على رؤوس أصابعها، كما لو أنها كانت تزور شخصاً مريضاً أو غريباً. كان غريغور قد دفع رأسه إلى الأمام إلى حافة الأريكة نفسها وأخذ يتطلع إليها. هل ستلاحظ بأنه ترك الحليب مكانه، وليس بسبب قلة الجوع، وهل ستجلب له أي نوع آخر من الغذاء حسب ذوقه؟ فإن لم تفعل ذلك من تلقاء نفسها، فلسوف يتضور جوعاً بدلاً من لفت انتباهها إلى تلك الحقيقة، برغم أنه كان يشعر برغبة جامحة في الاندفاع مسرعاً من تحت الأريكة، ويرمي نفسه على قدميها، ويتوسّل إليها لأي شيء يأكله. لكن شقيقته لاحظت في الحال، بدهشة، بأن الوعاء ما يزال ممتلئاً، باستثناء القليل من الحليب الذي أريق في كل أرجاء الغرفة، رفعته على الفور، ليس بيديها المجردتين، صحيح، ولكن بقطعة قماش وحملته بعيداً. كان غريغور تحدوه رغبة جامحة لمعرفة ماذا ستجلب له بدلاً من ذلك، ولاحت له عدة تكهنات حول هذا الموضوع. مع ذلك ما قامت به فعلاً فيما بعد، لطيبة قلبها، لم يستطع أبداً أن يحزره. ومن أجل معرفة ما كان يحبه فقد جلبت له كل أنواع الأغذية، ووضعتها جميعها على صحيفة قديمة. اشتملت على خضروات نصف متحللة، وعظام من عشاء الليلة الماضية غُطت بصلصة بيضاء متجمدة؛ وبعض الزبيب واللوز؛ وقطعة من الجبن رآها غريغور لا يمكن أكلها قبل يومين؛ لفة جافة من الخبز، ولفة بالزبدة، ولفة بالزبدة ومملّحة أيضاً. إلى جانب كل ذلك، وضعت ثانية الإناء نفسه، الذي سكبت فيه بعض الماء، والذي كان على ما

يبدو سيقدّم لاستخدامه الحصري. وببراعة كبيرة، إذ علمت بأن غريغور لا يأكل في حضرتها، انسحبت بسرعة بل حتى أدارت المفتاح، لتدعه يفهم بأن بإمكانه أن يأخذ راحته بقدر ما يحب. اندفعت سيقان غريغور جميعها نحو الطعام. لا بد أن جراحاته قد التأمت تماماً، وعلاوة على ذلك، فإنه لم يشعر بأية إعاقة، وذلك ما أذهله وجعله يتأمل كيف أنه على مدى أكثر من شهر قد جرح أحد أصابعه قليلاً بسكين، وكان لا يزال يعاني من آلام الجرح حتى قبل يوم أمس. هل أنا أقل حساسية الآن؟ فكّر، وأخذ يمتص الجبن بشراهة، الذي اجتذبه على الفور وبقوة أكثر من جميع المأكولات الأخرى. وجعل يلتهم الجبن، والخضار، والصلصة الواحدة تلو الأخرى ودموع الارتياح تملأ عينيه؛ أما الطعام الطازج، من ناحية أخرى، لم يغره، بل إنه ليس بمقدوره حتى تحمّل رائحته ونحّى جانباً بالفعل لمسافة قصيرة الأشياءَ التي يمكن أن يتناولها. وفرغ منذ فترة طويلة من وجبته واستلقى بتكاسل على المكان نفسه عندما أدارت شقيقته المفتاح ببطء كعلامة له لكي يتراجع. أثاره ذلك في الحال، برغم أنه كان نائماً تقريباً، وأسرع تحت الأريكة مرة أخرى. لكن هذا تطلّب سيطرة كبيرة على نفسه من أجل أن يبقى تحت الأريكة، حتى بالنسبة للوقت القصير الذي كانت فيه شقيقته في الغرفة، ذلك لأن الوجبة الكبيرة قد نفخت جسده إلى حد ما، وكان متشنجاً بحيث لا يقوى على التنفس. انتابته نوبات طفيفة من ضيق فى التنفس وكادت عيناه تخرجان من محجريهما، عندما كان يشاهد شقيقته المطمئنة وهي تكنس بمكنسة ليس فقط بقايا ما كان قد أكله ولكن حتى الأشياء التي لم يتناولها، كما لو أن هذه الأشياء لم تكن الآن بذات فائدة لأي أحد، وتجرف كل شي على عجل إلى سطل، غطّته بغطاء خشبي وحملته بعيداً. وما كادت تدير ظهرها حتى جاء غريغور من تحت الأريكة وتمدّد وأخرج نفسه.

بهذه الطريقة كان يتغذى غريغور، مرة في الصباح الباكر بينما كان والداه

والخادمة ما يزالون نائمين، ومرة ثانية بعد أن يتناول كل شخص غداءه عند منتصف النهار، إذ يكون والداه في ذلك الحين قد استغرقا في قيلولة قصيرة، وكانت الخادمة تُرسلها أخته خارجاً لقضاء بعض الأعمال. لا يعني هذا أنهم يريدونه أن يموت جوعاً، بالطبع، ولكن ربما لم يكن بمقدورهم تحمل عناء معرفة المزيد عن تغذيته أكثر من الإشاعات، وربما أيضاً أرادت شقيقته أن توفّر عليهم مثل هذه المخاوف الصغيرة قدر المستطاع، لأن لديهم ما يكفيهم تماماً لتحمّل ما حدث لهم.

تحت أية ذريعة تم التخلص من الطبيب وصانع الأقفال في ذلك الصباح الأول الذي لم يستطع غريغور أن يكتشفه، ذلك لأن ما قاله لم يفهمه الآخرون، لم يؤثر على أيّ منهم أبداً، ولا حتى أخته، وإنه استطاع أن يفهم ما قالوا، وهكذا كلما دخلت شقيقته إلى غرفته اضطر إلى إقناع نفسه بسماعها تُطلق التنهدات فقط بين الحين والآخر ونداءً عرضياً إلى القديسين. في وقت لاحق، عندما تعودت قليلاً على الوضع ـ بالطبع هي لم تتمكن أبداً من التعوّد على هذا الوضع تماماً ـ كانت أحياناً تلقي ملاحظة تكون مقصودة أو تُفسّر على أنها كذلك. «حسناً، إنه أحبّ عشاءه اليوم»، كانت تقول ذلك عندما كان غريغور يأكل كل الطعام الذي أمامه؛ وعندما لم يأكل، وهذا ما يحدث تدريجياً في كثير من الأحيان، كانت تقول بحزن تقريباً: «بقي كل شيء على حاله مرة أخرى».

لكن على الرغم من أن غريغور لم يتمكن من الحصول على أية أخبار مباشرة، كان يسترق السمع للكثير من الكلام من الغرف المجاورة، وطالما كانت الأصوات مسموعة، كان يهرع إلى باب الغرفة المعنية ويضغط جسده كله عليه. في الأيام القليلة الأولى خصوصاً لم تكن هناك أية محادثة لم تشر إليه بطريقة أو بأخرى، حتى لو بشكل غير مباشر فقط. فلمدة يومين كاملين كانت هناك مشاورات عائلية عند كل وجبة طعام حول ما ينبغي القيام به؛

ولكن أيضاً بين وجبات الطعام كانت تتم مناقشة الموضوع نفسه، لأنه كان هناك دائماً اثنان على الأقل من العائلة في المنزل، إذ لا أحد يريد أن يكون لوحده في الشقة وإن تركها فارغة تماماً كان أمراً لا يمكن تصوره. وفي أول هذه الأيام جثت طباخة المنزل ـ لم يكن واضحاً تماماً ماذا وكيف عرفت بالموقف ـ على ركبتيها إلى أمه وتوسلت إليها أنها تريد الذهاب، وعندما غادرت، بعد ربع ساعة، عبّرت عن شكرها لفصلها وعيناها مغرورقتان بالدموع كأنما تتحسّر على النعمة التي حُبيت بها، ومن دون أي تأخير أقسمت بأغلظ الأيمان بأنها لن تتفوه بأية كلمة إلى أي شخص حول ما حدث.

الآن تحتّم على شقيقة غريغور الطهي أيضاً، لتساعد والدتها؛ صحيح أن الطبخ لا يعني شيئاً، لأنهم لم يتناولوا أي شيء تقريباً. كان غريغور دائماً ما يسمع أحد أفراد الأسرة يحث الآخر عبثاً لتناول الطعام ولم يحصل على أي جواب سوى: «شكراً، لقد تناولتُ كل ما أريد»، أو شيء من هذا القبيل. وربما أنهم لم يشربوا شيئاً أيضاً. ومراراً وتكراراً ما فتئت شقيقته تسأل والده إن كان يرغب بشيء من البيرة وتعرض بلطف استعدادها للذهاب وجلبها بنفسها لها، وعندما لم يقدم أي جواب اقترحت بأنها يمكن أن تطلب من البواب إحضاره، حتى لا يشعر بأية حاجة للشعور بتقديم الاعتذار، ولكن بعد ذلك جاءت «لا» مدوية من والده ولم يبقّ أي شيء يمكن أن يقال حول هذا الموضوع.

في أثناء ذلك اليوم الأول شرح والد غريغور توقعات وضع العائلة المالي لوالدته وشقيقته. وبين الفينة والفينة كان ينهض من الطاولة لإخراج قسيمة ما أو مذكرة من الخزانة الصغيرة التي أنقذها من انهيار أعماله التجارية قبل خمس سنوات. إذ يمكن للمرء أن يسمعه يفتح القفل المعقد وحفيف الأوراق وهو يخرجها ومن ثم يغلقها مرة أخرى. هذا البيان الذي أدلى به والده كان أول المعلومات المبهجة التي كان غريغور قد سمعها منذ سجنه. وكان يرى بأن

لا شيء على الإطلاق قد تُرك من أعمال والده التجارية، على الأقل إن والده لم يقل أي شيء خلاف ذلك، وبطبيعة الحال فإنه لم يسأله مباشرة. في ذلك الوقت كانت رغبة غريغور الوحيدة هي بذل قصارى جهده لمساعدة الأسرة بأن تنسى في أقرب وقت ممكن الكارثة التي حلّت على أعماله التجارية وطوّحت بهم جميعاً في حالة من اليأس المطبق. لذلك انطلق إلى العمل بحماس غير معهود، وبين عشية وضحاها تقريباً أصبح تاجراً متجولاً بدلاً من مجرد كاتب صغير، مع فرص أكبر بالطبع في كسب المال، وتمّت ترجمة نجاحه على الفور إلى عملة مستديرة جيدة كان بمقدوره أن يضعها على الطاولة من أجل أسرته المندهشة والسعيدة. وهذه كانت أوقاتاً جميلة، ولم تتكرر أبداً، على الأقل ليس بذلك الشعور بالمجد نفسه، برغم أنه في وقت لاحق كسب الكثير من المال الذي مكّنه من تلبية نفقات الأسرة كلها، وقد فعل ذلك. إنهم ببساطة قد اعتادوا على هذا، كل من الأسرة وغريغور؛ كانت الأموال تُقبل بامتنان وتُعطى بكل سرور، لكن لم يكن هناك تدفق غير معتاد لشعور دافئ. وبقي متعلّقا بأخته فقط، وكانت خطته السرية بأن أخته، التي أحبّت الموسيقى، على عكسه، وبوسعها أن تعزف بشكل مؤثر على الكمان، يجب أن تُرسَل العام المقبل للدراسة في كونسرفاتوار، على الرغم من التكاليف الكبيرة التي ستترتب على ذلك، والتي يجب أن يتم تدبيرها بطريقة ما. أثناء زياراته القصيرة إلى المنزل كان يجري ذكر كونسرفاتوار كثيراً في المحادثات التي كان يجريها مع أخته، لكن هذا دائماً ما كان مجرد حلم جميل لا يمكن أن يتحقق، كما أن والديه لم يشجّعا حتى هذه الإشارات البريئة؛ مع ذلك قرر غريغور بصلابة بشأن الموضوع ونوى أن يعلن هذه الحقيقة بجدية كبيرة في يوم عيد الميلاد.

هذه الأفكار، غير المجدية تماماً في مثل حالته الراهنة، هي التي كانت تدور في رأسه بينما كان يقف متشبثاً بشكل عمودي بالباب ويستمع. أحياناً وبسبب

التعب الشديد كان يضطر إلى التخلي عن الاستماع ويترك رأسه يتدلّى بإهمال على الباب، لكنه كان على الدوام مضطراً لسحب نفسه مرة أخرى في الحال، لأنه حتى أقلّ صوت يصدره رأسه كان مسموعاً في الغرفة المجاورة، مما يجعل كل أحاديثهم تتوقف. «ماذا عساه يفعل الآن؟» يقول والده بعد برهة، وهو يتحول بشكل واضح نحو الباب، وعندها فقط سوف ينطلق حديثهم المتقطع تدريجياً مرة أخرى.

وأبلغوا غريغور الآن بإسهاب كبير كان يتمناه ـ لأن والده كان يميل إلى تكرار نفسه في تفسيراته، ويرجع ذلك تارة إلى الوقت الطويل مذ بدأ يتعامل مع مثل هذه الأمور، وتارة يرجع ذلك إلى أن والدته لا تتمكن دائماً من إدراك الأشياء حالاً ـ أن قدراً معيناً من الاستثمارات، صحيح أنه مبلغ ضئيل جداً، كان قد نجا من حطام ثرواتهم بل حتى ازداد قليلاً لأن الأرباح لم تُمَس في ذلك الوقت. بالإضافة إلى ذلك، فإن المال الذي كان غريغور يجلبه إلى البيت كل شهر ـ إذ كان يحتفظ فقط ببضعة دولارات لنفسه ـ لم ينفد تماماً حتى وصل الآن إلى رأس مال صغير. ومن وراء الباب هزّ غريغور رأسه بلهفة، مبتهجاً لهذا الدليل على الادخار والتبصر غير المتوقعيَن. صحيح أنه تمكّن حقاً من تسديد الشيء الكثير من ديون والده إلى الرئيس بهذه الأموال الإضافية، وبذلك قرّب كثيراً اليوم الذي يتمكن فيه من ترك وظيفته، لكن مما لا شك فيه كانت هذه أفضل طريقة رتّب فيها والده الأمر.

مع ذلك لم يكن هذا المال بأي حال من الأحوال كافياً للسماح للعائلة أن تعيش على فوائده؛ فلمدة سنة واحدة، ربما، أو على الأغلب اثنتين، سيعيشون على أصل المبلغ، ذلك هو كلّ ما في الأمر. كان مجرد مبلغ لا ينبغي أن يُمَس ويجب أن يبقى للأيام العصيبة؛ حيث لا بد من كسب المال اللازم لتغطية نفقات المعيشة. كان والده الآن ما يزال يتمتع بصحة جيدة جداً لكنه شيخ كبير، وهو لم يقم بأي عمل طيلة السنوات الخمس الماضية، ولا يمكن أن يُتوقع منه أن يفعل

الكثير؛ إذ أثناء هذه السنوات الخمس، السنوات الأولى من أوقات الدعة في حياته الشاقة على الرغم من عدم نجاحها، قد بدا بديناً نوعاً ما، وأصبح مترهلاً. ووالدة غريغور العجوز، أنّى لها أن تكسب لقمة عيشها وهي تعاني من الربو، الذي ألمّ بها حتى عندما كانت تسير في الشقة وأبقاها مستلقية على أريكة وهي تلهث بين اليوم والآخر من أجل التنفس بجانب نافذة مفتوحة؟ وهل كان على أخته كسب عيشها، تلك التي كانت ما تزال صغيرة ابنة سبع عشرة سنة والتي كانت حياتها حتى الآن سارّة، تكمن كما هو مألوف في التأنّق في ملبسها، والنوم لفترة طويلة، والمساعدة في أمور المنزل، والخروج إلى بعض التسالي البسيطة، وفوق هذا كله العزف على كمان. في البداية كلما يتم ذكر الحاجة إلى كسب المال كان غريغور يفلت من الباب ويرمي نفسه على الأريكة الجلدية الباردة بجانب ذلك الباب، كان يشعر بالحرارة جراء الخجل والحزن.

في كثير من الأحيان هو فقط يستلقي هناك الليالي الطوال من دون الخلود إلى النوم على الإطلاق، وهو يخربش لساعات على الجلد. أو أنه يشجع نفسه لبذل جهد كبير في دفع كرسي متحرك إلى النافذة، ومن ثم يزحف على عتبة النافذة وبعد الضغط على الكرسي، ينحنى أمام ضلفتي النافذة، على ما يبدو في حالة من استذكار الشعور بالحرية الذي عادة ما يمدّه به التطلّع خارج النافذة. لأنه في الواقع يوماً بعد يوم حتى الأشياء التي كانت بعيدة قليلاً تصبح أكثر عتمة أمام ناظريه؛ فالمستشفى عبر الشارع، الذي اعتاد أن يمقته لكونه كان في كثير من الأحيان أمام عينيه، غدا الآن خارج نطاق بصره تماماً، ولو لم يكن يعرف أنه عاش في شارع تشارلوت، وهو شارع هادئ لكن ما يزال أحد شوارع المدينة، لاعتقد بأن نافذته أطلت على فراغ مقفر حيث امتزجت السماء الرمادية والأرض الرمادية بشكل لا يمكن التمييز بينهما. ولم تكن أخته الفطنة بحاجة إلى شيء سوى مراقبة الكرسي المتحرك مرتين، ذلك الكرسي الذي وقف إلى جانب

النافذة؛ بعد ذلك كلما كانت ترتب الغرفة فإنها درجت دائماً على دفع الكرسي مرة أخرى إلى المكان نفسه عند النافذة بل حتى كانت تترك النوافذ البابية الداخلية مفتوحة.

لو تمكّن من الحديث إليها وشكرها على كل ما كان عليها أن تفعله له، لأمكنه أن يتقبّل خدماتها على نحو أفضل؛ كما يبدو، كان هذا يُحزنه. لقد حاولتْ بالتأكيد أن تهوّن كل ما هو مزعج في مهمتها، وبمرور الوقت نجحت في ذلك، طبعاً، أكثر فأكثر، لكن الزمن أتى بالمزيد من التنوير لغريغور أيضاً. إن الطريقة ذاتها التي دخلت فيها حجرته كانت تُشعره بالأسى. ولم تشأ أن تدخل الغرفة حتى هرعت إلى النافذة، حتى من دون أن تأخذ الوقت لإغلاق الباب، كما كانت حذرة كعادتها لحجب مرأى غرفة غريغور عن الآخرين، وكما لو كانت تختنق تقريباً فتحت النافذة على مصراعيها بأصابع متسرعة، ثم وقفت في التيار المفتوح لفترة من الوقت حتى في أقسى النسمات برودة وأخذت نفساً عميقاً. هرولتها الصاخبة هذه كانت تضايق غريغور مرتين في اليوم؛ إذ درج على أن يجثم مرتجفاً تحت الأريكة طوال الوقت، مع علمه جيداً أنها كانت ستوفّر عليه بالتأكيد مثل هذا الاضطراب لو كان بإمكانها البقاء في حضرته من دون فتح النافذة.

في إحدى المرات، بعد حوالي شهر من تحوّل غريغور، عندما لم يكن هناك بالتأكيد أي سبب لها بأن تجفل لمظهره، جاءت في وقت أبكر قليلاً من المعتاد وجدته يحدّق من النافذة، بلا حراك تماماً، وبالتالي في وضع يبدو فيه تماماً وكأنه غول. وما كان غريغور ليندهش لو أنها لم تدخل على الإطلاق، ذلك لأنها لا يمكنها أن تفتح النافذة على الفور عندما كان هناك، لكنها لم تتراجع فقط، بل إنها قفزت راجعة كما لو كانت مذعورة وأغلقت الباب مصدرة صوتاً مسموعاً؛ حيث يُخيّل للغريب بأنه كان يتربص بها أي يريد عضّها. وبالطبع خبّأ نفسه

تحت الأريكة حالاً، لكنه اضطر إلى الانتظار حتى منتصف النهار قبل أن تأتي مرة أخرى، وبدت محرجة أكثر من المعتاد. وهذا جعله يدرك كم كان منظره مثيراً للاشمئزاز بالنسبة لها، وأنه مقدّر له أن يمضي على كونه مثيراً لهذا الاشمئزاز، ويا له من جهد ذلك الذي لا بد أن يكلفها من أجل أن لا تهرب حتى من رؤية الجزء الصغير من جسمه الذي لصق خارجاً من تحت الأريكة. ولكي يجنبها ذلك، بالتالي، في يوم من الأيام حملَ شرشفاً على ظهره إلى الأريكة ـ وكلّفه ذلك عمل أربع ساعات ـ ورتّبه هناك بطريقة تخفيه تماماً، بحيث أنه حتى لو اضطرت إلى الانحناء فإنها لا تستطيع رؤيته. ولو أنها رأت بأن الشرشف غير ضروريّ، لقامت بالتأكيد بنزعه من على الأريكة مرة أخرى، لأنه من الواضح بما فيه الكفاية بأن ستر نفسه وحجبها لم يكن من المرجّح أن يفضي إلى راحة غريغور، لكنها تركته حيثما كان، حتى إن غريغور تصوّر أنه لمس نظرة شكر من عينها عندما رفع الشرشف بعناية قليلاً برأسه ليرى كيف كانت تتعاطى مع الترتيب الجديد.

وطيلة الأسبوعين الأولين لم يتمكن والداه من الدخول إلى غرفته، وكان كثيراً ما يسمعهما يعبّران عن تقديرهما لأنشطة أخته، في حين كانا سابقاً كثيراً ما يوبخانها لكونها كما ظنا ابنة غير مجدية إلى حد ما. لكن الآن، كان كلاهما في كثير من الأحيان ينتظر خارج الباب، والده ووالدته، في حين كانت أخته ترتّب غرفته، وحالما تخرج كان عليها أن تخبرهما بالضبط كيف كانت تسير الأمور في الغرفة، وماذا أكلَ غريغور، وكيف كان يتصرف هذه المرة، وعما إذا لم يكن هناك ربما تحسّن طفيف في حالته. وعلاوة على ذلك، بدأت والدته في وقت مبكر نسبياً ترغب بزيارته، لكن والده وشقيقته أثنياها في البداية بحجج استمع إليها غريغور بانتباه شديد واستحسنها تماماً. في وقت لاحق، مع ذلك، اضطرتهما إلى أن يصدّوها بالقوة، وعندما صرخت: «دعوني أدخل إلى غريغور، فهو ولدي غير المحظوظ! ألا يمكنكما أن تفهما بأنه يجب

أن أذهب إليه؟» اعتقد غريغور بأنه قد يكون جيداً أن يسمحا لها بالدخول، ليس كل يوم، بطبيعة الحال، ولكن ربما مرة واحدة في الأسبوع؛ كانت تفهم الأمور، برغم كل شيء، أفضل بكثير من شقيقته، التي كانت ما تزال طفلة على الرغم من الجهود التي كانت تبذلها والتي كانت ربما تضطلع بمهمة صعبة للغاية فقط لمجرد طيش طفولي.

وسرعان ما تمت تلبية رغبة غريغور برؤية والدته. أثناء النهار لم يرغب أن يُظهر نفسه عند النافذة، مراعاة لوالديه، لكنه لا يتمكن من الزحف بعيداً جداً حول العدد القليل من الياردات المربعة من مساحة الأرض التي لديه، كما أنه لا يتمكن من تحمّل الاستلقاء بهدوء في راحة طوال الليل، في حين كان يفقد بسرعة أي اهتمام كان عنده في أي وقت مضى للطعام، بحيث إنه لمجرد الترفيه درج على عادة الزحف بشكل متقاطع فوق الجدران والسقف. كان يستمتع على نحو خاص بالتدلي معلقاً من السقف؛ وهذا أفضل بكثير من الاستلقاء على أرضية الغرفة؛ إذ يمكن للمرء أن يتنفس بحرية أكثر؛ والجسم يتأرجح ويهتز بخفة؛ وفي عملية امتصاص أكثر هناءً ناجمة عن هذا التعليق اندهش عندما أفلت وسقط مرتطماً بالأرضية. مع ذلك أصبح جسمه الآن تحت السيطرة أفضل بكثير من السابق، بل حتى إن مثل هذا السقوط الكبير لم يؤذِه. لاحظت أخته على الفور انشغاله الجديد الذي أوجده غريغور لنفسه ـ حيث كان يترك وراءه آثاراً من المواد اللزجة على باطن أقدامه أينما زحف ـ واعتملت فكرة في رأسها باعطائه أوسع مجال ممكن للزحف وبإزالة قطع الأثاث التي كانت تعوقه، وفي مقدمتها صندوق الملابس وطاولة الكتابة. إلاّ أن ذلك كان أكبر من استطاعتها أن تقوم به بمفردها؛ ولم تجرؤ على طلب المساعدة من والدها؛ وأما بالنسبة للخادمة، وهي شابة ذات ست عشرة سنة فكانت لديها الشجاعة للبقاء بعد رحيل الطباخة، فلم يُطلب منها المساعدة، لأنها قد توسلت بإسداء خدمة خاصة لها بأنها قد تُبقي

باب المطبخ مقفلاً ولا تفتحه إلا حسب طلبات محددة؛ وبالتالي لم يبقَ سوى أن تطلب والدتها في ساعة عندما كان والدها خارجاً. وجاءت السيدة العجوز، بصيحات تنم عن حرص مفعم بالبهجة، تلاشى، مع ذلك، عند باب غرفة غريغور. دخلت شقيقة غريغور، بطبيعة الحال، في البداية، لترى بأن كل شيء كان في محله قبل السماح لوالدته بالدخول. وبسرعة كبيرة سحب غريغور الشرشف إلى الأسفل وطواه أكثر في طيات بحيث بدا حقاً كما لو كان قد ألقي بشكل عرضي على الأريكة. وفي هذه المرة لم يحدّق خارجاً من تحته؛ بل تخلّى عن بهجة رؤية والدته في هذه المناسبة، وكان سعيداً فقط أنها كانت قد أتت إلى حجرته. «ادخلي، فهو متوارٍ عن الأنظار»، قالت شقيقته، وهي تقود والدتها على ما يبدو إلى الداخل بيدها. كان بمقدور غريغور الآن سماع المرأتين تكافحان من أجل زحزحة الصندوق القديم الثقيل من مكانه، حيث تقوم شقيقته بأخذ الجزء الأكبر من العمل، من دون الاستماع إلى تحذيرات والدتها، التي تخشى بأنها قد ترهق نفسها. استغرق هذا العمل وقتاً طويلاً. وبعد ما لا يقل عن ربع ساعة من الجر اعترضت أمه بأنه من الأفضل إبقاء الصندوق على ما كان عليه، لأنه في المقام الأول كان ثقيلاً جداً ولا سبيل إلى إخراجه قبل وصول والده إلى البيت، ووجوده في وسط الغرفة على هذه الشاكلة يعيق بلا شك حركات غريغور، في حين في المقام الثاني أنه لم يكن من المؤكد على الإطلاق أن إزالة الأثاث ستسدي خدمة لغريغور. كانت تميل إلى التفكير على عكس ذلك؛ إذ إن مرأى الجدران العارية جعلت قلبها مهموماً، ولماذا لا ينبغي لغريغور أن يكون لديه الشعور نفسه، على اعتبار أنه كان معتاداً على أثاثه لفترة طويلة وربما يشعر باليأس دونه. «ألا يبدو»، اختتمت حديثها بصوت خفيض ـ في الحقيقة أنها كانت تقريباً تهمس طوال الوقت كما لو تريد تجنّب جعل غريغور، الذي لا تعرف أماكن وجوده على وجه الدقة، يسمع حتى همسات صوتها، لأنها على يقين بأنه لا يمكنه فهم

كلماتها ـ «ألا يبدو كما لو أننا نُظهر له، من خلال أخذ أثاثه، بأننا يئسنا من أمل تحسّنه وأننا نتركه لحاله بقسوة؟ أعتقد أنه من الأفضل الإبقاء على غرفته تماماً كما كانت دائماً، حتى أنه عندما يعود لنا سوف يجد كل شيء دون تغيير ويكون قادراً بسهولة أن ينسى ما حدث في تلك الفترة».

عند سماعه هذه الكلمات من والدته، أدرك غريغور بأن فقدان كل أنواع الخطاب البشري المباشر طيلة الشهرين الماضيين أسوة برتابة الأسرة لا بد أنها شوّشت عقله، وإلاّ فإنه لا يستطيع أن يفسّر حقيقة أنه كان قد تطلّع جدياً إلى إفراغ غرفته من الأثاث. هل هو حقاً أراد غرفته الدافئة، المجهّزة بشكل مريح بأثاث الأسرة القديم، أن تتحول إلى وكر عارٍ يكون فيه بالتأكيد قادراً على الزحف دون عائق في كل الاتجاهات ولكن على حساب إسقاط - وفي وقت واحد - كل ذكرياته المتعلقة بخلفيته الإنسانية؟ لقد كان فعلاً قريباً جداً من شفير النسيان بحيث إن صوت والدته فقط، الذي لم يكن قد سمعه لفترة طويلة، قد أثناه عن ذلك. ينبغي أن لا يؤخذ أي شيء من غرفته؛ ولا بد أن يبقى كل شيء كما كان؛ فهو لا يستطع الاستغناء عن التأثير الجيد للأثاث على حالته الذهنية؛ وحتى لو لم يعقه الأثاث في زحفه اللاواعي هنا وهناك، فإن ذلك لن يكون عيباً ولكن ميزة كبيرة.

ومما يؤسف له أن لأخته رأياً مخالفاً؛ فقد اعتادت، وليس من دون سبب، أن ترى نفسها خبيرة في شؤون غريغور لتقف بالضد من والديها، وهكذا كانت نصيحة والدتها الآن كافية لجعلها مصممة على الإزالة ليس فقط [إزالة] الصندوق وطاولة الكتابة، اللذَين كانا أولى أولوياتها، بل [إزالة] كل الأثاث باستثناء الأريكة التي لا غنى عنها. ولم يكن هذا التصميم، بطبيعة الحال، مجرد نتيجة للعناد الطفولي والثقة بالنفس التي طورتها مؤخراً بشكل غير متوقع وفي مقابل مثل هذا الثمن؛ لقد أدركت في الحقيقة بأن غريغور يحتاج إلى الكثير من الفضاء

ليتمكن من الزحف فيه، بينما من ناحية أخرى هو لم يسبق له أن استخدم الأثاث مطلقاً، وهذا يبدو واضحاً. ثمة عامل آخر ربما كان أيضاً يكمن في المزاج المتحمس لفتاة مراهقة، الذي يسعى إلى إقحام نفسه عند كل فرصة والذي أغرى غريتا الآن للمبالغة في الرعب الذي تسببه ظروف أخيها من أجل أن تفعل كل شيء بالنسبة له. في غرفة حَكَمَها غريغور بمفرده تماماً بجدرانها الخالية، فإنه لا أحد باستثنائها هي من المرجح أن تطأ قدماه فيها.

وهكذا لا يمكن أن يزحزح عزيمتها أمام والدتها، التي بدت علاوة على ذلك محرجة في غرفة غريغور وبالتالي لم تكن واثقة من نفسها، سرعان ما تدرّعت بالصمت، وساعدت ابنتها بأقصى ما في وسعها لدفع الصندوق إلى الخارج. الآن، يمكن أن يستغني غريغور عن الصندوق، إذا لزم الأمر، لكن طاولة الكتابة لا بد أن يحتفظ به. وطالما أخرجت المرأتان الصندوق من غرفته، وهنّ يصدرن أنيناً عند دفعهن له، أخرج غريغور رأسه من تحت الأريكة ليرى كيف يمكنه التدخل بلطف وحذر قدر الإمكان. ولكن لسوء الحظ، كانت والدته أول من عادت أدراجها، تاركة غريتا تحتضن الصندوق في الغرفة المجاورة حيث كانت تحاول تغييره بمفردها تماماً، من دون بالطبع تحريكه من مكانه. لم تكن والدته على أية حال معتادة على رؤيته، فهو ربما يحزنها منظره ولذلك بذعر رجع غريغور بسرعة إلى الطرف الآخر من الأريكة، مع ذلك لم يستطع منع الشرشف من التمايل قليلاً إلى الأمام. كان ذلك كافياً لوضعها على أهبة الاستعداد. توقفتْ، ووقفتْ ساكنة للحظة، ومن ثم عادت إلى غريتا.

على الرغم من أن غريغور استمر في طمأنة نفسه بأنه لم يحدث أي شيء خارج المألوف، ما عدا تغيير بضع قطع من الأثاث، إلاّ أنه لا بد أن يعترف عما قريب بأن كل هذا الجري جيئة وذهاباً الذي تقوم به المرأتان، وحواراتهما المقتضبة، وصرير سحب الأثاث على أرضية الغرفة كانت تؤثر عليه مثل

اضطرابات هائلة قادمة من جميع الجهات في آن واحد، ومهما دسّ رأسه وسحب سيقانه وتكوّر إلى الأرضية فلا بد أن يقرّ بأنه لن يكون قادراً على تحمّل هذا لفترة طويلة. كانتا تعملان على تنظيف غرفته؛ وإخراج كل شيء كان يحبه؛ وسحب الصندوق الذي وضع فيه منشار الزخرفة وغيره من الأدوات؛ كانتا تقومان الآن بتفكيك طاولة الكتابة التي غارت تقريباً إلى الأرض، الطاولة التي كان قد عمل عليها كل واجباته البيتية عندما كان في الكلية التجارية، وفي المدرسة الثانوية قبل ذلك، ونعم، حتى في المدرسة الابتدائية ـ لم يكن لديه المزيد من الوقت ليضيعه في التفكير في النوايا الطيبة التي تكنّها هاتان المرأتان، اللتان نسي وجودهما عنده الآن، لأنهما كانتا منهكتين جداً بحيث كانتا تعملان في صمت ولم يُسمَع لهما أي شيء سوى جرجرة أقدامهما الثقيلة.

وهكذا اندفع خارجاً ـ كانت المرأتان تتكآن على طاولة الكتابة في الغرفة المجاورة لأخذ قسط من الراحة ـ وغيّرَ اتجاهه أربع مرات، لأنه لم يعرف حقاً ماذا ينقذ أولاً، ثم على الجدار المقابل، الذي جرى تنظيفه خلاف ذلك، علق بصورة السيدة المتلفعة بالكثير من الفراء وسرعان ما زحف إليها وضغط نفسه على الزجاج، الذي كان سطحاً جيداً ليتمسك به ويريح بطنه الساخنة. هذه الصورة على الأقل، التي كانت مخفية تماماً تحته، لن يزيلها أي شخص. أدار رأسه نحو باب غرفة الجلوس وذلك لمراقبة المرأتين عندما تعودان.

لم تسمحا لنفسيهما بأخذ الكثير من الراحة وها هما عائدتان؛ لفّت غريتا ذراعها حول والدتها وكانت تقريباً تسندها. قالت غريتا وهي تنظر حولها، «حسناً، ماذا سنأخذ الآن؟ والتقت عيناها بعيني غريغور فوق الجدار. حافظت على رباطة جأشها، ربما بسبب والدتها، وأحنت رأسها إلى الأسفل نحو والدتها، لمنعها من النظر إلى أعلى، وقالت، ولو بصوت مرتجف، عفوي: «تعالي، أليس من الأفضل العودة إلى غرفة الجلوس؟» كانت نواياها واضحة بما فيه الكفاية

لغريغور، فهي أرادت أن تمنح الأمان للأم ومن ثم تطارده من على الجدار. حسناً، فقط اسمح لها أن تجرّب ذلك! تشبّثَ بصورته ولم يتخلَّ عنها. وفضّل أن يطير في وجه غريتا.

لكن كلمات غريتا نجحت في إقلاق والدتها، التي اتخذت خطوة إلى أحد الجوانب، ووقع بصرها على كتلة بنية ضخمة على ورق الجدران المزهر، وقبل أن تعي حقاً بأن ما شاهدته هو غريغور، صرخت بصوت عال، أجش: «يا إلهي، يا إلهي!» وسقطت ممدودة الذراعين على الأريكة كما لو أنها أسلمت الروح، ولم تتحرك. «غريغور!» صاحت أخته، وهي تهز قبضتها وتحدّق فيه. كانت هذه المرة الأولى التي خاطبته فيها مباشرة منذ تحوله. ركضت إلى الغرفة المجاورة من أجل جلب بعض العطر لإيقاظ والدتها من نوبة إغمائها. أراد غريغور تقديم المساعدة أيضاً ـ إذ لا يزال هناك متسع من الوقت لإنقاذ الصورة ـ لكنه سرعان ما علق بالزجاج، وتحتّمَ عليه تخليص نفسه منه؛ ثم ركض وراء شقيقته في الغرفة المجاورة كما لو أنه كان قادراً على تقديم النصح لها، كما اعتاد أن يفعل ذلك في السابق؛ لكن بعد ذلك كان عليه أن يقف بلا حول ولا قوة خلفها؛ كانت في تلك الأثناء تبحث بين مختلف الزجاجات الصغيرة وعندما أدارت بوجهها، جفلت مذعورة لرؤيته؛ سقطت إحدى الزجاجات على الأرض وانكسرت؛ فجرحت شظية من الزجاج وجه غريغور وشيء من مادة حارقة تطاير عليه؛ ودون التوقف للحظة أطول جمعت غريتا جميع الزجاجات التي كان بإمكانها أن تحملها وركضت بها إلى أمها؛ وخبطت الباب لتغلقه برجلها. وبهذا أصبح غريغور الآن معزولاً عن والدته، التي ربما كانت على وشك الموت بسببه؛ ولم يتجرأ على فتح الباب خشية إثارة الخوف في روع أخته، التي كانت لا بد أن تبقى مع والدتها؛ ولم يكن أمامه أي شيء يمكنه أن يفعله سوى الانتظار. ولإحساسه بالضيق بسبب تأنيب الذات والقلق بدأ الآن يزحف جيئة وذهاباً، على كل شيء، الجدران،

والأثاث، والسقف، وأخيراً ليأسِه، عندما بدت الغرفة بكاملها تدور حوله، سقط على منتصف الطاولة الكبيرة.

ومرّت فترة قصيرة، وكان غريغور ما يزال مستلقياً هناك بوهن وكان كل شيء حوله هادئاً، ربما كان ذلك فألاً حسناً. ثم رنّ جرس الباب. كانت الخادمة طبعاً محبوسة في مطبخها، ولذلك لا بد لغريتا أن تفتح الباب. كان ذلك هو والدها. «ما الذي كان يجري؟» كانت تلك كلماته الأولى؛ لا بد أن وجه غريتا قد أفصح له عن كل شيء. أجابت غريتا بصوت مكتوم، وهي على ما يبدو تخفي رأسها على صدره: «لقد سقطت الأم مغمياً عليها، لكنها في حال أفضل الآن. كما أن غريغور هربَ من غرفته». فقال الأب، «تماماً مثلما كنت أتوقع. بالضبط مثلما أخبرتك، لكنكن معشر النساء لن تصغين أبداً». كان واضحاً لدى غريغور بأن والده قد اتخذ أسوأ تفسير لتقرير غريتا المقتضب وكان يتصور بأن غريغور مذنب بارتكابه فعلاً شنيعاً. لذلك على غريغور الآن أن يحاول إرضاء والده، لأنه ليس لديه الوقت ولا الوسيلة لتقديم أي تفسير. ولذلك فرّ إلى باب غرفته وجثم قبالته، ليتيح لوالده أن يراه حالما يدخل من الصالة بأن لدى ابنه النية الحسنة بالعودة إلى غرفته على الفور، وأنه ليس من الضروري أن يدفعه إلى هناك دفعاً، ولكن لو كان الباب مفتوحاً لاختفى حالاً.

مع ذلك لم يكن والده في الوضع الذي يمكنّه إدراك هذه التوضيحات. «آه!» صاح بمجرد أن ظهر، بنبرة بدت في الحال غاضبة ومتهللة. سحب غريغور رأسه إلى الخلف من الباب ورفعه لينظر إلى والده. حقاً، لم يكن هذا هو الأب الذي كان قد تصوّره لنفسه؛ من المسلّم به أنه كان مستغرقاً جداً مؤخراً في تسليته الجديدة في الزحف على السقف بحيث لم يشعر بالمتعة نفسها كما في السابق بما كان يحدث في أماكن أخرى في الشقة، وإنه يجب حقاً أن يكون مستعداً لبعض التغييرات. ومع ذلك كله، أيمكن أن يكون هذا والده؟ الرجل الذي اعتاد

على الاستلقاء بضجر غارقاً في سرير كلما انطلق غريغور في رحلة عمل؛ الذي رحّب بعودته في إحدى الأمسيات وهو مستلقٍ على كرسي طويل بثياب البيت؛ والذي لم يستطع حقاً أن ينهض على قدميه ولكن رفع ذراعيه فقط محيياً، وفي مناسبات نادرة عندما كان يخرج مع عائلته، في يوم أو يومين من أيام الآحاد في السنة، وفي الأعياد، كان يمشي بين غريغور ووالدته، اللذين كانا بطيئين على أية حال، حتى أبطأ مما كانا عليه، مرتدياً معطفه القديم، وهو يتقدم بمشقة إلى الأمام بمساعدة عصاه المعقوفة التي كان يُنزلها إلى الأسفل بحذر كبير في كل خطوة وكلما أراد أن يقول أي شيء، يتوقف دائماً تقريباً ويجمع مرافقيه من حوله؟ الآن كان واقفاً هناك بهيئة جميلة؛ مرتدياً زياً أزرق أنيقاً ذا أزرار ذهبية، مثل ذلك الذي يرتديه سعاة المصارف؛ وانتفخ ذقنه القوي على الياقة العالية القاسية لسترته؛ ومن تحت حاجبيه الكثّين برقت عيناه السوداوان بنظرات ثاقبة؛ وشعره الأبيض المجعد ذات يوم تمّ تمشيطه على جانبي مفرق لامع محدد بدقة. طوّح بطاقيتِه، التي تحمل حرفاً ذهبياً، ربما هو شارة أحد المصارف، برمية واسعة عبر الغرفة بأكملها على الأريكة وإذ تراجعت أطراف سترته إلى الخلف، ويداه في جيوب سرواله، تقدّم بمحيا متجهم نحو غريغور. على الأرجح تماماً أنه نفسه لم يعرف ما الذي كان يقصد القيام به؛ على أية حال رفع قدميه عالياً بدرجة غير عادية، وكان غريغور صعقاً للحجم الهائل لكعبَيّ حذائه. لكن غريغور لم يخاطر بالوقوف أمامه، مدركاً بأنه كان يعرف منذ اليوم الأول من حياته الجديدة بأن والده لا يؤمن إلاّ بأشد التدابير قسوة في التعامل معه. وهكذا ركض أمام والده، كان يقف عندما يتوقف ويُسرع إلى الأمام مرة أخرى عندما يقوم والده بأي نوع من الحركة. وبهذه الطريقة دارا في الغرفة عدة مرات من دون حدوث أي شيء حاسم، في الواقع إن العملية برمتها حتى لم ترقَ إلى عملية مطاردة لأنها جرت ببطء شديد. ولذا لم يغادر غريغور أرضية الغرفة، لأنه خشي بأن

والده ربما يتصور أية جولة له على الجدران أو السقف بأنها ضرب من الشر. مع ذلك، لم يكن بمقدوره مواصلة هذه المسيرة لفترة أطول، لأنه بينما كان والده يخطو خطوة واحدة فإنه كان عليه أن يقوم بسلسلة كاملة من الحركات. وها قد بدأ بالفعل يشعر باللهاث، تماماً كما هو الحال في حياته السابقة لم تكن رئتاه على خير ما يرام. وبينما كان يواصل طريقه مترنحاً، وهو يحاول تركيز طاقته على الجري، كان بالكاد يُبقي عينيه مفتوحتين؛ وفي حالة ذهوله هذه لم يفكر أبداً حتى بأية محاولة للهرب سوى بمجرد المضي إلى الأمام؛ وبعد أن نسي تقريباً بأن الجدران كانت خالية أمامه، التي كانت في هذه الغرفة مزودة بقطع منحوتة بشكل جميل من الأثاث مليئة بالمقابض والشقوق ـ فجأة هبط بخفة شيء ما وراءه وتدحرج أمامه. كان تفاحة؛ وتبعتها تفاحة ثانية على الفور؛ وتوقف غريغور مذعوراً؛ إذ لا معنى من الاستمرار بالركض، لأن والده كان مصمماً على قصفه بتلك القذائف. كان قد ملأ جيوبه بالفاكهة من الطبق على الدولاب وكان الآن يرمي التفاحة تلو الأخرى، دون أن يضع له أي هدف مناسب في الوقت الحالي. وتدحرجت التفاحات الحمراء الصغيرة حول الأرض كما لو أنها ممغنطة ومرمية بعضها على الآخر. ومسّت تفاحة لم تسدَّد بقوة كبيرة ظهر غريغور واتجهت بعيدة دون أذى. لكن تفاحة أخرى تلتها مباشرة وقعت تماماً على ظهره واستقرت فيه؛ أراد غريغور أن يجرّ نفسه إلى الأمام، كما لو كان بالإمكان ترك هذا الألم الممض الذي لا يطاق وراءه؛ لكنه شعر وكأنه مسمّر في المكان فسطّح نفسه وسط تشويش كامل لجميع حواسه. وبنظرته الأخيرة الواعية رأى باب غرفته مفتوحاً على مصراعيه ووالدته تندفع خارجة أمام شقيقته المولولة، في قميصها الداخلي، لأن ابنتها قد خلعت ملابسها لتسمح لنفسها بالتنفس بحرية أكثر والتعافي من إغمائها، ورأى أمه تندفع نحو والده، وهي تترك وراءها ملابسها الداخلية قطعة قطعة على الأرض، متعثرة بملابسها متجهة مباشرة إلى والده

وتعتنقه، في عملية اتحاد كامل معه ـ لكن نظر غريغور بدأ يخونه ـ ويداها تطوقان رقبة الأب وكأنها تتوسل له للإبقاء على حياة ابنها.

III

إن الإصابة الخطيرة التي تعرّض لها غريغور، أقعدته لأكثر من شهر ـ حيث بقيت التفاحة ملتصقة في بدنه لتكون ذكرى مرئية، حيث لا أحد كان يجرؤ على إزالتها ـ بدت أنها جعلت حتى والده يتذكر بأن غريغور كان فرداً من أفراد الأسرة، على الرغم من شكله المؤسف والمثير للاشمئزاز، ويجب أن لا يُعامل كعدو، إذ، على العكس من ذلك، إن واجب الأسرة يتطلب نبذ الاشمئزاز والتدرّع بالصبر، ولا شيء سوى الصبر.

وعلى الرغم من أن إصابته أضعفت، ربما إلى الأبد، قواه الحركية، وفي الوقت الحاضر يتطلب منه دقائق طويلة جداً الزحف عبر غرفته مثل مريض عجوز ـ ليس هناك الآن أي سؤال عن الزحف فوق الجدار ـ مع ذلك برأيه عوّض بما فيه الكفاية هذا التدهور في حالته الصحية بحقيقة أنه في المساء كان باب غرفة الجلوس، الذي اعتاد مراقبته باهتمام لمدة ساعة أو ساعتين مسبقاً، كان دائماً مفتوحاً على مصراعيه، لذلك عند الاستلقاء في ظلام غرفته، غير مرئي بالنسبة للأسرة، كان يمكنه أن يراهم جميعاً عند الطاولة المضاءة بمصباح ويصغي إلى حديثهم، برضى كبير إذا جاز التعبير، الإصغاء المختلف جداً عن تنصته في وقت سابق.

صحيح أن حوارهم يفتقر إلى الطابع الحيوي المتصف به في المرات السابقة، الذي دائماً ما يتذكره بأسى شفيف في غرف نوم الفنادق الصغيرة حيث كان متعوداً على رمي نفسه باستمرار، متعباً جداً، على فراش رطب. كانوا الآن صامتين جداً في معظم الأوقات. وبُعيد العشاء يستلقي والده نائماً في كرسيه

ذي المساند؛ فيما كانت والدته وشقيقته تؤنبان بعضهما البعض على التدرّع بالصمت؛ والدته، المنحنية على المصباح، تقوم بأعمال التطريز الفاخرة لشركة ملابس داخلية؛ وأخته، التي امتهنت وظيفة بائعة، كانت تتعلم الاختزال واللغة الفرنسية في الأمسيات على أمل تحسين وضعها. أحياناً كان أبوه يستيقظ، وكأنه غير دارٍ تماماً بأنه كان نائماً يخاطب أمه: «يا لها من أعمال خياطة كثيرة تلك التي قمتِ بها اليوم!»، وفي الحال يستغرق في النوم مرة أخرى، في حين تتبادل المرأتان ابتسامة متعبة.

وبنوع من العناد استمر والده في ارتداء بدلة عمله حتى في المنزل؛ إذ أن روبه المنزلي كان معلقاً دون جدوى على شماعته وكان ينام بكامل ملابسه حيث كان يجلس، كما لو كان على استعداد للخدمة في أية لحظة، رهن إشارة ودعوة رئيسه. ونتيجة لذلك، بدأت بدلة عمله، التي لم تكن جديدة تماماً عندما تسلّمها بادئ ذي بدء، تبدو متسخة، على الرغم من كل الاهتمام الكبير من لدن الأم والأخت لإبقائها على نظافتها، وغالباً ما كان غريغور يقضى الأمسيات بكاملها يحدّق في البقع الدهنية الكثيرة على البدلة، التي تومض بأزرار ذهبية دائماً في حالة عالية اللمعان، إذ كان فيها الرجل العجوز ينام جالساً بانزعاج شديد ومع ذلك بسلام تام.

ما إن دقت الساعة معلنة العاشرة حتى حاولت والدته إيقاظ والده بكلمات لطيفة وإقناعه بعد ذلك ليذهب إلى السرير، لأنه في جلوسه هناك لا يستطيع أن ينعم بنوم هانئ، وذلك ما كان يحتاجه في معظم الأوقات، إذ كان عليه أن يذهب إلى عمله عند السادسة صباحاً. ولكن بسبب العناد الذي كان يتملّكه منذ توليه منصب ساعي مصرف كان يصرّ دائماً على البقاء لفترة أطول إلى الطاولة، على الرغم من أنه كان بانتظام يستغرق في النوم مرة أخرى وفي النهاية لا ينهض من كرسيه ذي المساند إلاّ بشق الأنفس ويذهب إلى سريره. ومهما

بقيت أم غريغور وشقيقته تحثانه بإصرار برسائل تذكير لطيفة، كان يمضي ببطء هازاً رأسه لربع ساعة، ومغمضاً عينيه، ويرفض النهوض على قدميه. تشبّثت الأم بكمّه، وهي تهمس في أذنه عبارات التحبب، والأخت تركت دروسها لتأتي لمساعدة والدتها، ولكن لم يكن والد غريغور ليستجيب. كان فقط يغرق عميقاً في كرسيه. ولم يفتح عينيه حتى رفعته المرأتان عن طريق الإبطين ونظر إلى كليهما، الواحدة تلو الأخرى، معلّقاً عادة بهذه الملاحظة: «هذه هي الحياة. هذا هو سلام وهدوء كهولتي». وهو يتكئ عليهما رفعَ نفسه إلى الأعلى، بصعوبة، كما لو أصبح عبئاً كبيراً على نفسه، وحمّلهما عناء إيصاله حتى الباب ومن ثم يلوّح لهما بالابتعاد ويواصل طريقه بمفرده، في حين تخلّت الأم عن أعمال الإبرة، و[تخلّت] الشقيقة عن قلمها من أجل الجري بعده ومساعدته أكثر من ذلك.

مَن يمكن أن يجد الوقت، في هذه العائلة المنهَكَة والمتعبة، ليتجشم عناء الاهتمام بغريغور أكثر مما تقتضيه الحاجة على الإطلاق؟ لقد تناقص عديد العائلة أكثر فأكثر؛ وتم تسريح الخادمة؛ وكانت خادمة عملاقة بارزة العظام ذات شعر أبيض يتطاير حول رأسها تأتي في الصباح والمساء للقيام بالعمل الشاق؛ أما بقية الأشياء فكانت تقوم بها والدة غريغور، فضلاً عن أكوام كبيرة من أعمال الخياطة. وحتى حُلي الأسرة المختلفة، التي اعتادت ارتداءها أمه وأخته بكل فخر في الحفلات والمناسبات، فقد اضطروا لبيعها، حسبما اكتشف غريغور ذات مساء عند سماعهم جميعاً يناقشون الأسعار المستحصلة. لكن أشدّ ما يُحزنهم هو حقيقة أنه ليس بوسعهم ترك الشقة التي كانت كبيرة جداً بالنسبة لظروفهم الحالية، لأنهم لم يفكّروا بأية طريقة لنقل غريغور. مع ذلك، رأى غريغور جيداً بما فيه الكفاية أن الاهتمام به ليس الصعوبة الرئيسة التي تحول دون عملية الانتقال، لأنهم يمكن أن ينقلوه بسهولة بصندوق مناسب ذي بضعة ثقوب للهواء؛ إن ما يمنعهم حقاً من الانتقال إلى شقة أخرى يكمن في يأسهم

التام والاعتقاد بأنه مقدّر عليهم سوء الحظ الذي لم يحدث مثله قط لأي من أقاربهم أو معارفهم. لقد قاموا بكل ما يتطلبه العالَم من الفقراء، فقد جلب الأب وجبة الإفطار لصغار الكتبة في المصرف، والأم كرّست طاقاتها لصناعة الملابس الداخلية للغرباء، والأخت كانت تجري جيئة وذهاباً خلف الطاولة بناءً على طلب الزبائن، لكن خلا ذلك فإنهم لا يقوون على القيام بأي شيء. كما أن الجرح في ظهر غريغور بدأ يزعجه من جديد عندما جاءت والدته وأخته مرة أخرى، بعد توصيل والده إلى السرير، وتركتا عملهما على حاله، واقتربتا من بعضهما البعض، وجلستا لصق بعضهما؛ حينما قالت والدته وهي تشير نحو غرفته: «أغلقي ذلك الباب الآن، يا غريتا»، وتُرك مرة أخرى في الظلام، في حين اختلطت دموع المرأتين في الغرفة المجاورة أو ربما جلستا بلا دموع تحدقان في الطاولة.

ونادراً ما كان غريغور ينام على الإطلاق ليلاً أو نهاراً. فقد كان مهووساً غالباً بفكرة أنه في المرة القادمة ما إن يُفتح الباب حتى يتولى بيده شؤون الأسرة من جديد تماماً مثلما اعتاد على القيام بذلك سابقاً؛ مرة أخرى، بعد هذه الفترة الطويلة، أخذت تظهر في أفكاره شخوص الرئيس وكبير الموظفين، والتجار المتجولين والمتدربين، والبوّاب بطيء الفهم، واثنين أو ثلاثة أصدقاء في شركات أخرى، وخادمة في أحد الفنادق الريفية، ذكرى حلوة وعابرة، وأمينة صندوق في محل لبيع القبعات النسائية، التي كان قد خطب ودّها بجدية لكن ببطء شديد ـ كل هؤلاء ظهروا، جنباً إلى جنب مع الغرباء أو أناس كان قد نسيهم تماماً، ولكن بدلاً من مساعدته وعائلته فقد كانوا جميعاً صعبي المنال وكان سعيداً عندما تلاشوا. في أوقات أخرى لم يكن في وضع يمكّنه من الاهتمام بأسرته، فقد تملّكه الغضب من الطريقة التي يهملونه بها، وعلى الرغم من أنه ليست لديه فكرة واضحة عما يمكن أن يتناوله من طعام فكان يضع الخطط للوصول إلى مخزن حفظ الأطعمة لأخذ الطعام الذي هو رغم كل

شيء من نصيبه، حتى لو لم يكن جائعاً. ولم تعد شقيقته تفكّر بأن تجلب له ما قد يرضيه على نحو خاص، بل إنها في الصباح وعند الظهر قبل ذهابها إلى العمل كانت تدفع على عجل إلى غرفته بقدمها أي طعام متاح، وفي المساء تمسحه مرة أخرى بكنسة واحدة بالمكنسة، غير مبالية فيما إذا كان قد ذاقه، أو ـ كما كان يحدث في معظم الأحيان ـ يُترك على حاله. إن تنظيف غرفته، الذي درجت على القيام به الآن دائماً في المساء، لا يمكن أن تقوم به بمثل هذه العجلة. فطبقات التراب كانت تمتد على طول الجدران، وهنا وهناك كانت تتناثر كرات الغبار والقذارة. في البداية اعتاد غريغور أن يضع نفسه في زاوية قذرة على نحو خاص عندما تصل أخته، من أجل أن يؤنبها، إذا جاز التعبير. لكنه جلس هناك لمدة أسابيع دون أن يدفعها ذلك إلى أي تحسّن؛ فهي كانت ترى التراب كما كان هو يراه، لكنها ببساطة قررت في نفسها أن تتركه على حاله. مع ذلك، وبنزق بدا جديداً بالنسبة لها، وأصيب به على أية حال جميع أفراد الأسرة، كانت تدافع بغيرة عن ادعائها بأنها المهتمة الوحيدة بغرفة غريغور. وقد أخضعت والدته ذات مرة غرفته إلى تنظيف شامل، والذي كانت تقوم به عن طريق عدة دلاء من الماء ـ وكل هذه الرطوبة بالطبع كانت تضايق غريغور أيضاً فكان يرقد متمدداً، عابساً، وبلا حراك على الأريكة ـ لكنها تلقت عقابها جراء ذلك. وما إن لاحظت أخته ذلك الجانب المتغير من غرفته مساء ذلك اليوم حتى هرعت بغضب شديد إلى غرفة الجلوس وعلى الرغم من يديّ أمها المرفوعتين بتوسل، انفجرت بنوبة بكاء، في حين كان والداها ـ حيث جفل والدها بالطبع من كرسيه ـ ينظران في البداية بذهول عاجز؛ ثم بدأا أيضاً بالتدخل؛ فأنّب الوالدُ الأمَّ التي كانت إلى يمينه لعدم ترك أمر تنظيف غرفة غريغور لأخته؛ وصرخ على الشقيقة إلى يساره بأنه غير مسموح لها أبداً مرة أخرى تنظيف غرفة غريغور؛ في حين كانت الأم تحاول سحب

الوالد إلى غرفة نومه، لأنه كان مستشيطاً غضباً؛ أما الأخت، المترنحة بنوبة نحيب، فقد أخذت بعد ذلك تضرب على الطاولة بقبضتيها الصغيرتين؛ وكان غريغور يهسهس غضباً بصوت عالٍ لأن أياً منهم لم يفكر بإغلاق الباب لتجنيبه مثل هذا المشهد وكل تلك الضوضاء الكبيرة.

مع ذلك، حتى لو أن الأخت، التي أنهكها عملها اليومي، قد أصبحت تعبة من الاهتمام بغريغور كما كانت تفعل سابقاً، فليست هناك حاجة لتدخل والدته أو لاهمال غريغور على الإطلاق. كانت الخادمة هناك. هذه الأرملة العجوز، التي مكّنها هيكلها العظمي القوي من الصمود أمام أسوأ ما يمكن أن تقدّمه حياة طويلة، لم تتوان بأي حال من الأحوال عن مساعدة غريغور. وبدون قصد كانت قد فتحت ذات مرة عن طريق الصدفة باب غرفته وعند رؤيتها غريغور، الذي، فوجئ، بدأ يندفع جيئة وذهاباً برغم أن لا أحد يطارده، ووقفت هناك وهي تعقد ذراعيها. منذ ذلك الحين، لم تتوقف عن فتح بابه قليلاً لبعض الوقت، صباحاً ومساءً، لإلقاء نظرة عليه. في البداية حتى اعتادت أن تدعوه لها، بكلمات على ما يبدو كانت تحسبها ودية، مثل: «إذن، تعالَ إلى هنا يا خنفساء الروث العجوز!» أو «انظرْ إلى خنفساء الروث العجوز!» لم يجب غريغور مثل هذه النداءات، بل بقي واجماً حيث كان، كما لو أن الباب لم يفتح أبداً. وبدلاً من السماح بإزعاجه بلا رحمة متى ما تتملكها النزوة بذلك، فقد صدرت الأوامر لتلك الخادمة بتنظيف غرفته يومياً! ذات مرة، في وقت مبكر من الصباح ـ كانت الأمطار الغزيرة تضرب على النوافذ، ربما علامة على أن الربيع كان على الأبواب ـ كان غريغور غاضباً جداً عندما بدأت بمخاطبته مرة أخرى لدرجة أنه ركض نحوها، كما لو كان سيهاجمها، برغم بطئه وضعفه الشديدين. لكن الخادمة بدلاً من إظهار الخوف رفعت عالياً كرسياً صادف أن يكون بجانب الباب، وبينما وقفت هناك فاغرة فاها اتضح بأنها كانت لم تقصد إغلاقه إلاّ عندما تنزل الكرسي على ظهر غريغور.

«إذن فأنت لن تقترب؟» سألتْ، بينما تحوّل غريغور بعيداً مرة أخرى، وبهدوء أعادت الكرسي إلى الزاوية.

لم يأكل غريغور الآن أي شيء. فقط عندما كان يصادف أن يمرّ أمام الطعام الذي وضع له فإنه كان يتناول قطعة من أي شيء في فمه من باب تزجية الوقت، ويحتفظ بها هناك لمدة ساعة في كل مرة، وعادة ما يبصقها مرة أخرى. في البداية اعتقدَ بأن الكدر على حالة غرفته هو الذي منعه من تناول الطعام، ولكن سرعان ما اعتاد على التغيرات المختلفة في غرفته. وقد درجت الأسرة على أن تدفع إلى داخل غرفته الأشياء التي لم يكن لها هناك مجال في مكان آخر، وكان هناك الكثير من هذه الأشياء الآن، إذ تمّ إخلاء إحدى الغرف لثلاثة نزلاء. هؤلاء السادة الجديون ـ حيث كان لثلاثتهم لحى كاملة، مثلما لاحظ غريغور ذات مرة من خلال شق في الباب ـ كان لديهم شغف بالنظام، ليس فقط في غرفتهم الخاصة بهم ولكن، طالما أنهم الآن من أفراد الأسرة، في جميع ترتيباتها، وخصوصاً في المطبخ. فهم لا يطيقون الأشياء الزائدة عن الحد، ولا نقول القذرة. فضلاً عن ذلك، كانوا قد جلبوا معهم أغلب المفروشات التي يحتاجونها. لهذا السبب أمكن الاستغناء عن الكثير من الأشياء التي لا فائدة من محاولة بيعها والتي لا ينبغي أن تُرمى بعيداً أيضاً. ووجدت جميع هذه الأشياء طريقها إلى غرفة غريغور. صفيحة الرماد وقمامة المطبخ هي الأخرى وجدت طريقها إلى غرفته. فأي شيء لا حاجة لهم به في الوقت الحاضر يُرمى ببساطة في غرفة غريغور على يد الخادمة، التي كانت تفعل كل شيء في عجلة من أمرها؛ ولحسن الحظ عادة ما كان غريغور يرى فقط الشيء، مهما كان نوعه، واليد التي كانت تحمله. ربما كانت تعتزم إبعاد الأشياء مرة أخرى كلما سنح لها الوقت والفرصة، أو جمعها حتى تتمكن أن تلقيها جميعاً في كومة، ولكن في الحقيقة كانت هذه الأشياء تقبع أينما صادف أن ترميها، ما عدا حينما يشقّ غريغور طريقه من خلال كومة الزبالة ويحوّل مكانها إلى حد ما، في البداية بدافع الضرورة،

لأنه لم تكن لديه مساحة كافية للزحف، لكن فيما بعد [يحوّلها] بمتعة متزايدة، برغم أنه بعد رحلات كهذه، عندما يصبح حزيناً ومرهقاً حد الموت، يتمدد بلا حراك لعدة ساعات. ولأن النزلاء غالباً ما كانوا يتناولون عشاءهم في البيت في غرفة الجلوس المشتركة، كان باب هذه الغرفة يبقى مغلقاً في العديد من الأماسي، مع ذلك وطّن غريغور نفسه بسهولة تامة على إغلاق الباب، ففي كثير من الأحيان في الأماسي عندما يتم فتحه كان يتجاهله تماماً ويقبع في أحلك زاوية من غرفته، بعيداً تماماً عن أعين العائلة. لكن في إحدى المناسبات تركت الخادمة الباب مفتوحاً قليلاً وبقي موارباً حتى عندما دخل النزلاء لتناول العشاء وأضيء المصباح. وضعوا أنفسهم في مقدمة الطاولة حيث كان سابقاً غريغور ووالده ووالدته يتناولون وجبات طعامهم، وفتحوا مناديلهم، وأخذ كل منهم السكين والشوكة. وفي الحال ظهرت والدته في المدخل الآخر مع طبق من اللحم ومن ورائها مباشرة [ظهرت] أخته مع طبق من البطاطا مكدسة عالياً. كان بخار كثيف يتصاعد من الطعام. انحنى النزلاء على الطعام الموضوع أمامهم كما لو أنهم يدققونه قبل الأكل، في الواقع قام الرجل في المنتصف، الذي بدا أنه يحمل سطوة على الاثنين الآخرَين، بقطع قطعة من اللحم كانت في الطبق، من الواضح أنه يريد أن يكتشف إذا كانت ناضجة أو يتوجب إرسالها مرة أخرى إلى المطبخ. أبدى ارتياحه، ولهذا تنفّست أم غريغور وأخته، اللتان كانتا تراقبان بقلق، الصعداء وبدأتا تبتسمان.

كانت العائلة نفسها تتناول وجبات طعامها في المطبخ. مع ذلك، دخل والد غريغور إلى غرفة الجلوس قبل أن يذهب إلى المطبخ وبانحناءة طويلة، وقبعته في يده، دار حول المنضدة. وقف النزلاء الثلاثة كلهم وغمغموا بشيء ما. عندما كانوا بمفردهم مرة أخرى أخذوا يأكلون طعامهم بصمت مطبق تقريباً. وبدا جلياً لغريغور بأنه من بين مختلف الأصوات القادمة من الطاولة كان دائماً ما يتمكن من تمييز صوت مضغ أسنانهم، كما لو أن هذا علامة لغريغور بأن المرء بحاجة

إلى أسنان من أجل أن يتناول الطعام، وأنه بفكين بلا أسنان مهما كانت قوتهما لا يمكن للمرء أن يفعل شيئاً. «إنني جائع جداً»، قال غريغور بحزن لنفسه، «ولكن ليس لذلك النوع من الطعام. كيف يمكن لهؤلاء النزلاء أن يحشوا بطونهم، وأنا هنا أتضور جوعاً!»

في ذلك المساء بالذات ـ طوال فترة وجوده هناك لم يستطع غريغور أن يتذكر أنه استمع للكمان قط ـ جاء صوت عزف الكمان من المطبخ. كان النزلاء قد انتهوا لتوهم من تناول عشائهم، وجلب الشخص في المنتصف صحيفة وأعطى الآخرين صفحة منها، وهم الآن متكئون على ظهورهم بارتياح يقرؤون ويدخنون. عندما بدأ الكمان بالعزف أصاخوا السمع ووقفوا على أقدامهم، ثم مشوا على رؤوس أصابعهم إلى باب الصالة حيث وقفوا لصق بعضهم البعض. كانت حركاتهم لا بد أن تُسمع في المطبخ، حيث صاح والد غريغور: «هل إن عزف الكمان يزعجكم، أيها السادة؟ يمكن أن نوقفه في الحال؟». «على العكس من ذلك»، قال النزيل الأوسط، «ألا يمكن أن تأتي الآنسة سامسا وتعزف في هذه الغرفة، إلى جانبنا، حيث يكون هذا أكثر ملاءمة وراحة؟» فصرخ والد غريغور كما لو كان عازف الكمان «أوه بالتأكيد». عاد النزلاء إلى غرفة الجلوس وانتظروا. في الوقت الحاضر وصل والد غريغور مع مسند الموسيقى، فيما كانت والدته تحمل النوطة الموسيقية وأخته تحمل الكمان. قامت أخته بهدوء بإعداد كل شيء لبدء العزف؛ فيما والداه، اللذان لم يؤجرا الغرف قط من قبل وهكذا كانت لديهما فكرة مبالغ فيها عن المجاملة التي يستحقها النزلاء، لم يجرؤا على الجلوس على كراسيهما؛ استند والده إلى الباب، حيث أقحم يده اليمنى بين زرارين من أزرار معطف عمله، الذي زرّره بطريقة رسمية؛ لكن أمه عُرض عليها كرسي من أحد النزلاء ولأنها تركت الكرسي بالضبط حيث كان قد وَضَعَه، جلست في زاوية إلى أحد الجوانب.

بدأت شقيقة غريغور بالعزف؛ الأب والأم، من كلا الجانبين، كانا يشاهدان باهتمام حركات يديها. غريغور، الذي راق له العزف، جازف أن يتحرك إلى الأمام قليلاً حتى أصبح رأسه فعلاً داخل غرفة الجلوس. لم يشعر بأية مفاجأة في إقامة أي وزن للآخرين؛ فقد كان هناك وقتٌ عندما كان يزهو بنفسه لكونه مراعياً لمشاعر الآخرين. ومع ذلك فقط في هذه المناسبة بالذات كان أكثر تعقلاً من أي وقت مضى لإخفاء نفسه، لأنه، وبسبب كمية الغبار الذي تراكم بكثافة في غرفته وكان يتصاعد في الهواء بأدنى حركة، فقد تغطى أيضاً بالغبار؛ فالزغب والشعر وبقايا الطعام علقت في أذياله، والتصقت بظهره على طول جنبيه؛ وكانت لا مبالاته بأي شيء كبيرة جداً بالنسبة له بحيث لا يقوى على الانقلاب على ظهره وحكّ جسمه على السجادة لتنظيفه، كما كان ذات يوم يقوم بذلك عدة مرات في اليوم. وعلى الرغم من حالته هذه، لم يثنِه أي خجل من الاندفاع قليلاً على الأرضية الناصعة لغرفة الجلوس.

ومن المؤكد أن لا أحد كان على علم به. فالعائلة مستغرقة تماماً في العزف على الكمان؛ أما النزلاء، على أية حال، الذين في المقام الأول رابطوا، وأيديهم في جيوبهم، على مقربة كبيرة جداً خلف حامل النوطة الموسيقية بحيث تمكّن جميعهم من قراءة الموسيقى، وهذا لا بد أنه أزعج أخته، سرعان ما تراجعوا إلى النافذة، يتهامسون برؤوس مطأطئة، وبقوا هناك في حين كان والده يرمقهم بعين القلق. وبالفعل، فقد أوضحوا بأنهم أصيبوا بخيبة أمل في توقعاتهم حول الاستماع إلى عزف كمان جيد أو ممتع، وقد ملّوا بما فيه الكفاية من الأداء وفقط من باب المجاملة تحملّوا هذا الإزعاج المستمر لطمأنينتهم. ومن خلال الطريقة التي ظلوا فيها جميعاً ينفثون دخان سجائرهم عالياً في الهواء عبر الأنف والفم، يمكن للمرء أن يتكهن مدى حنقهم. ومع ذلك كانت شقيقة غريغور تعزف بشكل جميل جداً. كان وجهها يميل جانباً، وباهتمام وحزن تابعت عيناها

النوطة الموسيقية. زحف غريغور إلى الأمام قليلاً وطأطأ رأسه إلى الأرض من أجل أن يكون من الممكن لعينيه أن تلتقيا بعينيها. هل كان حيواناً، بحيث يكون للموسيقى تأثير عليه؟ شعر كما لو أن الطريق كان ينفتح أمامه إلى الغذاء المجهول الذي تاق إليه. وعقد العزم على المضي قدماً حتى وصل أخته، ليسحب تنورتها وبذلك جعلها تعرف بأن عليها المجيء إلى غرفته بكمانها، لأنه لا أحد هنا يقدّر عزفها مثلما يقدّره هو. ولن يسمح لها مطلقاً بالخروج من غرفته، على الأقل، ما دام على قيد الحياة؛ حيث إن مظهره المخيف سيصبح، لأول مرة، مفيداً له؛ سوف يراقب جميع أبواب غرفته حالاً ويبصق على المتطفلين؛ لكن شقيقته لا بد أنها لا تحتاج إلى ضغط، فهي ستبقى معه بمحض إرادتها؛ وسوف تجلس بجانبه على الأريكة، وتدير أذنها له، وتسمعه يسرّ لها بأن لديه النية القوية لإرسالها إلى الكونسرفاتوار، وأنه، لولا مصيبته، في عيد الميلاد الماضي ـ هل مرّ بالتأكيد عيد الميلاد منذ فترة طويلة؟ ـ لأَعلنَ ذلك إلى الجميع دون السماح لأي اعتراض واحد. وبعد هذا الاعتراف، ستتأثر شقيقته بحيث تنفجر بالبكاء، وعندها سوف يرفع غريغور نفسه إلى كتفها ويقبّلها على الرقبة، التي، بسبب ذهابها إلى عملها، أبقتها خالية من أي شريط أو طوق.

«السيد سامسا!» صاح النزيل الأوسط على والد غريغور، وأشار، من دون إضاعة أية كلمات أخرى، إلى غريغور، الذي كان الآن يجهد نفسه ليتقدم ببطء إلى الأمام. صمتَ الكمان، فابتسم النزيل الأوسط أولاً إلى صديقيه مع هزة رأس ومن ثم نظر إلى غريغور مرة أخرى. وبدلاً من إخراج غريغور، بدا والده يعتقد بأنه من الضروري البدء بتلطيف الأجواء لدى النزلاء، برغم أنهم لم يكونوا مهتاجين مطلقاً وعلى ما يبدو وجدوا غريغور أكثر تسلية من العزف على الكمان. أسرع نحوهم وبينما ينشر ذراعيه، حاول حثّهم على العودة إلى غرفتهم الخاصة بهم، وفي الوقت نفسه منع رؤيتهم لغريغور. بدؤوا الآن حقاً يغتاظون

قليلاً، ولا يمكن للمرء أن يعرف ما إذا كان ذلك بسبب سلوك الرجل العجوز أو لأنه قد تبيّن لهم للتو من دون أن يعلموا بأن لديهم جاراً مثل غريغور في الغرفة المجاورة. وطالبوا بتوضيحات من والده، وهم يلوحون بأذرعهم مثله، ويقبضون على لحاهم بقلق، وبتردد قفلوا راجعين نحو غرفتهم. في غضون ذلك عادت شقيقة غريغور، التي كانت تقف هناك كما لو أنها غائبة عن الوعي عندما تمّ إيقاف عزفها فجأة، [عادت] إلى وعيها مرة أخرى، واستجمعت شتات قواها في الحال بعد الوقوف لبرهة وهي تحمل الكمان والقوس بيدين مرتجفتين واهنتين وتحدّق في نوطتها الموسيقية، ودفعت الكمان إلى حضن أمها، التي كانت ما تزال جالسة في كرسيها تصارع الربو لالتقاط أنفاسها، وركضت نحو غرفة النزلاء التي قادهم إليها الآن والدها بسرعة أكبر من ذي قبل. وبوسع المرء أن يرى الوسائد والبطانيات على الأسرّة وهي تتطاير تحت أصابعها المعتادة على ذلك وتوضع بشكل منتظم. وقبل أن يصل النزلاء فعلاً إلى غرفتهم، كانت قد انتهت من ترتيب الأسرّة وانسلّت خارجة.

بدا الرجل العجوز مرة أخرى تتملكه نوبة عناد أنْسَتْه كل الاحترام الذي ينبغي أن يظهره لنزلائه. فقد بقي يدفعهم ويدفعهم حتى عند باب غرفة النوم بالذات وضع النزيل الأوسط قدمه بصوت عالٍ على الأرض وبذلك أوقفه. «أودّ أن أعلن»، قال النزيل، رافعاً إحدى يديه ومتطلعاً أيضاً إلى أم غريغور وشقيقته، «أنه نظراً للظروف المثيرة للاشمئزاز السائدة في هذا البيت وهذه العائلة» ـ وهنا بصق على الأرض كتأكيد موجز على كلامه ـ «فإنني أريد أن ألفت انتباهك هنا. بطبيعة الحال أنا لن أدفع لك فلساً واحداً عن الأيام التي عشتُ فيها هنا، بل على العكس أنا أفكّر في رفع دعوى ضدك بالتعويض عن الأضرار، بناءً على الادعاءات ـ صدقني ـ التي من شأنها أن تكون بسهولة عرضة للإثبات». توقف وأخذ يحدق مباشرة أمامه، كما لو أنه يتوقع شيئاً ما. في الحقيقة استغل صديقاه في الحال

هذه الثغرة متفوهين بهذه الكلمات: «ونحن أيضاً نريد أن نعطيك إشعاراً هنا». وعند هذه النقطة أمسك بقبضة الباب وأغلقه بصفقة قوية.

ترنّح والد غريغور، وهو يتلمس بيديه، إلى الأمام وسقط في كرسيه؛ بدا الأمر كما لو أنه كان يتمدد هناك لأخذ قيلولته المسائية المعهودة، لكن اهتزازات رأسه الملحوظة، التي بدت وكأنها خارج السيطرة، أظهرته بأنه أبعد من أن يكون نائماً. وكان غريغور ببساطة قد بقي هادئاً طوال الوقت في المكان ذاته حيث كان النزلاء يراقبونه. إن خيبة الأمل لفشل خطته، وربما أيضاً الضعف الناجم عن الجوع الشديد، جعلت من المستحيل بالنسبة له أن يتحرك. كان يخشى، بدرجة معقولة من اليقين، بأنه في أية لحظة سينتهي التوتر العام بهجوم مشترك عليه، وهكذا بقي مستلقياً ينتظر. ولم تكن له أية ردة فعل حتى بالنسبة للضوضاء التي يصدرها الكمان عندما سقط من حضن أمه من تحت أصابعها المرتجفة وأصدر صوتاً مجلجلاً.

«والداي العزيزان»، قالت شقيقته، وهي تضرب يدها على الطاولة كمقدمة لكلامها، «الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا المنوال، ربما أنتما لا تدركان ذلك، لكنني أدركه. أنا لن أنطق باسم أخي بحضور هذا المخلوق، وهكذا فكل الذي أقوله هو: يجب أن نحاول التخلص منه. لقد حاولنا الاهتمام به وتحمّلنا ذلك بقدر إمكانياتنا كبشر، وأنا لا أعتقد بأن أحداً يمكن أن يلومنا على الإطلاق».

«إنها على حق تماماً»، قال والد غريغور لنفسه. أما والدته، التي كانت ما تزال تختنق لعدم قدرتها على التنفس، فقد بدأت بالسعال بشكل مكتوم في يدها فيما اعتملت نظرة غاضبة في عينيها.

وهرعت أخته صوبها ورفعت جبينها. بدت أفكار والده وكأنها فقدت غموضها عند كلمات غريتا، وجلس بشكل أكثر استقامة، وهو يلهو بإصبعه بطاقية الخدمة

الواقعة بين الأطباق التي ما تزال موضوعة على الطاولة بعد انتهاء عشاء النزلاء، ومن وقت لآخر كان ينظر في الشكل الجامد لغريغور.

«يجب أن نحاول التخلص منه»، قالت أخته الآن بشكل واضح إلى والدها، لأن والدتها كانت تسعل كثيراً جداً بحيث لا يمكن سماع كلمة واحدة، «وسيكون هذا مدعاة لوفاة كلٍّ منكما، يمكنني أن أتخيّل ذلك حاصلاً. عندما يكون على المرء أن يعمل بأقصى طاقة كما نفعل الآن، نحن جميعاً، فإن ذلك المرء لا يسعه أن يتحمل هذا العذاب المستمر في البيت فوق عذابه هو. على الأقل إنني لا أطيق تحمل هذا لفترة أطول». وانفجرت بمثل هذه النوبة من النحيب بحيث أن دموعها سالت على وجه والدتها، إذ مسحتها بشكل آلي.

«يا عزيزتي»، قال الرجل العجوز بتعاطف، وبتفهّم واضح، «ولكن ماذا عسانا نفعل؟»

وهزّت شقيقة غريغور كتفيها بلا مبالاة دلالة على الشعور بالعجز الذي قد تملّكها الآن أثناء نوبة نحيبها، مقارنة بثقتها السابقة.

«لو كان بإمكانه أن يفهمنا»، قال والدها، بما يشبه التساؤل؛ بينما غريتا التي ما تزال تنتحب، كانت تلوّح بشدة بيدها لإظهار كيف أن ذلك لا يمكن تصوره.

«لو كان بامكانه أن يفهمنا»، كرّر الرجل العجوز ما قاله، وهو يغلق عينيه لتخيّل قناعة ابنته بأن ذلك الفهم كان ضرباً من المستحيل، «عندها ربما نتوصل إلى بعض الاتفاق معه. ولكن بما أن الأمر ـ»

«يجب أن يذهب»، صرخت شقيقة غريغور، «ذلك هو الحل الوحيد، يا أبي. ما عليك سوى محاولة التخلص من فكرة أن هذا هو غريغور. فالحقيقة التي قد آمنّا بها منذ فترة طويلة هي أصل كل مشكلاتنا. ولكن كيف يمكن أن يكون هذا هو غريغور؟ لو كان هذا هو غريغور، لأدرك منذ وقت طويل أن الإنسان لا يمكنه

أن يعيش مع مخلوق كهذا، ولذهب بعيداً من تلقاء نفسه. عندها لن يكون لدينا أي أخ، ولكن سيكون بمقدورنا الاستمرار في العيش والاحتفاظ بذكراه بكل اعتزاز. وهو بهذا الوضع، فهذا المخلوق يضطهدنا، ويبعد نزلاءنا، من الواضح أنه يريد الشقة كلها لنفسه، ويجعلنا جميعاً ننام في البالوعة. «فقط انظر يا أبي»، صرخت بأعلى صوتها في الحال، «ها هو إذن يعود مرة أخرى!» وبنوبة ذعر لم يفقهها غريغور تماماً تركت حتى والدتها، وهي تقوم بالضبط بدفع الكرسي عنها كما لو أنها تفضّل التضحية بوالدتها على البقاء قريبة جداً من غريغور، واندفعت وراء والدها، الذي نهض أيضاً، لشعوره بالضيق والانزعاج من سورة غضبها، ونشرَ ذراعيه وكأنه يريد حمايتها.

مع ذلك لم يكن لدى غريغور أدنى نية لإخافة أي شخص، بما فيهم أخته. فقط كان قد بدأ يستدير حول نفسه من أجل أن يزحف راجعاً إلى غرفته، لكن من المؤكد كانت هذه عملية تبعث على الخوف لمن يشاهدها، لأنه بسبب حالة عوقه فإنه لم يتمكن من تنفيذ الحركات الصعبة إلاّ برفع رأسه ومن ثم تثبيته على الأرضية مراراً وتكراراً. توقّف ونظر حوله. بدأت نواياه الحسنة تتضح؛ فالذعر لم يكن سوى لفترة وجيزة. الآن كانوا جميعاً يشاهدونه بصمت مكفهر. كانت والدته جالسة في كرسيها، وكانت ساقاها ممدودتين بتصلّب وملتصقتين معاً، وعيناها مغلقتين تقريباً في حالة من الضجر؛ فيما كان والده وأخته يجلسان بجانب بعضهما البعض، حيث ذراع شقيقته حول عنق الرجل العجوز.

ربما أستطيع أن أستمر في الدوران الآن، فكّر غريغور، وبدأ محاولاته مرة أخرى. ولم يتمالك نفسه من اللهاث بسبب الجهد، لذلك كان عليه أن يتوقّف بين الفينة والأخرى ليلتقط أنفاسه. كما أنه لم يضايقه أي شخص، وتُرِك تماماً وشأنه. عندما أكمل دورانه حول نفسه بدأ في الحال في الزحف راجعاً مباشرة. وقد استغرب من المسافة التي تفصل بينه وبين غرفته ولم يتمكن من فهم كيف

أنه تمكّن في حالته الضعيفة من القيام بالرحلة نفسها حتى وقت قريب، تقريباً من دون أن يدرك ذلك. وإذ عزم على الزحف بأسرع وقت ممكن، لم يلحظ كلمة واحدة، ولا صرخة من عائلته، قد تدخلت في إعاقة مسيرته. فقط عندما وصل إلى المدخل أدار رأسه، ليس بشكل كامل، لأن عضلات رقبته متصلبة، لكنه يكفيه أن يرى بأن لا شيء قد تغيّر وراءه ما عدا أن أخته كانت قد وقفت على قدميها. وقعت آخر نظراته على أمه، التي لم يغلبها النعاس تماماً.

وما إن كاد أن يكون على خير ما يرام داخل غرفته حتى تمّ إغلاق الباب على عجل، وسُدّ بالمزلاج، وأقفل. الضجيج المفاجئ خلفه أصابه بالذهول كثيراً لدرجة أن سيقانه الصغيرة خذلته. كانت شقيقته هي التي أظهرت مثل هذه العجلة. فقد كانت تقف مستعدة تنتظر وقامت بقفزة خفيفة إلى الأمام، من دون أن يسمع غريغور بقدومها، وصاحت لوالديها قائلة «أخيراً!» بينما كانت تدير المفتاح في القفل.

«وماذا بعد؟» قال غريغور لنفسه، وهو يتلفّت حوله في الظلام. وسرعان ما اكتشف أنه الآن غير قادر على تحريك أطرافه. ولم يفاجئه هذا، بل بدا من غير الطبيعي أنه لا بد أن يكون في الواقع قادراً على التحرك بهذه السيقان الصغيرة الواهنة. مع ذلك شعر بالراحة نسبياً. صحيح أن جسمه كله كان يؤلمه، لكن بدا بأن الألم أخذ يخفّ تدريجياً وسوف يزول أخيراً. إن التفاحة المتعفنة في ظهره والمنطقة الملتهبة من حولها، المعفّرة كلها بالتراب الناعم، لم تعد تؤرقه. وأخذ يفكّر بأسرته بحنان وحب. والقرار الذي يقضي بأنه يجب أن يختفي هو ذلك الذي تمسّك به بقوة أكثر حتى من أخته، لو كان ذلك ممكناً. في خضم هذه الحالة من التأمل الحر والهادئ بقي هكذا حتى دقّ برج الساعة الثالثة صباحاً. وأعاده إلى وعيه مرة أخرى أولُّ ضياء في العالم خارج النافذة. ثم سقط رأسه على الأرض من تلقاء نفسه ومن منخاريه خرجت آخر خفقة واهنة من أنفاسه.

عندما وصلت الخادمة في وقت مبكر من الصباح ـ والتي ما بين قوتها ونفاد صبرها صفقت كل الأبواب بصوت عال جداً، دون أن تكترث بما قيل لها بعدم القيام بذلك، بحيث لا أحد في الشقة كلها يمكنه التمتع بأي نوم هانئ بعد وصولها ـ لم تلاحظ أي شيء غير عادي عندما ألقت كالعادة بنظرها في غرفة غريغور. ظنت أنه يرقد بلا حراك عمداً، متظاهراً بتعكّر المزاج؛ فقد كانت تراه بعين الذكاء. ولأنه صادف أن تكون في يدها مكنسة ذات مقبض طويل فقد حاولت مداعبته بها من مدخل الغرفة. وحينما لم يتمخّض عن ذلك أيضاً أي رد فعل شعرت بالغيظ ونكزته بشكل أقوى قليلاً، ولم تنتبه إلاّ عندما دفعته على طول أرضية الغرفة دون أية مقاومة. ولم يأخذ منها ذلك فترة طويلة لتقف على حقيقة الأمر، واتسعت عيناها، وصَفَرت، مع ذلك لم تضيع الكثير من الوقت حول ذلك الموضوع بل فتحت باب غرفة نوم سامسا وصرخت في الظلام بأعلى صوتها: «انظروا إلى هذا، إنه قد مات؛ فهو يرقد هنا ميتاً بلا حراك!»

بدأ السيد والسيدة سامسا يستيقظان في سريرهما المزدوج وقبل أن يدركا طبيعة إعلان الخادمة وجدا صعوبة في التغلب على صدمته. لكن بعد ذلك خرجا من فراشهما بسرعة، كل واحد من جانب، السيد سامسا يرمي بطانية على كتفيه، والسيدة سامسا لم ترتدِ شيئاً سوى ثوب نومها؛ وبهذه الهيئة دخلا غرفة غريغور. في غضون ذلك فُتح باب غرفة الجلوس، أيضاً، حيث كانت غريتا نائمة منذ قدوم النزلاء؛ كانت ترتدي ثيابها بالكامل كما لو أنها لم تكن في الفراش، وبدأ ذلك يتأكد أيضاً بشحوب وجهها. «مات؟» قالت السيدة سامسا، وهي تنظر بتساؤل إلى الخادمة، برغم أنها قد تحققت بنفسها، وكانت الحقيقة واضحة بما فيه الكفاية دونما تحقيق. «لا بد أن أقول ذلك»، قالت الخادمة، وهي تثبت كلماتها عن طريق دفع جثة غريغور بعيداً إلى أحد الجوانب بعصا مكنستها. وبدت حركة من السيدة سامسا حركة كما لو أنها تريد صدّها، لكنها توقفت.

«حسناً»، قال السيد سامسا، «الحمد للّه الآن». ورسم علامة الصليب، وحذت النسوة الثلاثة حذوه. وقالت غريتا، التي لم ترفع عينيها عن الجثة: «انظروا فقط كيف أصبح هزيلاً. فمنذ وقت طويل لم يأكل أي شيء. فالطعام كان يخرج مرة أخرى من غرفته تماماً مثلما كان يدخل». بالفعل، كان جسم غريغور مسطحاً وجافاً تماماً، الذي يمكن مشاهدته الآن عندما لم تعد تدعمه السيقان ولا شيء يمنع من النظر إليه عن كثب.

«تعالي بجانبنا يا غريتا، لبعض الوقت»، قالت السيدة سامسا بابتسامة مرتجفة، وغريتا، التي لم تتوقف عن النظر خلفها إلى الجثة، تبعت والديها إلى غرفة نومهم. أغلقت الخادمة الباب وفتحت النافذة على مصراعيها. وبرغم أن الوقت كان مبكراً جداً في الصباح كانت عذوبة معينة يمكن الإحساس بها في الهواء الطلق. وفوق كل هذا، كانت هذه بالفعل نهاية آذار.

خرج النزلاء الثلاثة من غرفتهم، وكانت مفاجأة أن لا يروا أية وجبة إفطار؛ فقد نسيهم الجميع. «أين طعام إفطارنا؟» قال النزيل الأوسط بانزعاج إلى الخادمة. لكنها وضعت إصبعها على شفتيها وعلى عجل، من دون أن تنبس ببنت شفة، أومأت إليهم بأنه ينبغي أن يذهبوا إلى غرفة غريغور. وقد فعلوا ذلك ووقفوا، وأيديهم في جيوب سراويلهم الرثة إلى حد ما، حول جثة غريغور في الغرفة التي أصبحت الآن مضاءة تماماً.

وعند ذاك فُتح باب غرفة نوم السيد سامسا وزوجته وظهر السيد سامسا في زيه وزوجته تُمسك بإحدى ذراعيه، وابنته تُمسك بالذراع الأخرى. وبدا الجميع كلهم كما لو كانوا قد بكوا؛ ومن وقت لآخر كانت غريتا تخبئ وجهها في ذراع والدها.

«غادِروا منزلي حالاً!» قال السيد سامسا، وأشار إلى الباب من دون فك ذراعيه

من ذراعي المرأتين. «ماذا تقصد بذلك؟» قال النزيل الأوسط بابتسامة واهنة، وقد فوجئ إلى حد ما. فيما وضع الاثنان الآخران أيديهما خلفهما وجعلا يفركونها ببعضها البعض، كما لو كانا يرقبان فرحَين معركة رائعة كانا لا بد أن يخرجا منها فائزَين. «أقصد تماماً ما أقول»، أجاب السيد سامسا، وتقدّم بخط مستقيم مع رفيقَتيه نحو النزيل. لقد تمسّك بموقفه في البداية بهدوء، وهو ينظر إلى أرضية الغرفة كما لو أن أفكاره اتخذت نمطاً جديداً في رأسه. «إذن فلْنذهب، على أية حال»، قال ذلك ثم نظر إلى السيد سامسا وكأنه يتوقع في هذا الإذعان المفاجئ تغييراً متجدداً لهذا القرار. وأومأ السيد سامسا بشكل مقتضب مرة أو مرتين بعينين محملتين بالمعاني. إذ ذاك دخل النزيل حقاً بخطوات طويلة إلى الصالة، فيما كان صديقاه الآخران يستمعان وقد توقفا تماماً عن فرك أيديهما للحظات وانطلقا الآن وراءه مسرعَين وكأنهما يخشيان بأن السيد سامسا ربما يدخل إلى الصالة قبلهما ويعزلهما عن زعيمهما. في الصالة أخذ الثلاثة جميعهم قبعاتهم من حامل القبعات، وعصيهم من مسند المظلات، وانحنوا بصمت، وغادروا الشقة. وبارتياب غير مبرّر تماماً تبعهم السيد سامسا والمرأتان إلى مهبط السلّم؛ وهم يستندون على الدرابزين جعلوا يراقبون الشخصيات الثلاث ببطء ولكن بثبات وهم ينزلون الدرجات الطويلة، ويغيبون عن الأبصار عند منحنى معين من السلّم في كل طابق ثم يظهرون للعيان مرة أخرى بعد لحظة أو نحوها؛ وكلما تضاءلوا هابطين، تضاءل اهتمام عائلة سامسا بهم، وعندما قابلهم صبي الجزار ومرّ من أمامهم على السلّم صاعداً بفخر وهو يحمل صينية على رأسه، غادر السيد سامسا والمرأتان مهبط السلّم وعادوا إلى شقتهم وكأن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عنهم.

قرروا قضاء هذا اليوم في الراحة والذهاب للتنزه؛ فهم ليس فقط يستحقون مثل هذه الراحة من العمل، ولكنهم كانوا بحاجة إليها بالتأكيد. وهكذا جلسوا إلى الطاولة وكتبوا ثلاث خطابات اعتذار، السيد سامسا إلى مجلس إدارته، والسيدة

سامسا إلى رب عملها، وغريتا إلى رئيس شركتها. وبينما كانوا يحررون هذه الخطابات، دخلت الخادمة لتقول بأنها ذاهبة الآن، ذلك لانتهاء عملها الصباحي. في البداية هزّوا رؤوسهم فقط دون النظر إليها، ولكن لأنها بقيت تحوم هناك فقد رمقوها بانفعال. «حسناً؟» قال السيد سامسا. وقفت الخادمة مبتسمة ابتسامة عريضة في المدخل وكأن لديها أخباراً سارة تريد نقلها إلى الأسرة، لكن قصدت أن لا تتفوه بأية كلمة إلا إذا استفهموا منها بشكل صحيح. كانت ريشة النعام الصغيرة التي تقف منتصبة على قبعتها، والتي قد أزعجت السيد سامسا منذ خطوبتها، [كانت] تتمايل بمرح في كل الاتجاهات. «حسناً، ماذا وراءك؟» سألت السيدة سامسا، التي حظيت بالمزيد من الاحترام من جانب الخادمة أكثر من الآخرين. «أوه»، قالت الخادمة، وهي تضحك بشكل وديّ لدرجة أنها لم تتمكن من الاستمرار حالاً، «هذا كل شيء، فأنتم لستم بحاجة إلى إزعاج أنفسكم حول كيفية التخلص من ذلك الشيء في الغرفة المجاورة. فقد أجريتُ اللازم بخصوصه». وانكبّت السيدة سامسا وغريتا على خطاباتهما مرة أخرى، وكأنهما قلقتان من حصول شيء ما؛ إذ إن السيد سامسا، الذي رأى بأنها متلهفة لوصف الأمر بالتفصيل الممل، أوقفها بيد حاسمة. ولكن لأنه لم يُسمح لها بأن تروي قصتها، فقد ذكرت العجلة الكبيرة التي كانت فيها، من الواضح أنها ثارت ثائرتها بدرجة كبيرة: «إلى اللقاء جميعاً»، قالت ذلك، فيما كانت تدور مبتعدة بعنف، وغادرت وهي تصفق الأبواب خلفها بشكل مخيف.

«سوف تُعطى إشعاراً هذه الليلة»، قال السيد سامسا، لكنه لم يتلقّ أي إجابة لا من زوجته ولا من ابنته، لأن الخادمة بدا أنها أفسدت مرة أخرى السكينة التي كادتا تحققانها. لذلك نهضتا، وذهبتا نحو النافذة وبقيتا هناك، وهما تحتضنان بعضهما البعض بقوة. وتحوّل السيد سامسا في كرسيه لينظر إليهما، وراقبهما بهدوء لبعض الوقت. ثم نادى: «تعاليا، الآن، رجاءً. عفا اللّه عما سلف. وربما

تهتمان بي بعض الشيء». وامتثلت الاثنتان كلتاهما في الحال، وأسرعتا إليه، وداعبتاه، وسرعان ما انتهتا من كتابة خطاباتهما.

بعد ذلك غادر الثلاثة جميعهم الشقة سوية، وهذا ما لم يقوموا به منذ شهور، وذهبوا عن طريق الترام إلى الريف المفتوح خارج المدينة. كان الترام، الذي كانوا فيه الركاب الوحيدين، مليئاً بأشعة الشمس الدافئة. وإذ يميلون باسترخاء إلى الخلف في مقاعدهم أخذوا يناقشون توقعاتهم للمستقبل، وبدا عند التمحيص، بأن هذه التوقعات لم تكن سيئة بالمرة، لأن الوظائف التي حصلوا عليها، والتي حتى الآن لم يناقشوها قط مع بعضهم البعض، كانت من أروع ثلاث وظائف، ويحتمل أن تؤدي إلى حصول أشياء أفضل في وقت لاحق. إن أكبر تحسن فوري في حالتهم بالطبع يتأتّى من الانتقال إلى منزل آخر؛ فقد أرادوا أن يأخذوا شقة أصغر وأرخص ولكن أيضاً في موقع جيد ويمكن إدارتها بسهولة أكثر من الشقة التي كانت لديهم، والتي كان قد اختارها غريغور. وبينما كانوا هكذا يتجاذبون أطراف الحديث، تفاجأ كل من السيد سامسا وزوجته، تقريباً في اللحظة نفسها، عندما أصبحوا على علم بحيوية ابنتهما المتزايدة، بأنه على الرغم من كل المآسي في الآونة الأخيرة، التي جعلت خديها شاحبين، فقد تفتحت لتكون فتاة جميلة فاتنة القد. وأصبحا أكثر هدوءاً وأخذا يتبادلان بشكل نصف واعٍ النظرات التي تنم عن اتفاق كامل، كونهما توصلا إلى الاستنتاج بأنه سيكون هناك عما قريب وقت للعثور على زوج جيد لها. وكان هذا يشبه تأكيداً لأحلامهما الندية ونواياهما الرائعة بأنه في نهاية رحلتهم قفزت ابنتهما على قدميها لأول مرة ومدّت جسمها الغض.

في مستعمرة العقاب

«إنه جهاز رائع»، قال الضابط للمستكشف وتفحّصه بمسحة من الإعجاب، ذلك الجهاز الذي كان برغم كل شيء مألوفاً بالنسبة له. وبدا المستكشف بأنه قَبِل بدافع التأدب دعوة القائد ليشهد إعدام جندي حُكِمَ عليه بالموت بسبب العصيان وسلوكه المشين تجاه أحد رؤسائه. لكن المستعمرة نفسها لم تُبدِ كبير اهتمام بعملية الإعدام هذه. على الأقل، في الوادي الرملي الصغير، وهو عبارة عن تجويف عميق تحيطه من جميع الجوانب صخور جرداء، لم يكن هناك أي أحد حاضراً عدا الضابط، والمستكشف، والرجل المدان، الذي كان مخلوقاً غبيّ المظهر، واسع الفم ذا شعر ووجه محيّرين، والجندي الذي كان يحمل السلسلة الثقيلة المسيطِرة على السلاسل الصغيرة المقفلة على كاحلَي السجين ومعصميه، ورقبته، السلاسل نفسها المرتبطة ببعضها البعض عبر روابط موصلة. على أية حال، بدا الرجل المدان مثل كلب خاضع بحيث يخاله المرء بأنه يمكن أن يترك ليهرب حرّاً على التلال المحيطة، ولا يحتاج سوى الصفير له عندما يحين موعد التنفيذ.

لم يعر المستكشف اهتماماً كبيراً للجهاز، وسار جيئة وذهاباً خلف السجين بلا مبالاة واضحة تقريباً في حين كان الضابط يقوم بآخر التعديلات، وهو آناً يزحف تحت هذا الجهاز، الذي دُقّ عميقاً في الأرض، وآناً يتسلّق سلّماً لتفقد أجزائه العلوية. وثمة مهام يمكن أن تُترك للميكانيكي، لكن الضابط قام بها بحماس كبير، سواء لأنه كان معجباً جداً بالجهاز أم لأسباب أخرى ربما بأن هذا العمل لم يوكل إلى أي شخص آخر غيره. «جاهز الآن!» صاح أخيراً ونزل من

السلّم. وبدا يضلع في مشيته بشكل غير عادي، وتنفّس بفم فاغر، ودسّ منديلين نسائيين جميلين تحت ياقة بزّته. «إن ملابسك هذه ثقيلة جداً بالنسبة للمناطق المدارية»، قال المستكشف، بدلاً من القيام ببعض الاستفسارات حول الجهاز، كما توقع الضابط. «بالتأكيد»، قال الضابط، وهو يغسل يديه اللتين علاهما الزيت والشحم في دلو ماء كان موضوعاً هناك، «لكن ذلك يذكّرنا بالوطن؛ ونحن لا نريد أن ننسى الوطن. والآن ما عليك سوى إلقاء نظرة على هذا الجهاز»، أضاف حالاً، وفي آنٍ واحد أخذ يجفف يديه بمنشفة ويشير إلى الجهاز. «حتى الآن لا يزال هناك عدد قليل من الأشياء التي يجب القيام بها يدوياً، ولكن منذ هذه اللحظة يعمل الجهاز من تلقاء نفسه تماماً». هزّ المستكشف رأسه وتبعه. وقال الضابط، الذي كان حريصاً على حماية نفسه من أية حالات طارئة: «تسير الأمور في بعض الأحيان سيرها الخاطئ، بطبيعة الحال؛ آمل أن لا يحدث شيء خطأ اليوم، ولكن علينا أن نتوقع أي احتمال. وينبغي أن تستمر الآلة في العمل بشكل مستمر لمدة اثنتي عشرة ساعة. لكن إن حدث شيء ما خطأ فلن يكون ذلك سوى شيء تافه يمكن تصحيحه حالاً».

«ألا تريد مقعداً؟» سألَ أخيراً، وهو يسحب كرسياً من قصب الخيزران من بين كومة من الكراسي ويقدمه إلى المستكشف، الذي لم يشأ أن يرفضه. جلس الآن على حافة حفرة، أخذ يحدّق فيها للحظة عابرة. لم تكن عميقة جداً. على أحد جوانب هذه الحفرة تم تكديس التربة المستخرجة على شكل سياج، وعلى الجانب الآخر منها شخص الجهاز. قال الضابط، «لا أعرف إن كان القائد قد شرح هذا الجهاز لك». لوّحَ المستكشف بإحدى يديه بغموض؛ ولم يطلب الضابط أي شيء أكثر من هذا، لأنه الآن يمكن أن يشرح الجهاز بنفسه. «هذا الجهاز»، قال وهو يمسك بمقبض الذراع وانحنى عليه، «اخترعه قائدنا السابق. وساعدتُه في التجارب المبكرة جداً وساهمتُ في جميع الأعمال حتى الانتهاء منه. لكن فضل

اختراعه يخصّه وحده. هل سبق لك أن سمعتَ عن قائدنا السابق؟ لا؟ حسناً، لا أبالغ إن قلتُ لك بأن تنظيم مستعمرة العقاب بأكملها هو من ثمرة جهوده. نحن أصدقاؤه كنا نعرف حتى قبل أن يموت بأن تنظيم المستعمرة كان مثالياً جداً بحيث إنّ خَلَفَه، حتى مع وجود آلاف المخططات الجديدة في رأسه، كان سيجد من المستحيل تغيير أي شيء، على الأقل لسنوات عديدة قادمة. وقد تحققت نبوءتنا؛ وكان على القائد الجديد الاعتراف بحقيقة هذا. ومن المؤسف أنك لم تقابل القائد القديم! ـ ولكن»، توقف الضابط، «أنا سرحتُ في حديثي، فها هو جهازه يقف أمامنا. يتألف، كما ترى، من ثلاثة أجزاء. وبمرور الوقت كل جزء من هذه الأجزاء قد اكتسبت ما يشبه اسماً شعبياً له. يسمى الجزء الأسفل «المرقد»، والجزء العلوي «النقّاش»، وهذا الجزء هنا في الوسط الذي يتحرك صعوداً ونزولاً يسمى «المشط».

«المشط؟» سأل المستكشف؛ إذ انه لم يُرهف السمع جيداً، وكان وهج الشمس في الوادي المكشوف قوياً جداً، وبدا من الصعب جداً على المرء جمع شتات أفكاره. أضف إلى ذلك أنه ازداد إعجابه بالضابط، الذي برغم معطفه الضيق الذي يعلو بزّته الرسمية، والمزكرش بإسراف والمثقَل بالشرائط المقصبة على كتفه، كان يتابع موضوعه بمثل هذا الحماس، وإلى جانب الحديث، كان ما يزال يشدّ لولباً هنا ولولباً هناك باستخدام المفك. أما بالنسبة للجندي، فقد بدا تماماً في الحالة نفسها التي يعيشها المستكشف. كان قد لفّ سلسلة السجين حول كل من معصميه، وأسند نفسه على بندقيته، وسمح لرأسه بالتدلّي، ولم يعر أي اهتمام لأي شيء. وهذا لم يفاجئ المستكشف، لأن الضابط كان يتحدث الفرنسية، ومن المؤكد أنه لا الجندي ولا السجين يفهم كلمة واحدة من اللغة الفرنسية. لذلك، تجدر الإشارة إلى أن السجين كان مع ذلك يبذل جهداً لمتابعة توضيحات الضابط. وبنوع من الإصرار الممض كان يحوّل نظرته أينما أشار الضابط بإصبعه، وعند مقاطعة سؤال المستكشف، كان السجين، أيضاً، وكذلك الضابط، ينظران حولهما.

قال الضابط، «نعم، المشط، اسم يليق بذلك. فالإبر موضوعة مثل أسنان المشط والجهاز برمته يعمل بما يشبه المشط، رغم أن عمله يقتصر على مكان واحد ويتطلب مهارة فنية أكبر. على أية حال، سرعان ما تفهمه قريباً. على «المرقد» هنا يوضع الرجل المدان ـ سأصف الجهاز أولاً قبل أن أدعه يتحرك. ثم سيكون بمقدورك متابعة الإجراءات بشكل أفضل. إلى جانب ذلك، إن أحد التروس المسننة في «النقّاش» مستهلّك جداً؛ فهو يصرّ كثيراً عندما يعمل؛ ولا يمكنك إذ ذاك أن تسمع نفسك وأنت تتكلم؛ وقطع الغيار، لسوء الحظ، من الصعب الحصول عليها هنا. ـ حسناً، ها هو «المرقد»، كما قلتُ لك. إنه مغطى تماماً بطبقة من القطن الطبي؛ وسوف تكتشف السبب في وقت لاحق. على هذا القطن الطبي يوضع الرجل المدان، ووجهه إلى الأسفل، عارٍ تماماً، بطبيعة الحال؛ هنا أشرطة لليدين، وهنا أشرطة للقدمين، وهنا أشرطة للرقبة، من أجل ربطه بقوة. وهنا على رأس «المرقد»، حيث يضع الرجلُ، كما قلتُ، وجهه أولاً، توجد هذه الكمامة الصغيرة من اللباد، والتي يمكن تنظيمها بسهولة لتذهب مباشرة إلى فمه. والقصد منها هو منعه من الصراخ وعض لسانه. وبطبيعة الحال يضطر الرجل إدخال اللباد في فمه، لأنه خلاف ذلك سوف تُكْسَر عنقه بسبب الشريط». سأل المستكشف وهو ينحني إلى الأمام، «هل ذلك هو قطن طبي؟» أجاب الضابط بابتسامة، «نعم، بالتأكيد، يمكنك أن تتلمّسه بنفسك». وأخذ يد المستكشف وقادها إلى «المرقد». «إنه قطن طبي معدّ خصيصاً لهذا الغرض، وهذا هو السبب في أنه يبدو مختلفاً جداً؛ سوف أخبرك حالاً عن استخدامه». وشعر المستكشف باهتمام مباغت بالجهاز؛ فحجبَ عينيه عن الشمس بإحدى يديه وأخذ يحدّق في الهيكل. كان شيئاً ضخماً. وكان «المرقد» و«النقّاش» بحجم واحد وكانا يبدوان مثل صندوقين خشبيين مظلمين. «النقّاش» كان يتدلى على ارتفاع حوالي مترين فوق «المرقد»؛ وتمّ ربط كلّ منهما بالزوايا بأربعة قضبان من

النحاس كانت تومض تقريباً في ضوء الشمس. وبين الصندوقين كان «المشط» يتأرجح على شريط من الفولاذ.

لم يلحظ الضابط لا مبالاة المستكشف السابقة، لكنه أدرك الآن اهتمامه المباغت؛ لذلك توقف عن الشرح من أجل ترك فسحة من الوقت لمعاينة هادئة. قام الرجلُ المدان بتقليد المستكشف؛ ولأنه لم يكن قادراً على استخدام يده لتظليل عينيه كان يحدق إلى الأعلى دون ظل.

قال المستكشف الذي كان يميل بنفسه إلى الخلف في كرسيه ويصالب ساقيه، «حسناً، الرجل يستلقي».

«نعم»، قال الضابط، وهو يدفع قبعته قليلاً إلى الوراء ويمرر إحدى يديه على وجهه الساخن، «أصغِ الآن! كل من «المرقد» و«النقّاش» يحتوي على بطارية كهربائية؛ إذ يحتاج «المرقد» واحدة له، و«النقّاش» يحتاج واحدة للمشط. وطالما يتم ربط الرجل، يوضع «المرقد» على وضع الحركة. يرتجف في غضون دقيقة، باهتزازات سريعة جداً، سواء من جانب إلى آخر أم صعوداً ونزولاً. ربما رأيتَ جهازاً مماثلاً في المستشفيات؛ لكن في «فراش» جهازنا تكون كل الحركات محسوبة بدقة؛ كما ترى، هذه الحركات تتوافق تماماً مع تحركات المشط. والمشط هو الأداة المستخدمة للتنفيذ الفعلي للعقوبة».

«وكيف يتم تنفيذ العقوبة؟» سأل المستكشف.

«أنت لا تعرف ذلك أيضاً؟» قال الضابط مندهشاً، وعضّ شفتيه. «اعذرني إذا كانت توضيحاتي تبدو غير مترابطة نوعاً ما. أستميحك عذراً. كما ترى، اعتاد القائد دائماً على القيام بالشرح؛ لكن القائد الجديد يتهرّب من هذا الواجب؛ مع ذلك فإن زائراً مهماً كهذا» ـ حاول المستكشف الانتقاص من هذا الشرف بالتلويح بكلتا يديه، إلاّ أن الضابط، على أية حال، أصرّ قائلاً ـ «إن زائراً مهماً كهذا لم يخبروه بنوع العقوبة التي نصدرها فهو تطور جديد ـ ».

وكان على وشك استخدام لغة عنيفة لكنه ضبط نفسه وقال فقط: «لم أكن على علم بهذا، ليس هذا خطئي. على أية حال، أنا بالتأكيد أفضل شخص لشرح إجراءاتنا، طالما لدي هنا» ـ وربتَ على جيب صدره ـ «الرسومات ذات الصلة التي قام بها قائدنا سابقاً».

وسأل المستكشف، «رسومات القائد؟ هل هو يجمع كل شيء بنفسه، إذن؟ هل كان جندياً، وقاضياً، وميكانيكياً، وكيميائياً، ورساماً؟»

«بالفعل كان هكذا»، قال الضابط، وهو يهز رأسه موافقاً، بنظرة جامدة، نائية. ثم قام بتفتيش يديه بتأنّ؛ فإنهما لم تبدوا نظيفتين بما فيه الكفاية بالنسبة له للمس الرسومات؛ لذلك مضى إلى الدلو وغسلهما مرة أخرى. ثم سحبَ محفظة جلدية صغيرة وقال: «إن حكمنا لا يبدو شديداً. فكل أمر خالفه السجين يُكتب على جسده بواسطة المشط. هذا السجين، على سبيل المثال» ـ وأشار الضابط إلى الرجل ـ «كان سيكتب على جسده: احترم رؤساءك!»

حدّق المستكشف في الرجل؛ إذ وقف، عندما أشار إليه الضابط، برأس منحنٍ، على ما يبدو يستمع بكل جوارحه في محاولة لفهم ما يجري قوله. مع ذلك، فإن حركة شفتيه السميكتين، المزمومتين إلى بعضهما البعض، أظهرت بوضوح بأنه لا يمكنه فهم كلمة واحدة. هناك العديد من الأسئلة التي تقض مضجع المستكشف، ولكن عند مرأى السجين كان يسأل فقط: «هل هو يعرف عقوبته؟» «لا»، قال الضابط، المتلهّف على المضي قدماً في شرحه، إلاّ أن المستكشف قاطعه: «هو لا يعرف الحكم الصادر بحقه؟» «لا»، قال الضابط مرة أخرى، وتوقف للحظة كما لو أنه يريد أن يسمح للمستكشف بالتوسّع في سؤاله، ومن ثم قال: «ليس هناك داعٍ لإخباره. سوف يعرف ذلك مكتوباً على جسده.» وقرر المستكشف أن لا يجيب، لكنه شعر بأن نظرة السجين تحولت إليه؛ وكأنها تتساءل إن كان وافق على مثل هذه الإجراءات. لذلك انحنى إلى الأمام مرة أخرى، بعد أن رجع

إلى الوراء في كرسيه، وطرح سؤالاً آخر: «ولكن من المؤكد أنه يعلم بأنه قد حُكِم عليه؟» «ولا يعلم بذلك أيضاً»، قال الضابط، وهو يبتسم بوجه المستكشف وكأنه يتوقع منه أن يطرح المزيد من الملاحظات المثيرة للدهشة. «لا»، قال المستكشف، وهو يمسح جبينه، «إذن فهو لا يمكنه أن يعرف أيضاً ما إذا كان دفاعه فعّالاً أم لا؟» «لم يكن لديه فرصة ليضع له دفاعاً»، قال الضابط، وهو يشيح ببصره بعيداً وكأنه يتحدث مع نفسه وبهذا يجنّب المستكشف مؤونة سماع توضيح المسائل البديهية. «ولكن يجب أن يكون لديه فرصة للدفاع عن نفسه»، قال المستكشف، ونهض من مقعده.

أدرك الضابط بأنه يخشى أن يستغرق شرحه للجهاز فترة طويلة؛ لذلك مضى إلى المستكشف، وأخذه من ذراعه، ولوّح بيده صوب الرجل المدان، الذي كان يقف منتصباً جداً الآن لدرجة أنه أصبح بوضوح محط اهتمام ـ وقام الجندي أيضاً بتحريك السلسلة ـ وقال: «هذه هي الطريقة التي تجري فيها الأمور، لقد تمّ تعييني قاضياً في مستعمرة العقاب هذه. على الرغم من صغر سني. لأنني كنت مساعد القائد السابق في جميع المسائل الجنائية وأعرف عن الجهاز أكثر من أي شخص. إن مبدئي الذي أسير عليه هو: الذنب لا يمكن أبداً أن يكون موضع شك. ومحاكم أخرى لا يمكنها أن تتبع ذلك المبدأ، لأنها تتألف من عدة آراء ولديها محاكم عليا لتدقيقها. وتلك المسألة لا تنطبق هنا، أو على الأقل، لم تكن الحال هكذا في وقت القائد الأسبق. لقد أظهر الرجل الجديد بالتأكيد بعض الميل للتدخل في أحكامي، لكن حتى الآن نجحتُ في صدّه وسوف أستمر بالنجاح. أردتَ مني توضيح القضية؛ فهي بسيطة جداً، مثل كل القضايا. لقد أبلغني نقيبٌ هذا الصباح بأن هذا الرجل، الذي كان قد أسند إليه دور الخادم وينام أمام بابه [أي النقيب]، كان نائماً أثناء الواجب. فمن واجبه، كما ترى، النهوض في كل مرة تدقّ فيها الساعة والمبادرة إلى تحية باب النقيب. وهذا ليس واجباً إجبارياً،

ولكنه ضروري جداً، لأنه لا بد أن يكون حارساً وكذلك خادماً، ويجب أن يكون في حالة تأهب في كلتا الوظيفتين. في الليلة الماضية أراد النقيب معرفة ما إذا كان الرجل يقوم بواجبه. فتح الباب عندما دقّت الساعة الثانية فوجد خادمه متكوراً هناك وغاطّاً في النوم. أخذ سوط ركوبه وجلده على الوجه. وبدلاً من الاستيقاظ وطلب العفو، أمسك الرجلُ بأرجل سيده، وهزّه، وصرخ: «أبعد ذلك السوط وإلاّ أكلتك حيّاً» ـ هذا هو الدليل. جاءني النقيب قبل ساعة، ودونتُ إفادته وأرفقتُ الحكم بها. ثم قيّدتُ الرجل بالسلاسل. كان كل هذا في غاية البساطة. فلو كنتُ قد أحضرتُ الرجل أمامي أولاً واستجوبته، لتعقّدت الأمور واضطربت. كان سيقول الأكاذيب، ولو كشفتُ هذه الأكاذيب فإنه سيدعمها بالمزيد من الأكاذيب، وهكذا دواليك. والحالة هكذا، فقد أمسكتُ به ولن أدعه يفلت. ـ هل هذا واضح تماماً الآن؟ لكننا نضيّع الوقت، فتنفيذ الحكم يجب أن يبدأ وأنا لم أنتهِ من شرح الجهاز حتى الآن». وضغطَ على المستكشف وأرجعه إلى الخلف في كرسيه، ونهض مرة أخرى إلى الجهاز، وبدأ قائلاً: «كما ترى، إن شكل المشط يتوافق مع الشكل البشري؛ هذا هو المشط الخاص بالجذع، وهذان هما المشطان الخاصان بالساقين. أما بالنسبة للرأس فلا يوجد سوى هذا المسمار الصغير. هل هذا واضح تماماً؟» انحنى بشكل ودّي إلى الأمام نحو المستكشف، وكلّه لهفة لتقديم أشمل التوضيحات.

نظر المستكشف إلى المشط نظرة عابسة؛ إذ إن توضيح الإجراءات القضائية لم يقنعه. كان عليه أن يذكّر نفسه بأن هذه هي على أية حال مستعمرة عقاب حيث تكون هناك حاجة إلى تدابير غير عادية وضرورة تطبيق النظام العسكري إلى النهاية. كذلك شعرَ بأنه يمكن عقد بعض الأمل على القائد الجديد، الذي كان على ما يبدو ذا عقل يمكن أن يحقق ذلك الأمل، ولو تدريجياً، وهو نوع جديد من الإجراءات لا يمكن أن يستوعبه العقل الضيق للضابط. هذه السلسلة

من الأفكار دفعته إلى السؤال التالي: «هل سيحضر القائد عملية تنفيذ الحكم؟» «لستُ متأكداً»، قال الضابط، وهو يجفل من هذا السؤال المباشر، واكفهرّت تقاسيم وجهه الودودة. وأضاف «هذا هو السبب في أننا يجب أن لا نضيّع مزيداً من الوقت. وبقدر ما أكره ذلك، سوف أضطر إلى اختصار توضيحاتي. ولكن بالتأكيد غداً، عندما يتم تنظيف الجهاز ـ عيبه الوحيد هو أنه يصبح مشوشاً جداً ـ يمكنني تلخيص كل التفاصيل. في الوقت الحاضر، إذن، سأوضّح لك الأشياء الأساسية. ـ عندما يتمدد الرجل على «المرقد» ويبدأ بالاهتزاز، فإن «المشط» يهوي على جسده. يقوم بتنظيم نفسه تلقائياً بحيث بالكاد تلمس الإبرُ جلدَه؛ وما إن يتم التماس فإن الشريط الفولاذي يتصلب على الفور ويتحول إلى شريط قاسٍ. ومن ثم يبدأ العمل. وبالنسبة للناظر الجاهل لا يرى أيّ فرق بين عقوبة وأخرى. إذ يبدو بأن «المشط» يقوم بعمله بانتظام منسّق. وبينما يهتز، فإن نهاياته المدببة تخترق بشرة الجسم الذي يرتعش بسبب اهتزاز «المرقد». وبهذا فإنه يمكن مشاهدة التقدم الفعلي للحكم، فالمشط مصنوع من الزجاج. إن تثبيت الإبر في الزجاج كانت مشكلة فنية، ولكن بعد العديد من التجارب تغلبنا على هذه الصعوبة. وكما ترى لم تكن هناك أية مشكلة كبيرة يمكن أن تقف في طريقنا. والآن يمكن لأي شخص أن ينظر من خلال الزجاج ويشاهد النقش وهو يتشكّل على الجسم. هلاّ تكرّمتَ بأن تقترب قليلاً وتُلقي نظرة على الإبر؟»

نهض المستكشف ببطء، ومشى، وانحنى على المشط. «كما ترى»، قال الضابط، «هناك نوعان من الإبر مرتبة بأنماط متعددة. كل إبرة طويلة لديها إبرة قصيرة بجانبها. الإبرة الطويلة هي التي تقوم بالكتابة، بينما الإبرة القصيرة تطلق رذاذ ماءٍ لإزالة الدم والإبقاء على النقش واضحاً. ثم يتم توجيه الدم والماء معاً هنا من خلال قنوات صغيرة إلى هذه القناة الرئيسة وإلى أسفل أنبوب التصريف وبعدها إلى الحفرة». وبإصبعه تتبّع الضابط المسار الدقيق الذي يتخذه الدم

والماء. ومن أجل جعل الصورة حية قدر الإمكان رفع كلتا يديه تحت منفذ أنبوب التصريف وكأنه يقبض على تدفق مزيج الدم والماء، وعندما فعل هذا سحب المستكشف رأسه إلى الوراء وهو يتحسس ما خلفه، وبإحدى يديه سعى للعودة إلى كرسيه. ولرعبه وجد أن الرجل المدان أيضاً قد أطاع دعوة الضابط لتفحّص «المشط» عن كثب وتبعه في ذلك. كان قد سحب إلى الأمام الجندي النائم بالسلسلة وانحنى على الزجاج. يمكن للمرء أن يرى بأن عينيه القلقتين كانتا تحاولان تصوّر ما كان ينظر إليه السيدان، ولكن لأنه لم يفهم الشرح فلم يدرك جليّة الأمر بالضبط. كان يجول ببصره هنا وهناك. وظل يدير عينيه على طول الزجاج. أراد المستكشف أن يبعده، لأنّ ما كان يقوم به ربما كان أمراً يلام عليه. إلا أن الضابط صدّ بقوة المستكشف بإحدى يديه وباليد الأخرى أخذ قبضة تراب من الحاجز الترابي وألقاها على الجندي. فتح عينيه بحركة فجائية، ورأى ما تجاسر الرجل المدان على القيام به، فسمح لبندقيته بالسقوط، وضرب كعبيه في الأرض، وسحب سجينه إلى الخلف حتى إنه تعثر وسقط على الفور، ومن ثم وقف ينظر إليه بازدراء، وهو يشاهده يكافح ويزمجر في سلاسله. «أوقفه على قدميه!» صاح الضابط، لأنه لاحظ بأن انتباه المستكشف كان مشتتاً جداً بسبب السجين. في الحقيقة كان يميل تماماً على «المشط»، من دون أن يدري، لا ينوي إلاّ معرفة ما يحدث للسجين. «ترفّق به»! صاح الضابط مرة أخرى. وركض حول الجهاز، وبنفسه أمسك الرجل المدان من تحت الأكتاف، وبمساعدة الجندي أوقفاه على قدميه، اللتين بقيتا تترنحان من تحته.

قال المستكشف عندما عاد الضابط إليه، «الآن أعرف كل شيء عن الجهاز». «كل شيء باستثناء أهم الأشياء»، أجاب الضابط، وهو يمسك بذراع المستكشف ويشير إلى الأعلى: «في «النقّاش» توجد كل التروس المسننة التي تسيطر على حركات «المشط»، ويتم تنظيم هذه الآلية وفقاً للنقش الذي يتطلبه الحكم.

وما زلت أستخدم الخطط التوجيهية التي رسمها القائد السابق. وها هي ذي»- استخرج بعض الأوراق من المحفظة الجلدية - «ولكن من المؤسف أنني لا استطيع أن أسمح لك بأن تأخذها، فهي أثمن ممتلكاتي. فقط خذ مقعداً وسأحملها أمامك بهذا الشكل، ثم ستكون قادراً على رؤية كل شيء بشكل جيد». ونشر الورقة الأولى. كان المستكشف يريد أن يقول شيئاً ما مهماً، ولكن كل ما أمكنه أن يراه هو متاهة من خطوط تعبر وتتقاطع مع بعضها الآخر، مما غطى الورقة بشكل سميك جداً لدرجة غدا من الصعب تمييز المسافات الفارغة بينها. قال الضابط، «اقرأها». وأجاب المستكشف، «لا أستطيع». فقال الضابط، «ومع ذلك، هي واضحة بما فيه الكفاية». فردّ المستكشف متهرباً، «إنها بارعة جداً، ولكنني لا يمكنني فهمها». قال الضابط ضاحكاً، وهو يضع الورقة جانباً مرة أخرى، «نعم، هذه ليست كتابة خطّها تلاميذ المدارس. بل هي تحتاج إلى دراسة عن كثب. وأنا متأكد تماماً بأنه في النهاية سوف تفهمها أيضاً. بالطبع إن هذه الكتابة لا يمكن أن تكون بسيطة؛ فإنه ليس من المفترض أن تقتل رجلاً مباشرة، ولكن فقط بعد فترة، أي بمعدل، اثنتي عشرة ساعة؛ إذ إن نقطة التحول يعتقد بأنها تحين في الساعة السادسة. لذلك لا بد أن يكون هناك الكثير والكثير من الزخارف حول النص الفعلي؛ النص نفسه يمتد حول الجسم فقط في حزام ضيق؛ حيث إن بقية الجسم يخصّص للزينة. هل يمكن أن تقدّر الآن العمل الذي ينجزه «المشط» والجهاز ككل؟ - فقط راقبْه!» ارتقى السلّم، وأدارَ عجلةً، وصاح: «حذارِ، ابقَ على جانب واحد! فكل شيء بدأ بالعمل. إذا لم تصدر العجلة صريراً، فسيكون هذا رائعاً». وضرب الضابطُ بقبضته عليها، وكأنه فوجئ بضجيج العجلة، ثم نشر ذراعيه اعتذاراً للمستكشف، ونزل بسرعة ليحدّق في عمل الجهاز من الأسفل. ثمة شيء لا يراه أي أحد سواه لم يكن في محلّه؛ وتسلّق مرة أخرى، وقام بشيء ما بكلتا يديه في المناطق الداخلية من «النقّاش»، بعدها أنزلَ أحد

القضبان، بدلاً من استخدام السلّم، وذلك من أجل النزول إلى أسفل بشكل أسرع، وبكلّ قوة تتحمّلها رئتاه، ولجعل نفسه مسموعاً وسط ذلك الضجيج، صرخ في أذن المستكشف: «أيمكنك أن تتابع ذلك؟ يبدأ «المشط» بالكتابة؛ وعندما ينتهي من المسودة الأولى من النقش على ظهر الرجل، فإن طبقة من القطن الطبي تبدأ تلفّ وببطء تدير الجسم، لإعطاء «المشط» مساحة جديدة للكتابة. في غضون ذلك، يكون الجزء المؤلم الذي كُتِبَ عليه واقعاً على القطن الطبي، المعدّ خصيصاً لإيقاف النزيف وهكذا يجعل كل الأجزاء على استعداد للكتابة بشكل أعمق. ثم إن هذه الأسنان على حافة «المشط»، عندما يدور الجسم أكثر حول نفسه، تمزّق القطن الطبي من الجروح، وترميه في الحفرة، وهناك المزيد من العمل لـ «المشط». وهكذا يبقى مستمراً في الكتابة بشكل أعمق فأعمق طيلة اثنتي عشرة ساعة كاملة. في الساعات الست الأولى يبقى الرجل المدان على قيد الحياة تقريباً كما كان من قبل، لا يعاني إلاّ من الألم. وبعد ساعتين تزال كمامة اللباد، لأنه لم يعد لديه قوة للصراخ. هنا، في هذا الإناء المسخّن كهربائياً عند رأس «المرقد»، يتم سكب بعض حساء الأرز الدافئ، الذي يستطيع الرجل، إن شعرَ بميل له، أن يتناول منه بقدر ما يمكن للسانه أن يطاله. ولم تفت أيّ واحد منهم تلك الفرصة. لا أستطيع أن أتذكر أياً منهم [ممن فاتته الفرصة]، وتجربتي واسعة النطاق في ذلك. فقط في حوالي الساعة السادسة يفقد الرجل كامل رغبته في تناول الطعام. أنا عادة ما أركع هنا في تلك اللحظة وأراقب ما يحدث. ونادراً ما يبتلع الرجلُ آخر لقمة له، فهو فقط يلفها حول فِمه ويبصقها في الحفرة. لا بد لي أن أتفادى ذلك حينها وإلاّ فسوف يبصقها في وجهي. ولكن كم هادئاً سيصبح بمجرد حلول الساعة السادسة! التنوير يأتي إلى أكثر الأشخاص ذكاءً. يبدأ حول العينين. ومن هناك يشع. وهذه لحظة قد تغري المرء بأن يكون تحت «المشط» بنفسه. لا شيء يحدث أكثر من أن الرجل يبدأ بفهم النقش،

فيزمّ فمه كما لو كان يستمع. لقد رأيتَ كم صعبٌ فك شفرة النص بعيني المرء؛ لكن رجلنا يفك شفرته بجراحاته. ومن المؤكد بأن هذا أمر صعب للغاية؛ فهو يحتاج ست ساعات لإنجازه. حينها يكون «المشط» قد اخترقه تماماً وألقاه في الحفرة، حيث ينتهي به المقام على الدم والمياه والقطن الطبي. عندها يكون الحكم قد تمّ، والجندي وأنا، نقوم بدفنه».

وكان المستكشف قد مال بأذنه إلى الضابط وجعل يراقب الآلة وهو يضع يديه في جيوب سترته. كما أن الرجل المدان كان يراقب ذلك أيضاً، ولكن بشكل غير مفهوم. انحنى إلى الأمام قليلاً واستغرق في مراقبة الإبر المتحركة عندما قام الجندي، بإشارة من الضابط، بشقّ قميص الرجل وسرواله من الخلف بسكين، بحيث سقطا إلى الأرض؛ وحاول الرجل أن يمسك بملابسه عند سقوطها لتغطية عريه، لكن الجندي رفعه في الهواء وجرّده من آخر ما تبقّى لديه. أوقف الضابط الآلة، وفي الصمت المفاجئ وُضع الرجل المدان تحت «المشط». تم فكّ السلاسل وشدّ الأشرطة بدلاً عن ذلك؛ في الوهلة الأولى كان هذا يبدو تقريباً راحة بالنسبة للسجين. والآن تمّ تعديل «المشط» قليلاً نحو الأسفل، لأنه كان رجلاً نحيفاً. عندما مسّتْه رؤوس الإبر سرت رعدة في جلده؛ بينما كان الجندي مشغولاً بربط يده اليمنى، طوّحَ بيده اليسرى بشكل أعمى؛ ولكن صادف أن تكون باتجاه المكان حيث كان يقف المستكشف. ظل الضابط يراقب المستكشف جانبياً، وكأنه يسعى إلى أن يقرأ من خلال وجهه الانطباع الذي كوّنه عن تنفيذ الحكم، الذي جرى شرحه له بعجالة على الأقل.

انقطع شريط المعصم؛ ربما كان الجندي قد سحبه بشدة بالغة. عندها اضطر الضابط إلى التدخل، ورفع الجندي قطعة الشريط المنقطعة ليريها له. لذلك ذهب إليه الضابط وقال، بينما وجهه ما يزال متحولاً نحو المستكشف: «هذه آلة معقدة جداً، ولا سبيل من منع أجزائها من التمزّق والانفلات هنا وهناك؛

ولكن لا ينبغي للمرء أن يسمح لنفسه أن يحيد عن تطبيق الحكم العام. على أية حال، يمكن بسهولة إصلاح هذا الشريط؛ وسأستخدم ببساطة سلسلة؛ حيث إن حساسية التذبذب للذراع اليمنى سوف تتأثر قليلاً بطبيعة الحال». وبينما هو يربط السلاسل، أضاف: «الموارد اللازمة للحفاظ على الجهاز منخفضة جداً الآن. ففي ظل القائد السابق كانت لي حرية التصرف بمبلغ من المال خُصص تماماً لهذا الغرض. وكان هناك مخزن، أيضاً، تُحفظ فيه قطع الغيار لجميع أنواع الإصلاحات. أعترف بأنني كنت تقريباً مسرفاً حيالها، أعني في الماضي، وليس الآن كما يدّعي القائد الجديد، الذي يبحث دائماً عن ذريعة لمهاجمة طريقتنا القديمة في التعامل مع الأشياء. الآن هو نفسه مَن تولّى مسؤولية الأموال المخصصة للآلة، وإذا ما أرسلتُ بطلب شريط جديد فإنهم يطلبون الشريط القديم الممزق كدليل، والشريط الجديد يستغرق عشرة أيام ليظهر، فضلاً عن أنه مصنوع من مواد غير مطابقة للمواصفات وليست جيدة بالمرة. ولكن أنّى لي أن أشغّل الجهاز من دون شريط، هذا شيء لا أحد يكلّف نفسه بشأنه».

فكر المستكشف في نفسه: إنها دائماً مسألة حساسة أن تتدخل بشكل حاسم في شؤون الآخرين. فهو لم يكن عضواً في المستعمرة الجنائية ولا مواطناً في الولاية التي تنتمي إليها تلك المستعمرة. ولو قيّض له أن يندد بتنفيذ الإعدام أو في الواقع أن يحاول وقف ذلك، لقالوا له: أنت أجنبي، اهتم بأمورك فقط. عندها لا يمكن أن يدّخر أية إجابة لذلك، إلا إذا أضاف بأنه كان يعجب من تصرّفه في هذا الخصوص، لأنه لم يسافر إلاّ بوصفه مراقباً، من دون أن ينوي مطلقاً تغيير أساليب الآخرين في تطبيق العدالة. مع ذلك وجد نفسه هنا تحت إغراء كبير في التدخل. فالظلم في الإجراءات واللاإنسانية في التنفيذ لا يمكن إنكارهما. لا يمكن لأحد أن يفترض بأن لديه أية مصلحة أنانية في المسألة، لأن الرجل المدان كان غريباً تماماً، وليس مواطناً أو حتى متعاطفاً معه. كما أن المستكشف نفسه

كانت لديه توصيات من جهات عليا، وقد جرى استقباله هنا بحفاوة كبيرة، وبدت حقيقة دعوته لحضور عملية الإعدام توحي باستحسانهم لآرائه. وكان هذا كله الأكثر احتمالاً لأن القائد، كما سمع بوضوح شديد، لم يكن من المؤيدين لهذا الإجراء واتخذ موقفاً معادياً تقريباً من هذا الضباط.

في تلك اللحظة سمع المستكشف الضابطَ يصرخ عالياً بغضب. كان قد أقحم، بصعوبة بالغة، كمامة اللباد في فم الرجل المدان عندما مرّ الرجل في حالة لا تقاوم من الغثيان فأغلق عينيه وتقيأ. وعلى عجل أبعده الضابط عن الكمامة وحاول رفع رأسه فوق الحفرة؛ ولكن بعد فوات الأوان، إذ كان القيء يسير على جميع أجزاء الجهاز. «إنه خطأ ذلك القائد!» صاح الضابط، وهو يهز بلا شعور قضبان النحاس أمامه، «فالآلة تلوثت مثل زريبة خنازير». وبيدين مرتجفتين أوضح للمستكشف ما حدث. «ألم أحاول لساعات في كل مرة أن أجعل القائد يفهم بأن السجين يجب أن يصوم لمدة يوم كامل قبل الإعدام؟ لكن عقيدتنا الجديدة، المعتدلة ترى خلاف ذلك. فسيدات القائد يحشين الرجل بحلوى السكر قبل أن يقاد إلى هذا المكان. لقد عاش على الأسماك النتنة طوال حياته والآن عليه تناول حلوى السكر! إلاّ إن هذا ربما يكون ممكناً، وليس لدي أي شيء أقوله ضد ذلك، ولكن لماذا لا يحضرون لي كمامة لبّاد جديدة، بقيتُ أطلبها طيلة الأشهر الثلاثة الماضية. كيف لا يشعر الرجل بالغثيان عندما تُدخل كمامة لبّاد في فمه حيث إن أكثر من مائة رجل قد روّلوا عليها وقاموا بِعَضّها في لحظات موتهم؟»

لقد أمال الرجل المدان رأسه إلى أسفل وبدا مسالماً، فيما كان الجندي مشغولاً بمحاولة تنظيف الجهاز بقميص السجين. تقدم الضابط نحو المستكشف الذي تراجع خطوة وقد تملكتْه هواجس غامضة، لكن الضابط أمسكه من يده، وسحبه إلى أحد الجوانب قائلاً: «أودّ أن أسرّ لك ببعض الكلمات على انفراد. أيمكنني ذلك؟» قال المستكشف، «طبعاً»، واستمع بعينين مطرقتين.

«هذا الإجراء وطريقة الإعدام، حيث تسنح لك الفرصة الآن للاستمتاع به، لم يعد له في هذه اللحظة أي أتباع صريحين في مستعمرتنا. أنا المدافع الوحيد عنه، وفي الوقت نفسه المدافع الوحيد عن تقاليد القائد القديم. ليس بإمكاني التفكير بأي توسيع إضافي لهذا الأسلوب، فإنه يستهلك كل ما عندي من الطاقة لإبقائه على ما هو عليه. فأثناء فترة حياة القائد القديم كانت المستعمرة تعج بأتباعه؛ فما زلت أمتلك شطراً من قوة إدانته، ولكن لا يصل إلى ذرة من سطوته؛ وبالتالي توارى الأتباع عن الأنظار، ما يزال هناك الكثير منهم ولكن أياً منهم لن يعترف بهذا الإجراء. فلو قيّض لك أن تدخل المقهى اليوم، في يوم الإعدام، وتستمع إلى ما يقال، فإنك لا تسمع سوى ملاحظات غامضة. وهذه كلها يحوكها المناصرون، ولكن في ظل القائد الحالي وقوانينه الحالية فالملاحظات تكون عديمة الفائدة لي. والآن اسألك: بسبب هذا القائد والنساء اللاتي يؤثرن عليه، هل إن عملاً، عملاً استغرق العمر كله» ـ وأشار إلى الجهاز ـ «سيموت؟ هل ينبغي للمرء أن يسمح بحدوث ذلك؟ حتى لو جاء المرء كغريب إلى جزيرتنا لبضعة أيام؟ ولكن ليس هناك وقت نضيّعه، إذ إن هجوماً من نوع ما يتهدد وظيفتي بوصفي قاضياً؛ فالمؤتمرات تُعقد في مكتب القائد، المؤتمرات التي استثنيتُ من حضورها؛ وحتى مجيئكم هنا اليوم يبدو لي خطوة مهمة؛ هم جبناء ويستخدمونك كستار، أنت، أيها الغريب. ـ كم مختلفة كانت عملية تنفيذ الإعدام في الأيام الخوالي! فقبل يوم كامل من المراسيم كان الوادي يكتظ بالناس؛ وكلهم يأتون لمجرد التفرّج؛ وفي وقت مبكر من الصباح كان القائد يظهر مع سيداته؛ وكان المشجعون يثيرون المخيم بأكمله؛ كنتُ أعلن بأن كل شيء جاهز؛ والجموع المحتشدة ـ ولم يجرؤ أي مسؤول رفيع المستوى أن يتغيب ـ كانت ترتب نفسها حول الجهاز؛ وهذه الكومة من كراسي الخيزران هي بقايا بائسة من تلك الحقبة. وكان يتم تنظيف الجهاز من جديد ويجري

تلميعه، وكنتُ أحصل على قطع غيار جديدة تقريباً عند كل عملية إعدام. وأمام مئات من المتفرجين- وجميعهم يقفون على رؤوس أصابعهم بقدر مسافة المرتفعات هناك ـ كان القائد نفسه يضع الرجل المدان تحت «المشط». ما تبقّى اليوم لجندي عادي أن يقوم به هو مهمتي، أي مهمة القاضي المشرف على عملية الإعدام، وكان ذلك شرفاً لي. ومن ثم كانت تبدأ عملية الإعدام! ولم تفسد أي ضوضاء نشاز عمل الجهاز. لم يهتم الكثيرون بمشاهدته بل كانوا يتمددون بعيون مغلقة في الرمال؛ فجميعهم كانوا يعرفون بأنه الآن يجري تطبيق العدالة. وسط ذلك الصمت لم يسمع المرءُ شيئاً سوى تنهدات الرجل المدان، وهي نصف مكتومة بكمامة اللباد. في الوقت الحاضر لم تكن الآلة بمقدورها أن تعتصر من أي شخص زفرة أعلى مما بوسع كمامة اللباد أن تكتمه؛ ولكن في تلك الأيام كانت إبر الكتابة تسمح بتقطير سائل حامضي، لا يُسمح لنا الآن باستخدامه. حسناً، وبعد ذلك تحين الساعة السادسة! وكان من المستحيل السماح بتلبية جميع الطلبات في مشاهدة تلك الآلة عن كثب. والقائد بحكمته أمر بأن يكون للأطفال الأفضلية في المشاهدة؛ وأنا، طبعاً، بسبب منصبي كان لي الشرف بأن أكون دائماً رهن الإشارة؛ وكثيراً ما أجلس القرفصاء هناك وأحمل طفلاً صغيراً بكلا الذراعين. كيف كنا نحن جميعاً نستوعب نظرة التجلي على وجه الشخص المتألم، وكيف كنا نتوضأ بنور تلك العدالة، المتحققة في النهاية والمتلاشية بسرعة! يا لها من أزمان تلك التي مرّت، يا رفيقي!» من الواضح أن الضابط قد نسي مع مَن كان يتحدّث؛ فقد احتضن المستكشف ووضع رأسَه على كتفه. فكان المستكشف محرجاً حرجاً كبيراً، وبنفاد صبر أخذ يحدّق فوق رأس الضابط. كان الجندي قد أنهى عمله في تنظيف الجهاز وهو الآن يصب حساء الأرز من قدر في الوعاء. وبمجرد أن لاحظ الرجلُ المدان، الذي بدا قد تعافى تماماً، هذا العمل حتى بدأ يطال الأرز بلسانه. فيما بقي الجندي يدفعه

بعيداً، لأن حساء الأرز كان يُقصَد منه بالتأكيد ساعة لاحقة، ومع ذلك كان من غير المناسب تماماً أن الجندي نفسه يدفع يديه القذرتين في الإناء ويتناول منه أمام وجه الآخر المتعطّش إلى الطعام.

وسرعان ما انسحب الضابط قائلاً، «أنا لا أريد إزعاجك. أعلمُ بأنه من المستحيل جعل تلك الأيام قابلة للتصديق الآن. على أية حال، ما يزال الجهاز يعمل وما يزال فعالاً بحد ذاته. إنه فعال بحد ذاته برغم وقوفه وحيداً في هذا الوادي. وما تزال الجثة تقع في نهاية المطاف في الحفرة بحركة متأرجحة لطيفة غير مفهومة، على الرغم من عدم وجود مئات الناس يتدفقون حولها مثل الذباب كما كان سابقاً. في تلك الأيام كان علينا أن نضع سياجاً قوياً حول الحفرة، وقد اندرس ذلك السياج منذ فترة طويلة».

أراد المستكشف إبعاد وجهه عن الضابط ونظر حوله بشكل عشوائي. كان الضابط يعتقد بأنه يستعرض خراب الوادي؛ لذلك أمسكه باليدين، وأداره ليواجه عينيه، وسأل: «هل تدرك هذا العار الذي لحق بالوادي؟»

إلاّ أن المستكشف لم يقل شيئاً. تركه الضابط وحده قليلاً؛ وبينما كان يفارق ساقيه، ويضع يديه على الوركين، وقف واجماً، يحدّق في الأرض. ثم ابتسم ابتسامة مشجعة بوجه المستكشف وقال: «كنتُ بالقرب منك يوم أمس عندما وجّه إليك القائدُ الدعوة. سمعته وهو يدعوك. أنا أعرف القائد. تكهنتُ فوراً بما كان ينويه. وبرغم أنه قويّ بما فيه الكفاية لاتخاذ التدابير اللازمة ضدي، فهو لا يجرؤ على القيام بذلك حتى الآن، لكنه بالتأكيد يعني استخدام قرار حكمك ضدي، حكم من أجنبي لامع. لقد حسب الأمر بعناية: هذا هو يومك الثاني في الجزيرة، أنت لم تعرف القائد القديم وطرقه، أنت مقيّد بطرق التفكير الأوربية، ربما تعترض من حيث المبدأ على عقوبة الإعدام بشكل عام، وعلى مثل أدوات الموت الميكانيكية هذه بشكل خاص، إلى جانب أنك سترى بأن الإعدام ليس لديه أي

مؤيد من لدن الجمهور، مراسيم قذرة ـ تنفّذها آلة عفى عليها الزمن الآن، مع أخذ كل ذلك بعين الاعتبار، ألن يكون من المرجح (وهكذا يعتقد القائد) بأنك ربما تستنكر طرقي التي أتبعها؟ وإذا ما استنكرتَ، فإنك لن تُخفي الحقيقة (فأنا ما زلت أتحدث من وجهة نظر القائد)، لأنك رجل تشعر بالثقة في استنتاجاتك المبنية على التجربة. صحيح أنك رأيتَ وتعلمتَ أن تقدّر خصوصيات العديد من الشعوب، وعليه فإنك من المرجح لن تتخذ موقفاً متشدداً ضد إجراءاتنا، كما قد تفعل في بلدك. لكن القائد لا حاجة له بذلك. فمجرد إشارة عرضية، أو حتى ملاحظة عابرة ستكون كافية. كما أن الأمر لا يحتاج إلى تمثيل ما تعتقد به حقاً، طالما يمكن أن يُستخدم بشكل خادع لخدمة غرضه. سيحاول استفزازك بأسئلة سخيفة، وأنا على يقين من ذلك. وسوف تجلس سيداتُه من حولك ويستمعن بانتباه شديد؛ ربما تقول شيئاً ما من قبيل: «في بلادنا لدينا إجراءات جنائية مختلفة»، أو «في بلادنا يتم التحقيق مع السجين قبل الحكم عليه»، أو «نحن لم نستخدم التعذيب منذ العصور الوسطى». كل هذه العبارات صحيحة مثلما تبدو طبيعية لك، وهي إشارات غير مؤذية لا تعطي أي حكم على أساليبي. ولكن كيف سيستجيب لها القائد؟ أستطيع أن أراه، قائدنا الجديد، وهو يدفع كرسيه بعيداً على الفور ويُسرع إلى الشرفة، أستطيع أن أرى سيداته يسرعن وراءه، أستطيع أن أسمع صوته ـ الذي تسميه السيدات صوت الرعد ـ حسناً، وهذا ما يقوله: «إن محققاً غربياً مشهوراً، تمّ إرساله لدراسة الإجراءات الجنائية في جميع بلدان العالم، قد قال للتوّ بأن تقاليدنا القديمة في إقامة العدل غير إنسانية. مثل هذا الحكم الصادر من شخصية كهذه يجعل من المستحيل بالنسبة لي أن اشجّع هذه الأساليب بعد الآن. لذلك منذ هذا اليوم سأقرّ قانوناً... وما إلى ذلك. قد ترغب في أن تعترض على أنك لم تقل أي شيء من هذا القبيل، وأنك لم تنعت أساليبي باللاإنسانية، بل على العكس إن تجربتك العميقة تقودك إلى الاعتقاد بأنها الأكثر

إنسانية والأكثر انسجاماً مع الكرامة الإنسانية، وأنك معجب بالجهاز إلى حد كبير ـ ولكن هذا سيكون بعد فوات الأوان؛ فأنت لن يكون بمقدورِك الدخول حتى إلى الشرفة، المزدحمة كالعادة بالسيدات؛ وربما تحاول جلب الانتباه إلى نفسك؛ قد ترغب بالصراخ عالياً؛ لكن يد إحدى السيدات سوف تُغلق شفتيك ـ وعندها سيتم الإجهاز علينا أنا وما عمله القائد القديم».

اضطر المستكشف لكتم ابتسامته؛ إذ إن المهمة سهلة جداً، إذن، التي كان قد تصوّرها في غاية الصعوبة. وقال متهرباً: «أنت تبالغ في تقدير نفوذي؛ فالقائد قد قرأ رسائل التوصية التي بحوزتي، هو يعلم بأنني لست خبيراً في الإجراءات الجنائية. فلو قيّض لي أن أعطي رأياً، لكان بمثابة رأي فردي خاص، وهو رأي ليس أكثر تأثيراً من رأي أي شخص عادي، وعلى أية حال هو أقل تأثيراً بكثير من رأي القائد، الذي، حسب علمي، يتمتع بسلطات واسعة جداً في مستعمرة العقاب هذه. وإذا كان موقفه من إجراءاتك عدائياً بالتأكيد كما تعتقد، إذن أخشى بأن تكون نهاية تقليدك وشيكة، حتى من دون أية مساعدة متواضعة مني».

هل تجلّى الأمر للضابط أخيراً؟ لا، فهو ما يزال لا يفهم. هزّ رأسه بشكل قاطع، وحدّق على عجل في الرجل المدان والجندي، اللذَين ابتعدا عن الأرز، واقترب من المستكشف، ودون النظر إلى وجهه بل ركّز عينه على نقطة ما من معطفه وقال بصوت أخفض من ذي قبل: «أنت لا تعرف القائد؛ أنت ترى نفسك ـ اعذرني على هذا التعبير ـ مجرد غريب بقدر تعلّق الأمر بنا؛ مع ذلك، صدقني،إن نفوذك لا يمكن أن يكون كبيراً جداً. كنت سعيداً جداً عندما سمعتُ بأنك ستحضر تنفيذ الإعدام بنفسك. فالقائد رتّب الأمر ليكيل ضربة لي، لكنني سوف أحولها لصالحي. ودون أن ينصرف انتباهي للهمسات الكاذبة والنظرات المزدرية ـ والتي لا يمكن تجنبها لو حضر حشد من الناس عملية التنفيذ ـ فقد سمعتَ توضيحاتي، ورأيت الآلة، وأنت الآن في طريقك لمشاهدة تنفيذ الإعدام. لقد كوّنتَ بلا شك حكمك

الخاص؛ وإذا كانت لا تزال لديك بعض الشكوك الصغيرة فإن مرأى التنفيذ سوف يجلّيها. والآن ألتمسك: ساعدني ضد القائد!»

لم يسمح له المستكشف بالاستمرار في حديثه. «كيف يمكنني أن أفعل ذلك،» صاح، «فهذا مستحيل تماماً. أنا لا يمكن أن أساعدك ولا أن أقف في طريقك».

قال الضابط، «نعم، يمكنك ذلك». وشاهد المستكشف بشيء من الوجل بأن الضابط كان يطبق قبضتيه. «نعم، يمكنك ذلك»، كرّر الضابط، بمزيد من الإصرار. «لدي خطة لا بد أن تنجح. أنت تعتقد بأن نفوذك غير كافٍ. وأنا أعلم بأنه كافٍ. ولكن حتى لو سلّمنا بأنك على حق، أليس من الضروري، من أجل الحفاظ على هذا التقليد، تجريب ما يمكن أن يثبت بأنه غير كافٍ؟ أصغِ إلى خطتي، إذن. إن أول شيء ضروري تقوم به هو أن تكون متحفظاً قدر الإمكان اليوم فيما يتعلق بحكمك بشأن هذه الإجراءات. وما لم تُسأل سؤالاً مباشراً يجب أن لا تقول شيئاً على الإطلاق؛ ولكن ما تقوله يجب أن يكون موجزاً وعاماً؛ دعهم يلاحظون بأنك لا تفضّل مناقشة المسألة، التي نفد صبرك معها، وإذا كنت تريد أن تمضي يمكنك استخدام لغة قوية. أنا لا أطلب منك أن تروي الأكاذيب؛ لا على الإطلاق؛ بل عليك أن تعطي إجابات مقتضبة فقط، من قبيل: «نعم، رأيتُ الإعدام»، أو «نعم، أوضحوه لي». هذا فقط، ولا شيء أكثر من ذلك. فهناك أسباب كافية لأي نفاد صبر تُظهره، وإن لم يكن من ذلك النوع الذي سيحصل للقائد. وبطبيعة الحال، سوف يخطئ المعنى الذي رميتَ إليه ويفسره لإرضاء نفسه. ذلك ما تعتمد عليه خطتي. غداً في مكتب القائد سيكون هناك مؤتمر كبير لجميع المسؤولين الإداريين رفيعي المستوى، برئاسة القائد. بالطبع إن القائد هو ذلك الرجل الذي حوّل هذه المؤتمرات إلى استعراضات عامة. فهو لديه فناء مبنيّ مكتظ دائماً بالمتفرجين. أنا مضطر للمشاركة في المؤتمرات، لكنها تجعلني أشعر بالغثيان بسبب الاشمئزاز. الآن، مهما يحدث، فسوف تُدعى بالتأكيد إلى

هذا المؤتمر؛ وإذا تصرفتَ اليوم كما اقترحت عليك، فستكون الدعوة طلباً ملحّاً. ولكن إذا كان لسببٍ ما غامض لم تتم دعوتك، فإنه لا بد من المطالبة بدعوة؛ إذ ليس هناك شك في تلبيتها لك. وبالتالي غداً ستجلس في مقصورة القائد مع السيدات. سيبقي دائم النظر حتى يتأكد من أنك هناك. وبعد مختلف القضايا التافهة والسخيفة، التي جيء بها لمجرد التأثير على الجمهور ـ في الغالب تتعلق بأعمال الميناء، لا شيء سوى أعمال الميناء! ـ وستبرز إجراءاتنا القضائية إلى طاولة المناقشة أيضاً. وإذا لم يقم القائد بإدراجها، أو لم تكن في البداية، فسوف أنظر في موضوع إدراجها. سأقف وأعلن بأن الإعدام الذي جرى اليوم قد حصل فعلاً. باختصار شديد، بيان واحد ليس إلاّ. مثل هذا البيان ليس معتاداً، ولكنني سأقوم به. وسوف يشكرني القائد، كما هو شأنه دائماً، بابتسامة وديعة، ومن ثم لن يستطيع كبح نفسه، فهو يستغل هذه الفرصة الرائعة ويقول، «لقد تمّ الإعلان عنه»، أو كلمات تليق بهذه المناسبة من قبيل، «إن الإعدام قد تمّ. وأود فقط أن أضيف بأن هذا الإعدام شهده المستكشف الشهير الذي، كما يعلم الجميع، شرّف مستعمرتنا شرفاً كبيراً بزيارته لنا. إن حضوره في جلسة اليوم لمؤتمرنا يساهم أيضاً في أهمية هذه المناسبة. ألا يجب الآن أن نسأل المستكشف الشهير أن يعطينا حكمه فيما يتعلّق بنظامنا التقليدي في الإعدام والإجراءات التي تؤدي إليه؟» بالطبع هناك هتاف عال، واتفاق عام، وأنا أكثر إصراراً من أي شخص آخر. وسينحني القائد لك ويقول: «إذن باسم الجموع المحتشدة، أطرح عليك هذا السؤال. «والآن أنت تتقدم إلى أمام المقصورة. ضع يديك بحيث يمكن للجميع رؤيتهما، وإلاّ فالسيدات سوف يمسكنهما ثم يضغطن على أصابعك. ـ وبعد ذلك في نهاية المطاف يمكنك التحدث علناً. لا أعرف كيف سأتحمل توتر انتظار تلك اللحظة. لا تضع أي قيود على نفسك عندما تُلقي خطابك، انشر الحقيقة بصوت عال، وانحنِ على الجزء الأمامي من المقصورة، اصدحْ، نعم فعلاً، اصدحْ بحكمك،

قناعتك التي لا تتزعزع، في حضرة القائد. مع ذلك ربما لا تهتم بالقيام بذلك، فهذا لا يتماشى مع شخصيتك، وفي بلدك ربما يقوم الناس بهذه الأشياء بشكل مختلف، حسناً، لا ضير في ذلك أيضاً، فهذا سيكون مؤثراً تماماً، لا تقفْ، فقط قُلْ بضع كلمات، حتى ولو همساً، بحيث لا يسمعك سوى المسؤولين أسفل منك، فذلك سيكون كافياً تماماً، كما أنك لستَ بحاجة حتى إلى ذكر عدم دعم الجمهور لتنفيذ الإعدام، وللعجلة التي تُصدر صريراً، والشريط المقطوع، وكمامة اللباد القذرة، لا، سوف أحمل كلّ ذلك على عاتقي، و، صدقني، إذا لم يدفعه اتهامي خارج قاعة المؤتمرات هذه، فسوف يجبره على الركوع على ركبتيه للاعتراف: يا قائدي القديم، أنا أتواضع صاغراً أمامك. ـ تلك هي خطتي؛ هل ستساعدني على تنفيذها؟ ولكن بالتأكيد أنت راغب في ذلك، هذا ناهيك عن أنك لا بد أن تقوم بذلك.» ثم أمسك الضابطُ بكلتا ذراعي المستكشف وأخذ يحدّق، وهو يتنفس بصعوبة، في وجهه. لقد هتف بالجملة الأخيرة بصوت مجلجل بحيث جفل الجندي والرجل المدان؛ إذ إنهما لم يفهما كلمة واحدة ولكنهما توقفا عن تناول الطعام ونظرا إلى المستكشف، وهما يمضغان لُقَمَهما السابقة.

منذ البداية لم يكن لدى المستكشف أي شك في الجواب الذي يجب أن يعطيه؛ ففي حياته قد شهد الكثير بحيث لا يمكن أن ينتابه عدم اليقين هنا؛ فهو أساساً كان شريفاً وغير خائف. مع ذلك الآن، وهو يواجه الجندي والرجل المدان، تردّد بالفعل، طالما تطلّب ذلك التقاط بعض أنفاسه. وأخيراً، على أية حال، قال، كما كان يجب عليه أن يقول: «لا». ورمش الضابط عدة مرات ولكن من دون أن يحوّل عينيه بعيداً. «هل تريدني أن أشرح؟» سأل المستكشف. فأومأ الضابط دون كلام. «إنني لا أوافق على إجراءاتك»، قال المستكشف بعد ذلك، «حتى قبل أن تجعلني موضع ثقتك ـ بالطبع أنا لن أخون ثقتك تحت أي ظرف من الظروف ـ كنت أتساءل بالفعل ما إذا كان من واجبي أن أتدخّل وما إذا كان

تدخّلي سيكون له أدنى فرصة للنجاح. أدركتُ لمَن يجب أن أتحوّل: إلى القائد، بطبيعة الحال. لقد أوضحتَ تلك الحقيقة أيما إيضاح، ولكن من دون أن تعزز قراري، على العكس من ذلك، لقد أثّرت بي قناعتك الصادقة، برغم أنها لا يمكن أن تؤثر على حكمي».

ظلّ الضابط واجماً، وتحوّل نحو الجهاز، وأمسك بقضيب نحاسي، ومن ثم، وهو يميل إلى الوراء قليلاً، حدّق في «النقّاش» وكأنه يؤكد لنفسه بأن كل شيء في محله. وبدا الجندي والرجل المدان وكأنهما توصّلا إلى شيء من التفاهم؛ إذ كان الرجل المدان يوجّه إشارات إلى الجندي، على الرغم من صعوبة تحركاته بسبب الأشرطة المحكمة الشد؛ فيما كان الجندي ينحني عليه؛ وهمسَ الرجل المدان بشيء ما وهزّ له الجندي رأسه.

وتبع المستكشف الضابطَ وقال: «أنت لا تعرف حتى الآن ما أريد فعله. سوف أخبر القائد برأيي في الإجراءات، بالتأكيد، ولكن ليس في مؤتمر عام، فقط في السرّ؛ ولن أبقى هنا طويلاً بما فيه الكفاية بحيث أحضر أي مؤتمر؛ فأنا ذاهب بعيداً في وقت مبكر صباح الغد، أو على الأقل سأعتلي ظهر سفينتي».

لم يكن الأمر يبدو بأن الضابط كان يصيخ السمع. «إذن فأنت لم تجد الإجراءات مقنعة»، قال لنفسه وابتسم، كما يبتسم عجوز لهراء طفوليّ ومع ذلك يستمر في تأملاته الخاصة بعد الابتسامة.

«إذن حان الوقت»، قال أخيراً، ونظر فجأة إلى المستكشف بعينين مشرقتين حملتا بعض التحدي، وبعض الرغبة في التعاون. «حان الوقت لأي شيء؟» سأل المستكشف بعدم ارتياح، ولكن لم يحصل على أية إجابة.

«أنت حر»، قال الضابط للرجل المدان باللغة المحلية. لكن الرجل لم يصدّق ذلك في البداية. «نعم، أنت مطلق سراحك»، قال الضابط. ولأول مرة استبشر

وجه الرجل المدان بشكل حقيقي. هل كان ذلك صحيحاً؟ هل كان ذلك مجرد نزوة تصدر من الضابط، قد تتغير مرة أخرى؟ هل إن المستكشف الأجنبي قد توسّل إليه حول ذلك الأمر؟ ماذا هناك؟ يمكن للمرء أن يقرأ هذه الأسئلة على وجهه. ولكن ليس لفترة طويلة. مهما كان الأمر، إنه أراد أن يكون حراً بالفعل، وبدأ يكافح بقدر ما سمح له المشط بذلك.

«سوف تمزّق أشرطتي»، صرخ الضابط، «ابقَ ساكناً! سنقوم قريباً بتخفيف شدّها». وهو يكلّف الجندي بمساعدته، شرع بالقيام بذلك. فضحك الرجل المدان ضحكة مكبوتة مع نفسه، وكان آناً يحوّل وجهه يساراً نحو الضابط، وآناً أخرى يميناً نحو الجندي، كما أنه لم ينسَ المستكشف من نظراته.

«أخرجْه»، أمر الضابطُ. وبسبب المشط كان لا بد من القيام بذلك بعناية. وكان الرجل المدان قد أخرج نفسه قليلاً من الخلف لقلة صبره.

من الآن فصاعداً، على أية حال، لم يعره الضابط أي اهتمام. فقد مضى إلى المستكشف، وسحب المحفظة الجلدية الصغيرة مرة أخرى، وأخرج الأوراق التي فيها، ووجد الورقة التي كان يريدها، وأظهرها للمستكشف. وقال له، «اقرأها». فردّ المستكشف، «لا أستطيع، قلتُ لك من قبل بأنني لا يمكن أن أفهم هذه النصوص.» «حاولْ أن تنظر إليها عن كثب»، قال الضابط واقترب كثيراً من المستكشف حتى يتمكنا من قراءتها معاً. ولكن عندما ثبت عدم جدوى ذلك، مرّر بخنصره على النص، رافعاً خنصره عالياً فوق الورقة وكأنه لا يريد أن يلطّخ النص باللمس، من أجل مساعدة المستكشف في متابعة النص بهذه الطريقة. وبذل المستكشف جهده، وهو يقصد إرضاء الضابط بهذا الخصوص على الأقل، لكنه كان غير قادر تماماً على المتابعة. والآن بدأ الضابط بتهجئته، حرفاً حرفاً، ومن ثم قرأ الكلمات بصوت عال. ««كن عادلاً!» هذا هو المكتوب هناك»، قال، «بالتأكيد يمكنك قراءته الآن». وانحنى المستكشف ليقترب كثيراً من الورقة التي

كان الضابط يخشى أن يلمسها لذلك سحبها بعيداً جداً عنه؛ لكن المستكشف لم يعلّق، ومع ذلك كان واضحاً بأنه ما يزال غير قادر على فكّ شفرته. « ‹كن عادلاً!› هذا هو المكتوب هناك»، قال الضابط مرة أخرى. «ربما»، قال المستكشف، «أنا على استعداد لتصديقك». «حسناً إذن»، قال الضابط، على الأقل مقتنعاً جزئياً، وصعد السلّم حاملاً الورقة؛ وبحذر شديد وضعها داخل «النقّاش» وبدأ يغيّر عمل كل شيء في التروس المسننة؛ إنه عمل مزعج جداً، ولا بد أنه ينطوي على ربط عجلات صغيرة للغاية، ولبعض الوقت توارى رأس الضابط تماماً عن الأنظار داخل «النقّاش»، لأن عليه تنظيم الجهاز بدقة كبيرة.

وأخذ المستكشف، وهو ينحني إلى الأسفل، يراقب العمل دون انقطاع، بحيث تصلّبت رقبته وآلمته عيناه من وهج أشعة الشمس في أعالي السماء. كان الجندي والرجل المدان الآن مشغولَين معاً. وجرى استخراج قميص الرجل وسرواله، اللذين كانا في الحفرة بواسطة حربة الجندي. كان القميص قذراً للغاية فغسله صاحبه بسطل مليء بالماء. عندما ارتدى القميص والبنطلون لم يتمالك نفسه ولا الجندي من الضحك، لأن الملابس كانت بطبيعة الحال ممزقة من الخلف. ربما شعر الرجلُ المدان بأن عليه أن يسلّي الجندي، لذلك أخذ يستدير حول الجندي عدة مرات بملابسه الممزقة، بينما تربّع الجندي على الأرض وهو يضرب ركبتيه مرحاً. مع ذلك، سيطرا في الوقت الحاضر على مرحهما احتراماً للسيدين.

عندما انتهى الضابط أخيراً من مهمته في الأعلى، تفحّص الجهاز بجميع تفاصيله مرة أخرى، بابتسامة، ولكن هذه المرة أغلق غطاء «النقّاش»، الذي بقي مفتوحاً حتى الآن، ونزل، ونظر إلى الحفرة وبعد ذلك نظر إلى الرجل المدان، مشيراً بارتياح إلى أن الملابس قد تم إخراجها، ثم مضى لغسل يديه في دلو الماء، ولاحظ متأخراً جداً بأن الماء كان قذراً بشكل يثير الاشمئزاز، فكان غير

راضٍ لأنه لم يتمكن من غسل يديه، وفي النهاية أقحمهما في الرمال ـ إلاّ أن هذا الخيار لم يرق له، لكنه اضطر إلى تحمّله ـ ثم وقف معتدلاً وبدأ بفتح أزرار سترة بدلته. وبينما كان يقوم بهذا، وقع في يديه المنديلان النسائيان اللذان كان قد دسّهما تحت ياقته. «هذان هما منديلاك»، قال، ورماهما إلى الرجل المدان. وقال للمستكشف شارحاً: «إنها هدية من النساء».

على الرغم من التسرع الواضح الذي كان يتخلص فيه أولاً من سترة بدلته الرسمية وثم من كل ملابسه، كان يتعامل مع كل قطعة من ملابسه بعناية محببة، لدرجة أنه مرّر أصابعه بحنو على الشريط الفضي الذي يزّين السترة ووضع شُرّابةً في مكانها. وكانت هذه العناية المحببة بالتأكيد تتماشى مع حقيقة أنه بمجرد خلعَ الملابس فإنه يرميها مباشرة برمية عنيفة في الحفرة. وآخر شيء بقي عنده هو سيفه القصير مع حزام السيف. فقد سحبه من غمده، وكسره، ثم جمع كل أجزائه معاً، أي قطع السيف، والغمد، والحزام، وطوّح بها بعنف إلى أسفل حتى أحدثت قعقعة في الحفرة.

والآن وقف عارياً هناك. عضّ المستكشف على شفتيه ولم يقل شيئاً. كان يعرف جيداً ما كان سيحدث، لكنه لم يكن لديه الحق في عرقلة الضابط في أي شيء. وإذا كانت الإجراءات القضائية التي رعاها الضابط توشك على نهايتها ـ ربما نتيجة لتدخله الخاص، فيما يتعلق بالشيء الذي تعهّد به ـ عندئذ كان الضابط يفعل الشيء الصحيح؛ ومن موقعه ما كان المستكشف ليتصرف خلاف ذلك.

لم يفهم الجندي والرجل المدان في البداية ما كان يجري، ففي بادئ الأمر حتى أنهما لم يكلّفا نفسيهما النظر إلى ذلك. كان الرجل المدان سعيداً لرجوع منديليه إليه، لكنه لم يُسمح له بالتمتع بهما لفترة طويلة، لأن الجندي انتزعهما بشكل مفاجئ وغير متوقع. والآن حاول الرجل المدان بالمقابل انتزاعهما من تحت الحزام حيث كان الجندي قد دسّهما فيه، لكن الجندي كان

يقظاً. لذلك أخذا يتصارعان، بما يشبه الدعابة. ولم يحوّلا انتباههما إلاّ عندما وقف الضابط عارياً تماماً. وقد بدا الرجل المدان مصدوماً بفكرة أن تغييراً ما كبيراً كان وشيك الحدوث. إن ما حدث له كان سيحدث الآن للضباط. ربما حتى إلى النهاية نفسها. وعلى ما يبدو أن المستكشف الأجنبي كان أعطى الأمر بذلك. إذن كان هذا انتقاماً. وبرغم أنه هو نفسه لم يعانِ حتى النهاية، فإنه سيُثأر له في نهاية المطاف. وعبر محيّاه الآن تكشير صامت، عريض وبقي مرسوماً هناك ما تبقى من الوقت.

بيد أن الضابط قد تحول إلى الجهاز. وكان واضحاً بما فيه الكفاية سابقاً بأنه فهم الجهاز جيداً، ولكنه الآن مندهش تقريباً إذ يرى كيف كان يديره وكيف كان يطيعه. فلا بد ليدِهِ أن تقترب من «المشط» من أجل أن يرتفع وينخفض عدة مرات حتى يتم تعديله إلى المكان الصحيح لاستقبال الضابط؛ وأمسك فقط بحافة «المرقد» وبالفعل أخذ يهتز؛ وجاءت كمامة اللباد لتقابل فمه، ويمكن للمرء أن يرى بأن الضابط كان كارهاً حقاً لأخذها لكنه انكمش منها للحظة، وسرعان ما استسلم وتناولها. كان كل شيء جاهزاً، إلا أن الأشرطة كانت تتدلى إلى الأسفل على الجانبين، ومع ذلك اتّضح بأنه لا لزوم لها، فليست هناك حاجة لربط الضابط بها. ثم لاحظ الرجلُ المدان الأشرطة السائبة، وفي رأيه أن تنفيذ الإعدام كان غير مكتمل ما لم يتم ربط الأشرطة، فأشار بلهفة إلى الجندي وركضا معاً لتقييد الضابط بالأشرطة. وكان هذا الأخير قد مدّد قدماً واحدة لدفع الذراع الذي كان يشغّل «النقّاش»؛ ورأى الرجلين قادمين؛ لذلك سحب قدمه إلى الوراء وسمح بشدّ نفسه. لكنه الآن لم يتمكن من الوصول إلى الذراع؛ فلا الجندي ولا الرجل المدان بقادرّين على العثور عليه، وكان المستكشف عازماً على عدم تحريك ساكن. إنه لم يكن ضرورياً؛ فطالما تمّ ربط الأشرطة فقد بدأت الآلة بالعمل؛ واهتزّ «المرقد»، وأخذت الإبرُ تومض فوق الجلد، وأخذ «المشط» يرتفع وينخفض. وكان

المستكشف يحدّق في ذلك لفترة من الزمن قبل أن يتذكر بأن عجلة في «النقّاش» يجب أن تُصدر صريراً؛ إلاّ أن كل شيء كان هادئاً، ولم يُسمع ولا حتى أدنى نأمة.

ولأن الجهاز كان يعمل بصمت كبير فإن أحداً لم يعره اهتماماً. ولاحظ المستكشف الجنديَّ والرجلَ المدان. كان الأخير أكثر حيوية من الآخر، فقد أثاره كل شيء في الجهاز، فآناً كان ينحني إلى الأسفل وآناً آخر كان يشرئب على رؤوس الأصابع، وكانت سبابته ممتدة طوال الوقت توضح التفاصيل للجندي. وهذا ما أزعج المستكشف. فقد عزم على البقاء حتى النهاية، لكنه لا يمكن أن يتحمل مرأى هذين الرجلين. وقال لهما، «ارجعا إلى بيوتكما». لقد كان الجندي راغباً جداً في ذلك، لكن الرجل المدان فسّر الأمر بأنه عقاب. وبيدين مشبوكتين توسّل للسماح له بالبقاء، وعندما هزّ المستكشف رأسه ولم يتنازل، جثا هذا الشخص على ركبتيه. ولما رأى المستكشف بأنه لم تكن هناك فائدة من مجرد إعطاء الأوامر، كان على وشك الذهاب وإبعادهما. في تلك اللحظة سمع ضجيجاً فوقه في «النقّاش». نظر إلى الأعلى. هل كان ذلك أن العجلة المسننة هي التي تسبب الضوضاء برغم كل شيء؟ لكنه كان شيئاً ما مختلفاً تماماً. وببطء ارتفع غطاء «النقّاش» ومن ثم انفتح على مصراعيه. وظهرت أسنان العجلة المسننة وارتفعت عالياً، وسرعان ما أصبحت العجلة بأكملها بادية للعيان، بدا الأمر وكأن قوة هائلة كانت تعصر «النقّاش» لذلك لم يعد هناك مجال للعجلة، وهكذا ارتفعت حتى وصلت إلى حافة «النقّاش» نفسها، وهبطت، وتدحرجت على طول الرمال مسافة قصيرة على حافتها، وبعد ذلك ارتمت بشكل أفقي. لكن عجلة ثانية كانت ترتفع بعدها، تلتها العديد من العجلات الأخرى، كبيرة وصغيرة ودقيقة للغاية، وحدث الشيء نفسه لجميع عجلاتها، ففي كل لحظة تخيّل المرء بأن «النقّاش» لا بد أن يكون الآن فارغاً حقاً، ولكن مجموعة أخرى من العجلات المتعددة كانت ترتفع في الأفق، وتسقط، متدحرجة على طول الرمال، وتقع أفقياً. جعلت هذه الظاهرة

الرجل المدان ينسى تماماً أمر المستكشف، فالعجلات المسننة خلبن لبّه، كان يحاول دائماً الإمساك بواحدة وفي الوقت نفسه يحث الجندي على المساعدة، لكنه كان دائماً يسحب يده مذعوراً، لأن عجلة أخرى دائماً ما كانت تأتي تتقافز إلى الأمام، وكان هذا على الأقل يُدخل الروع في قلبه عند أول تقدّمها.

المستكشف، من ناحية أخرى، شعر بالضيق الشديد؛ فالجهاز من الواضح قد أصبح شذر مذر؛ وكان عمله الصامت مجرد وهم؛ وتملّكه شعور بأنه يجب أن يقف الآن بجانب الضابط، لأن الضابط لم يعد قادراً على الاعتناء بنفسه. ولكن في الوقت الذي استقطبت العجلات المسننة المتدلية كل اهتمامه فقد نسي مراقبة بقية الجهاز؛ ولأن آخر عجلة مسننة كانت قد تركت «النقّاش»، على أية حال، فإنه انحنى على «المشط» وألمّت به مفاجأة جديدة وغير سارّة. وهي أن «المشط» لم يكتب، كان فقط يطعن، و«المرقد» لا يدير الجسم ولكن يرفعه فقط مرتعشاً على الإبر. أراد المستكشف أن يفعل شيئاً ما، إذا كان ذلك ممكناً، من أجل إيقاف الجهاز كله، لأن هذا لم يكن تعذيباً مثالياً مثلما أراده الضابط، بل كان قتلاً صريحاً. فمدّ يديه. ولكن في تلك اللحظة ارتفع «المشط» مع الجسم المغروس فيه وانتقل إلى الجانب، كما هو شأنه عادة عندما تحين الساعة الثانية عشرة. كان الدم يتدفق كالميازيب، لم يختلط بالماء، كما أن خراطيم الماء توقّف عملها أيضاً. والآن فشلت المرحلة الأخيرة من القيام بالمهمة، فالجسم لم يسقط بعيداً عن الإبر الطويلة، وبينما يشخب الدم فقد استمر معلقاً على الحفرة دون الوقوع فيها. حاول «المشط» العودة إلى موقعه القديم، ولكن كأنه لاحظ بنفسه أنه لم يتخلص بعدُ من حمله فقد علق بعد كل هذا حيثما كان، فوق الحفرة. «تعالا وقدّما المساعدة!» صرخ المستكشف إلى الاثنين الآخرين، وأمسك بنفسه بقدمي الضابط. أراد أن يندفع تجاه القدمين في حين أمسك الآخران بالرأس من الجانب الآخر وهكذا تمّ تخليص الضابط ببطء من الإبر. لكن هذين الاثنين لم يكن بوسعهما أن يقررا المجيء؛ فالرجل المدان تحرّك

بعيداً؛ فاضطر المستكشف إلى الذهاب إليهما وإجبارهما على المجيء عند رأس الضابط. وهنا، تقريباً ضد إرادته، كان عليه أن ينظر إلى وجه الجثة. كانت مثلما هي عليه في الحياة؛ لم تظهر أية علامة على الفداء الموعود؛ إذ ما كان قد وجده الآخرون في الآلة لم يكن قد وجده الضابط؛ فالشفتان كانتا مضغوطتين بقوة معاً، وكانت العينان مفتوحتين، وبالتعبير نفسه كما في الحياة، وكانت نظرتهما هادئة ومطمئنة، وخلال الجبين مضى رأس المسمار الحديدي العظيم.

وعندما وصل المستكشف، بمعية الجندي والرجل المدان، إلى أول بيوتات المستعمرة، أشار الجندي إلى أحدهما وقال: «ها هو ذا المقهى».

في الطابق الأرضي من المنزل كان ثمة مجال عميق، منخفض، مجوّف، اسودّت جدرانه وسقفه بالدخان. كان مفتوحاً على الطريق على طوله كلّه. وبرغم أن هذا المقهى كان مختلفاً قليلاً جداً عن المنازل الأخرى في المستعمرة، التي كانت جميعها متهالكة جداً، حتى وصولاً إلى المقر الواسع للقائد، فإنه أدخل في روع المستكشف انطباعاً ينمّ عن تقليد تاريخي من نوع ما، وشعر بسطوة الأيام الخوالي. واقترب منه، يتبعه صاحباه، تماماً بين المناضد الفارغة التي شخصت في الشارع أمام المقهى، وتنفس الهواء البارد، الثقيل الذي جاء من الداخل. قال الجندي، «الرجل العجوز مدفون هنا، إذ لم يسمح لهم القس بدفنه في فناء الكنيسة. لا أحد كان يعرف أين سيدفنونه مؤقتاً، ولكن في النهاية دفنوه هنا. من المؤكد أن الضابط لم يخبرك قط بذلك، لأن ذلك بطبيعة الحال كان يُشعره بالخجل أكثر. بل حتى إنه حاول عدة مرات نبش قبر الرجل العجوز ليلاً، لكنه دائماً كان يتعرّض للمطاردة». «أين هو القبر؟» سأل المستكشف، الذي وجد من المستحيل تصديق الجندي. وفي الحال ركض كلّ من الجندي والرجل المدان أمامه مشيرين بأيادٍ ممدودة إلى الاتجاه حيث ينبغي أن يكون القبر. وقادا المستكشف حتى الجدار الخلفي، حيث كان الضيوف يجلسون على بعض المناضد. كانوا على ما يبدو عمال الميناء، رجال أشدّاء بلحى

قصيرة، لامعة، سوداء كثّة. لم يرتدِ أيّ منهم سترة، وقمصانهم ممزقة، كانوا مخلوقات فقيرة، متواضعة. عندما اقترب المستكشف، نهض بعض منهم، وضغطوا أنفسهم لصق الجدار، وجعلوا يحدقون في وجهه. «إنه أجنبي»، مرّ الهمسُ من حوله، «يريد أن يرى القبر». نحّوا أحد المناضد جانباً، وكان تحته شاهد قبر بالفعل. كان عبارة عن حجر بسيط، منخفض بما يكفي بحيث تغطيه منضدة. ثمة نقش عليه بحروف صغيرة جداً، لذلك اضطر المستكشف إلى الركوع لقراءته. يقول النقش: «هنا يرقد القائد القديم. إن أتباعه، الذين لا بد أن يكونوا الآن بلا أسماء، قد حفروا هذا القبر وأنشؤوا هذا الحجر. هناك نبوءة تفيد بأنه بعد عدد معين من السنوات سوف يُبعث القائد مرة أخرى ويقود أتباعه من هذا البيت لاستعادة المستعمرة. كن مؤمناً وانتظر!» وعندما قرأ المستكشف هذا ونهض على قدميه رأى جميع المتفرجين حوله يبتسمون، كما لو أنهم كانوا قد قرؤوا النقش أيضاً، ووجدوه مثيراً للسخرية، وكانوا يتوقعون منه أن يوافقهم الرأي. تجاهل المستكشف هذا، ووزع عليهم عدداً قليلاً من القطع النقدية، وبقي منتظراً حتى تمّ دفع الطاولة فوق القبر مرة أخرى، وغادر المقهى، وتوجّه نحو الميناء.

وقد وجد الجندي والرجل المدان بعضاً من معارفهما في المقهى، الذين أخّروهما. ولكن سرعان ما تصافحا معهم مودّعين، لأن المستكشف كان في منتصف الطريق يهبط مجموعة الدرجات الطويلة المؤدية إلى القوارب عندما جاءا مسرعَين بعده. ربما كانا يريدان إجباره في اللحظة الأخيرة على اصطحابهما معه. وبينما كان يساوم في الأسفل مع صاحب العبّارة لينقله إلى الباخرة، جاء الاثنان من فورهما يهبطان الدرجات، في صمت، لأنهما لم يجرؤا على الصياح. ولكن ما إن وصلا إلى أسفل الدرجات كان المستكشف في القارب، وانطلق صاحب العبارة من الشاطئ. وهمّوا بالقفز إلى القارب، لكن المستكشف رفع حبلاً ثقيلاً معقوداً من داخل القارب، وهددهما به، وهكذا منعهما من محاولة القفز.